خطب الشيخ القرضاوى

دكتور يوسف القرضاوى

إعداد
الشيخ خالد السعد

الجزء الثالث

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

خطب الشيخ القرضاوى

إعـــداد
خالد خليفة السعد

تأليف
دكتور يوسف القرضاوى

الجزء الثالث

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولـى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

بقلم الأستاذ الدكتور / يوسف القرضاوى

الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات، وبفضله تتنزّل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات. وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير، وهادى البشريّة إلى الرشد، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، سيّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمّد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنّته، واقتدى بسيرته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعـد :

فهذا هو الجزء الثالث من خطبى، قام بإعدادها والتعليق عليها، وتخريج أحاديثها، وترقيم آياتها الأخ الحبيب العالم الفاضل والداعية النابه الشيخ خالد السعد، جزاه الله عنّى وعن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى به العلماء العاملين، والدعاة الصادقين.

وقد راجعته كما راجعت الجزءين الماضيين، وأجبت ما طلبه منى الأخ خالد من استكمال بعض الفجوات التى تحدث عادة فى الأشرطة، وتخريج بعض الأحاديث التى لم يهتد إليها، وتهذيب بعض العبارات. وقد وضعت بعض العناوين الجانبية، لبعض الخطب، وإن لم يسعفنى الوقت لإتمامها.

وهذا الجزء يمضى على سنّة أخويه السابقين الأول والثانى، خدمة وعناية وتوفيقا، وأدعو الله تعالى أن يشرح للأخ خالد صدره، وييسر له أمره، ويمنحه التأييد والتسديد، حتى يخرج الأجزاء السبعة التى هى تحت يديه الآن، ويعينه

على إتمامها: عسى أن يجد فيها المسلمون ما ينير لهم الدرب، وما يضيىء العقول بحسن الفهم، وما يوقظ القلوب بصدق الإيمان، وما يحرّك العزائم ببواعث الشوق إلى الله، وعوامل الخشية من الله، ودواعى الرغبة والرهبة، إلى استباق الخيرات، والتناف س فى الصالحات، والمسارعة إلى مغفرة من الله وجنّة عرضها السموات والأرض، أعدّت للمتقين.

ولعلّ أكثر من ينتفعون بهذه الخطب هم إخوتنا وأبناؤنا من خطباء المساجد، الذين ينتشرون فى أنحاء العالم، ليأخذوا بأيدى الناس إلى الله، ويضيئوا لهم الطريق، بنور الإسلام الصحيح، فقد يجدون فى هذه الخطب بعض الزاد الذي قد ينفعهم، مع وصيّتى لهم بضرورة رعاية ظروف المكان والزمان وحال الإنسان.

فهذه خطب طويلة بطبيعتها، ولا أنصح كلّ خطيب أن ينهج نهجى فى التطويل، فقد احتملنى الناس، على هذه الإطالة، وهذا من فضل الله تعالى علىّ، وما كلّ خطيب يحتمله الناس، والسّنّة هى التقصير.

وشكر الله لمكتبة وهبة قيامها بنشر هذه الخطب، وكلّ من ساهم فى تعميم النفع بها.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله.

الدوحة: ربيع الأوّل سنة ١٤٢١ هـ
حزيران (يونيو) سنة ٢٠٠٠

الفقير إليه تعالى
يوسف القرضاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم الشيخ : خالد السعد

أحمد الله تبارك وتعالى، وأصلي وأسلّم على خاتم أنبيائه ورسله، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته وجاهد جهاده إلى يوم الدين، (وبعد) :

فهذا هو الجزء الثالث من (خطب الشيخ القرضاوى) حفظه الله، أقدّمه للقرّاء الكرام، مشتملاً – كالجزءين السابقين – على عشرين خطبة من خطب الجمعة والعيدين، تنوّعت موضوعاتها ومناسباتها وأزمنتها، ولكنّها التقت كلّها حول هدف واحد هو: تجديد الإسلام وإحياؤه في العقول والقلوب والأنفس، وحشد الناس ألوفاً ألوفاً فى ساحته، وجمعهم صفوفاً صفوفاً على دعوته.

وأنا – إن شاء الله – على العهد والوعد، مواصلاً المسيرة فى إخراج أجزاء أخرى من هذه الخطب، ولا يزال لدىّ – بحمد الله – ما يكفى لإخراج سبعة أجزاء أخرى تضمّ سلسلات متنوّعة منها: العقيدة الإسلاميّة، والخلفاء الراشدون، ووصايا سورة الإسراء، والمرأة، والشباب، والحياة الزوجيّة، وأمراض الأمّة، والمبشّرات بانتصار الإسلام.

والله أسأل أن يمدّنى بروح من لدنه، ويكرمنى بعونه وتوفيقه، حتى أكمل بقيّة الأجزاء.

كما أسأله سبحانه أن يجزى شيخنا الجليل، وأستاذنا الكبير، العلاّمة (يوسف القرضاوى) عن الإسلام وأمتّه خيرا، ويجزل له المثوبة بقدر ما أحيا من قلوب، ونشر من علم، وأشاع من حكمة.

وصلّى الله على نبيّه وآله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

خالد السعد

١ - أبو بكر الصديق (رضى الله عنه)

● **الخطبة الأولى :**

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمّة، وجاهد فى الله حقّ جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، على الطريقة الواضحة الغرّاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا.

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على هذا النبىّ الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهمّ على سنّته، وأمتنا على ملّته، واحشرنا فى زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

أمّا بعد... فيا أيّها الإخوة المسلمون :

هذا مسجد أبى بكر الصديق :

هذا المسجد يُنسب إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه: (مسجد أبى بكر الصديق) [١].

لماذا ينسب المسلمون مساجدهم ومدارسهم ومؤسّسات كثيرة عندهم إلى أبى بكر الصديق، وإلى أمثاله من الغرّ الميامين من أصحاب رسول الله ﷺ؟

إنّ هذا اعتراف من المسلمين بفضل أولئك السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، رضى الله عنهم ورضوا عنه.

---

(١) أسندت خطبة الجمعة بهذا المسجد بالدوحة منذ إنشائه إلى الشيخ القرضاوى، وهذه أول خطبة ألقيت فيه منذ أكثر من ربع قرن، وكان ذلك قبل إنشاء مسجد عمر بن الخطاب وانتقاله إليه.

● وجوب التعرف على جيل الصحابة :

لهذا كان من واجبنا أن نتعرّف على هذه الصفوة المباركة، على هذا الجيل الربانى الذى تخرّج فى مدرسة النبوّة، فى مدرسة محمّد ﷺ .

كان من واجبنا أن نتعرّف على هؤلاء، فإنّ الإسلام لم يصلنا، وإنّ القرآن والسنّة لم يأتيا إلينا إلاّ عن طريق هؤلاء. إنّ هذا الإسلام الذى نعيش فى رحابه، ونحيا فى ظلّه، لم يصل إلينا عفواً صفوا، وإنّما وصل إلينا عبر جهاد طويل، من أناس بذلوا أنفسهم ونفائسهم فى سبيل الله، وكان فى طليعة هؤلاء: أبو بكر الصّدّيق رضى الله عنه.

أبو بكر الرجل الثانى فى الإسلام :

أبو بكر أوّل من أسلم من الرجال، وأوّل من جمع القرآن، وأوّل من سمّاه (مصحفاً)، وأوّل خلفاء رسول الله ﷺ .

أبو بكر الصديق - كما قال سعيد بن المسيّب سيّد التابعين رضى الله عنه - كان ثاني رسول الله ﷺ فى الإسلام، وكان ثانية فى الغار: ﴿ .. **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان ثانيه فى العريش يوم بدر، وكان ثانيه فى إمامة المسلمين الصغرى، وإمامتهم الكبرى. وكان ثانيه فى القبر، وما قدّم المسلمون ولا قدّم رسول الله ﷺ على أبى بكر أحداً.

أجل، أبو بكر الصديق أوّل من أسلم من رجال هذه الأمّة، جاء فى الحديث: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت عنده كبوة وتردّدٌ ونظر، إلاّ أبا بكر ما عكم [أى تلبث] عنه حين ذكرته، ولا تردّد فيه»[1] ، فبمجرّد أن دعاه رسول الله ﷺ دخل فى الإسلام، لأنّه كان يعرفه من قبل، معرفة الصديق بصديقه، الذى يعرف مظهره ومخبره، ومدخله ومخرجه، من خلال عشرة طويلة. وكان يرى فيه دلائل نبوّة، ويعرف من أخلاقه أنّه ليس بكذّاب، فما أن عرض عليه الإسلام حتى أسلم.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية (٣ / ٢٦) عن ابن إسحاق من حديث محمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمى.

• ولمّا كان يوم الإسراء وأخبر النبى ﷺ قريشاً بما وفّقه الله إليه من رحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، واستبعد هؤلاء ذلك، وذهب أحدهم إلى أبى بكر يعرض عليه ما قال صاحبه، كأنّه كان يتخيّل أن يوافقه أبو بكر على التكذيب، قال له: أو قال ذلك؟ قال: نعم. قال: إن كان قاله فقد صدق. إنّى أصدّقه فى خبر السماء – أنّ جبريل يأتى من فوق سبع سموات إلى الأرض بآيات الله في لحظة – أفلا أصدّقه أن يذهب إلى بيت المقدس فى ليلة؟ ولهذا سمّى (الصّدّيق)، لسرعة تصديقه للنبى ﷺ، وللازمته للصدق فى حياته كلها.

كان أبو بكر: الرجل الثانى فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ عرف ذلك المسلمون، عرفوا فضله، حتى فى حياة النبى ﷺ تغاضب أبو بكر وعمر فى قضية من القضايا، واشتدّ أبو بكر على عمر فى هذه القضيّة، ثمّ طلب أبو بكر من عمر السماح، فلم يسمح عمر وأبى، قال له: اغفر لى ياعمر، فلم يفعل. فذهب أبو بكر يشكو عمر إلى النبى ﷺ، وأدرك عمر خطأه، فذهب إلى أبى بكر ليعتذر إليه، فلم يجده فى البيت، فأقبل إلى النبى ﷺ فوجد وجهه متمعّراً – أن يستسمحه أبو بكر فلم يسمح – وخشى أبو بكر أن يغضب عليه النبى ﷺ فقال: يارسول الله أنا كنت أظلم منه.. أنا كنت أظلم منه – يريد أن يعفو عنه النبى ﷺ – فقال النبى ﷺ لعمر: «إنّ الله بعثنى إليكم فقلتم: كذبت، **وقال أبو بكر: صدق، وواسانى بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لى صاحبى؟ فهل** أنتم تاركون لى صاحبى؟» [1].

هكذا كانت منزلة أبى بكر من رسول الله ﷺ.

وفى الحديث المشهور: «... ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوّة الإسلام..» [2].

• إشارات نبوية لترشيح أبى بكر لقيادة الأمة :

كانت منزلة أبى بكر عند رسول الله ﷺ وعند المسلمين منزلة كبيرة،

---

(١) البخارى ج ٤ كتاب فضائل الأصحاب باب ٥ عن أبى الدرداء.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد: كتاب فضائل الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فضائل أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه. انظر (صحيح مسلم بشرح النووى: ١٥ / ١٥٠ – ١٥١) ط. دار الفكر، ١٤٠١ هـ – ١١٨١).

ولهذا لمـّا مرض النبى ﷺ قدّمه ليصلى بالناس، وهذا حديث متواتر، قال: «مروا أبا بكر فليصلّ بالنّاس»[١] ، وكانت عائشة رضى الله عنها تحاول أن لا يجعله خليفته فى الصلاة حتى لا يتشاءم الناس به، ولكنّ النبى ﷺ أصرّ أن يكون أبو بكر خليفته على الإمامة بالنّاس. وكان فى هذا إشارة إلى ترشيحه، وقد فهم المسلمون الإشارة وقالوا قولتهم بعد ذلك: رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟!

وكانت هناك إشارات كثيرة من النبى ﷺ إلى ترشيح أبى بكر.

فقد جاءت امرأة تسأل النبى ﷺ شيئاً، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يارسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ - كأنّها تعنى الموت - فقال: «فإن لم تجدينى فأتى أبا بكر»[٢] كلّ هذا إشارة إلى ترشيحه.

وفى الحديث الآخر: أراد أن يكتب كتاباً لأبى بكر حتى لا يتمنّى متمنّ، ويقول قائل أنا أولى، فقال النبى ﷺ: «ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٣]. حتى ذهب من ذهب من علماء المسلمين إلى أنّ أبا بكر منصوص عليه، أخذاً من مجموع هذه الإشارات والكلمات.

كان أبو بكر أوّل من خلف رسول الله ﷺ، وكان جديراً أن يكون مقدّم هذه الأمّة، فقد عاش مع النبى ﷺ وشهد معه المشاهد كلّها، ولم يغادره فى سفر ولا حضر.

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة عن عائشة رضى الله عنها، ورواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه، ورواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما، ورواه ابن ماجة عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن سالم بن عبيد الأشجعى رضى الله عنه: (فيض القدير للمناوى: ٥ / ٥٢١ برقم ٨١٧٥).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه (صحيح مسلم بشرح النووى: ١٥ / ١٥٤).

(٣) رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها (صحيح مسلم بشرح النووى: ١٥ / ١٥٥).

● **يوم وليلة من أبى بكر خير من عمر :**

ولما سمع عمر فى خلافته أنّ بعض الناس يقدّمه على أبى بكر، صعد المنبر وقال : أما إنّى سمعت بعض الناس يقول : كذا وكذا، وإنّ يوماً وليلة من أبى بكر خير من عمر وآل عمر، وذكر الليلة وذكر اليوم .

أمّا الليلة فكانت ليلة الهجرة، ليلة الغار، حيث صحب أبو بكر رسول الله ﷺ وسار معه إلى الغار، فكان تارة يمشى أمامه، وتارة يمشى خلفه، وتارة يمشى عن يمينه، وتارة يمشى عن شماله، فسأله النبى ﷺ، فقال : يارسول الله أتذكر الرصد – أن يكون هناك أحد مترصّداً لك – فأمشى أمامك، حتى إذا حدث شيء تلقّيته عنك، ثم أتذكر الطلب – أن يكون أحد يطلبنا من خلفنا – فأمشى خلفك، ثمّ أمشى عن يمينك، ثمّ أمشى عن شمالك(١) .

معنى هذا أنّه كان يريد أن يفدى رسول الله ﷺ بنفسه. ولم يدخل الغار حتى تحسّسه أن يكون فيه شيء يؤذى رسول الله ﷺ .

فهذه ليلة ذكرها عمر .

أمّا اليوم : فيوم مات النبى ﷺ، وطاشت العقول، وغابت الأحلام، حتى ذهب بعض النّاس إلى أنّه لم يمت، وحتى إنّ عمر نفسه قال : لا تقولوا هذا، من قال : إنّ رسول الله قد مات، ضربت عنقه! فوقف أبو بكر – هذا الرجل اللّيّن البكّاء الخاشع – كأنّه الجبل الأشمّ والطود الراسخ، وقال فى خطبته الشهيرة : أيّها الناس، من كان يعبد محمداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت، وقد قال الله تعالى له في كتابه : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . .** ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال له : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. قال الصحابة : كأنّنا لم نسمع هذه الآيات

---

(١) رواه أحمد فى فضائل الصحابة عن ابن أبى مليكة، ج ١ حديث رقم ٢٢ .

التى طالما تلوناها وسمعناها إلاّ اليوم. أذهلتهم المصيبة وأدهشتهم الصدمة، ولكن أبا بكر - وهو أشدّ الناس حبّاً لرسول الله ﷺ وتعلّقاً به - لم تذهله الصدمة، وكشف عن وجهه ﷺ وقال: طبت حيّاً وميتاً يارسول الله!

كان أبو بكر رجل الموقف، كان هو الرجل الذى يحتاجه الموقف فى تلك الساعة، وإنّما الرجال بمواقفهم.

وقد ظهر فضله، وظهرت صلابته، وظهرت شجاعته، فى المواقف كلّها.

● أبو بكر الخليفة الأوّل :

لقد قدّمه المسلمون واختاروه وبايعوه خليفة لرسول الله... تلكّأ الأنصار فى أوّل الأمر، وقالوا: منّا أمير ومنكم أمير. حتى وقف أبو بكر فخطب فيهم خطبته وقال: يامعشر الأنصار، والله لا ننكر فضلكم، أنتم كذا وكذا، ولكنّا عصبة رسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقُدّمنا فى القرآن عليكم، ولا تدين العرب إلاّ لهذا الحىّ من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم ما آتاهم الله تعالى، نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، ها أنا أرضى لكم أحد هذين الرجلين: عمر أو أبا عبيدة. قال عمر وقال أبو عبيدة: ما نقدّم عليك أحدا. وسارع عمر فبسط يده فبايعه، وبايعه أبو عبيدة، ثمّ تسارع الأنصار بعدهما فبايعوه مختارين راضين.

لقد قال لهم بشير بن سعد كلمة قلبت الموقف كلّه، قال لهم: يامعشر الأنصار، لقد كنتم أوّل من آوى ونصر، فلا تكونوا أوّل من بدّل وغيرّ، فقالوا: والله ما نقدّم على أبى بكر أحدا.

كلمة واحدة قالها رجل مخلص، ففعلت فعلها فى النفوس، لأنّ النفوس كانت مطمئنّة بالإيمان، كانت الفطر سليمة، فإذا وجدت الكلمة الصادقة فإنّها تفعل فعلها فى هذه النّفوس.

● رجل المواقف: حروب الردة :

تجلّت مواقف أبى بكر بعد وفاة النبى ﷺ، وفى خلافته التى كانت خيراً

وبركة على المسلمين رغم قصر مدتّها - سنتان وبضعة أشهر - ولكنّها حفظت الإسلام وأبقته حيّاً مترعرعاً.

لولا وقفة أبى بكر وصلابته ما قام للإسلام قائمة، ولكن الله قيّض لهذا الدين هذا الرجل.

انظروا: مات رسول الله ﷺ وتسامع العرب بموته، تسامعت القبائل - وكان إسلامها لم يتمكن بعد - فارتدّ الكثيرون، ومنع الزكاة الكثيرون، وساروا وراء المتنبئين الكذّابين: مسيلمة فى بنى حنيفة، وسجاح بنت الحارث فى بنى تميم، والأسود العنسى فى اليمن، وطليحة الأسدى فى أسد وغطفان، وكانوا يعلمون أنّ هؤلاء كذّابون، ولكنّها العصبيّة الجاهليّة.

كانوا يقولون: كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر، يريدون نبيّا قوميّاً وطنياً قبلياً، من قبيلتهم، ولو كان كاذبا.

انتشرت الردّة فى كل مكان، وقال آخرون: نصلّى ولا نزكّى، إنّما كانت الزكاة لرسول الله، لأنّ صلاته سكن لنا، أمّا أبو بكر فلا يأخذ منّا الزكاة، لأن صلاته ليست سكنا لنا.

حدث هذا كلّه، فماذا صنع أبو بكر؟

● **أول من حارب من أجل الفقراء :**

أبى أبو بكر إلاّ الإسلام كلّه، أبى أن يتنازل عن شىء من الإسلام، حتى إنّ عمر بن الخطاب على قوّته وجبروته فى دين الله، جاء إليه يقول له: يا خليفة رسول الله، تألّف القوم فإنّهم كالوحش وارفق بهم. فقال: ماذا تقول يا ابن الخطاب؟! أجبّار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام؟! أأرجو نصرتك فتجيئنى بخذلانك؟! ماذا تريدنى أن أفعل بهم؟ آتيهم بشعر مفتعل أم بسحر مفترى؟! والله لأجاهدنّهم ما استمسك السيف بيدى، والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: كيف تقاتلهم وقد قال النبى ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا منّى دماءهم وأموالهم

إلاّ بحقّها وحسابهم على الله »[1] . قال أبو بكر: أما والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حقّ المال. (أى وقد قال: «إلاّ بحقّها»).

فكان أبو بكر أفقه من عمر فى فهم الحديث.

ولذلك لمّا رأى عمر صلابته واستمساكه قال: فما أن رأيت أبا بكر قد انشرح صدره للقتال إلاّ وقد علمت أنّه الحق.

ووقف الصحابة جميعاً بجانبه، وجهّز أحد عشر لواء، وعقد لأحد عشر قائداً من قوّاد المسلمين، يذهبون إلى هؤلاء القبائل الذين ارتدوّا والذين منعوا الزكاة، وقال قولته المعروفة: والله لو منعونى عناقاً – أى عنزاً صغيرة – وفى رواية: لو منعونى عقالاً – أى حَبْلاً يربط به البعير – كانوا يؤدونّه لرسول الله لقاتلتهم عليه.

وكان أبو بكر أوّل حاكم يعرفه التاريخ، يجيّش الجيوش، ويعلن الحرب، من أجل انتزاع حقوق الفقراء من أيدى الأغنياء، قبل أن تعرف الدنيا الاشتراكيّة والشيوعيّة وغيرها. وإنّما فعل ذلك بأمر الله ورسوله، إنّه يعلم أنّ الزكاة حقّ، تؤخذ طوعاً وإلاّ أُخذت كرها.

كان أبو بكر أوّل من حارب من أجل الفقراء، ماسيّر الفقراء مظاهرة تطالب بحقوقهم.، ولا عقدوا مؤتمراً، ولا قدّموا عريضة، ولكن هو الحق الذى قرّره لهم الإسلام.

هكذا، كان هذا الرجل البكّاء، الذى كان إذا دخل فى الصلاة، وقرأ القرآن، بكى حتى يختفى صوته من البكاء، وانهمرت دموعه حتى تبلّل لحيته، ولكنّه فى المواقف الصعبة يظهر أسداً هصورا.

● **إنفاذ جيش أسامة :**

كان النبى ﷺ قد أمّر الحبّ بن الحب، أسامة بن زيد – الشاب المؤمن ابن الثامنة عشرة – على جيش فيه من كبار الصحابة مثل عمر بن الخطّاب رضى

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (شرح السنة للبغوى بتحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط: ١ / ٦٦ برقم ٣٢).

الله عنه، أمّره ليذهب إلى حيث ذهب أبوه من قبل فى مؤتة، ليذهب للقاء الروم، حتى لا يظنّ الروم أنّ المسلمين قد ضعفوا، أو أنهّم قد يئسوا. أراد النبى ﷺ أن يلقى الرعب فى قلوب القوم، وأمّر عليهم هذا الشاب المتوثّب من شباب المسلمين، الذين كان يشغلهم الجهاد والفتح وإعلاء كلمة الإسلام فى الأرض.

ولكن النبى ﷺ ثقل به المرض، فقالت فاطمة بنت قيس زوجة أسامة: إنّ النبىّ ﷺ ثقل، فلا تعجل بالذهاب.

وشاء الله أن يختار رسوله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فكان رأى المسلمين — بعد أن رأوا ما رأوا من ارتداد من ارتدّ — ألا يُنفذ جيش أسامة.

ارتدت العرب.. ذهبت فيهم الردة كلّ مذهب، ولم يبق هناك إلاّ المدينة ومكّة والطائف، هنالك جاء بعض المسلمين يقولون لأبى بكر: لا تنفذ جيش أسامة، نحن فى حاجة إليه، رُدّ أسامة ومن معه، فإنّ القبائل قد ارتدّت حول المدينة، فقال: ماذا تقولون؟ أتريدون منّى أن أُؤَخّر جيشاً أنفذه رسول الله ﷺ؟ والله لو رأيتُ السباع تتخطّفنى، ولو جرّت الكلاب بخلاخل أمّهات المؤمنين، ما أخّرت جيشاً أنفذه رسول الله ﷺ، ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ!

وأبى إلاّ أن ينفذ جيش أسامة.

كان أبو بكر متّبعاً لا مبتدعاً، كان مؤمناً بالله ورسوله، كانت مزيّته هو هذا اليقين الذى يملأ عليه جوانب صدره، ولذلك جاء فى الأثر: «ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر فى صدره» بسرّ وقر فى صدره، هو سرّ الإيمان واليقين الذى لا يتزعزع أبداً.

أنفذ جيش أسامة، فما كان يمرّ بقبيلة من قبائل العرب إلاّ قالوا: ما ذهب هؤلاء للقاء الروم إلاّ وبهم قوّة ومنعة. فأدخل ذلك الرعب فى قلوبهم، وقالوا: ننتظر حتى نرى ماذا يفعلون مع الروم أو يفعل معهم الروم.

فذهب أسامة ومن معه وقاتلوا وقتلوا، ونصرهم الله وهزم عدوّهم وعادوا سالمين غانمين، فكان فى ذلك خير وبركة على الإسلام والمسلمين.

كان أبو بكر هو رجل الموقف بحق، بعث الجيوش هنا وهناك لتأتى بالزكاة من المانعين، وتردّ هؤلاء المتنبئين الكذّابين ومن معهم إلى حظيرة الإسلام. من عاد إلي الإسلام بالحسنى فبها، وإلاّ فالحَكَم بينه وبين المسلمين السيف، وقد حكّم المسلمون سيوفهم فى أولئك حتى رجعوا إلى الإسلام.

● **معركة اليمامة :**

كان من المعارك الفاصلة فى عهد أبى بكر: معركة اليمامة، معركة المسلمين مع مسيلمة الكذّاب وقومه، كان يوماً من أيّام الله، قاتل فيه بنو حنيفة تحت راية مسيلمة قتالاً لم يُعهد مثله، كانوا مستبسلين. وقاتل الصحابة قتالاً لم يُعهد مثله وصبروا صبراً لم يُعهد مثله.

قيس بن ثابت حفر لنفســه فى الأرض إلى أنصاف ســاقيه، حتى لا يفرّ ولا يغادر مكانه إلاّ أن يموت فى سبيل الله.

زيد بن الخطاب – شقيق عمر – قال: ياقوم، عضّوا على أضراسكم، واثبتوا على أقدامكم، وامضوا قدما، والله لا أتكلمن بكلمة حتى ننتصر، أو ألقى الله شهيداً فى سبيل الله، فأكلّمه بحجتى، فلم يتكلم حتى خرّ شهيداً، ولقى الله مع الشهداء.

حذيفة بن اليمان كان ينادى فى الناس: ياأهل القرآن زيّنوا القرآن بالفعال، ياأهل القرآن زيّنوا القرآن بالفعال.

كان نداء الصحابة ونداء القرّاء: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم.

قيل لسالم مولى أبى حذيفة: إنّنا نخشى أن نؤتى من قبلك. قال: تخشون أن تؤتوا من قبلي؟! بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلى!

ولذلك كان معظم الشهداء فى هذا اليوم من حملة القرآن.

كان يوماً من أيام الله، انتصر فيه الإسلام، وقتل فيه مسيلمة الكذّاب، قتله وحشى بن حرب، ذلك الرجل الأسود الذى قتل بحربته أسد الله وأسد رسوله:

(حمزة بن عبد المطلب) فى أُحد . هذه الحربة قال: لابدّ أن أقتل بها مسيلمة، تكفيراً عن خطيئتى من قبل. ولذلك كان يقول: قتلت خير النـاس، وقتلت شرّ النـاس.

انتصار الإسلام فى عهد أبى بكر :

هكذا كان انتصار الإسلام فى عهد أبى بكر رضى الله عنه. وكان هذا دليلا على القوة الكامنة فى طبيعة الإسلام، والتى تظهر أقوى ما تكون فى أيام المحن والشدائد.

فى عهد أبى بكر رضى الله عنه عاد النّاس إلى حظيرة الإسلام. هؤلاء المرتدون آبوا إلى رشدهم، ورجعوا إلى الإسلام، وكان منهم بعد ذلك من وهب نفسه للقتال فى سبيل الله، تكفيراً عمّا صدر منه فى حرب الإسلام وأهله، فكانوا فى طليعة المقاتلين الذين قاتلوا تلك الدول الطاغية المتجبرة فى الأرض: فارس والروم.

هكذا كانوا وذلك بفضل أبى بكر رضى الله عنه وموقفه الصُّلب الشجاع.

ردّة ولا أبا بكر لها :

ونحن اليوم حينما نرى ألوانا من الردة تظهر فى مجتمعاتنا الإسلامية، تعلن عن نفسها، وتتحدى عقائد الأمة ومشاعرها، وتتهجم على القرآن، وعلى الرسول، وعلى الشريعة، نقول بألم وحسرة ما قاله العلامة أبو الحسن الندوى: (ردّة ولا أبا بكر لها)(١) !

الباذل كل ما عنده للإسلام :

عاش أبو بكر رضى الله عنه حياته للإسلام منذ آمن ولم يعرف إلاّ هذا الدين، بذل نفسه وبذل ماله لله، ولذلك قال النبى ﷺ: «إنّ من أمنّ الناس علىّ

---

(١) عنوان رسالة لطيفة للداعية الإسلامى الكبير الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى رحمه الله.

أبا بكر في ماله وصحبته»، وقال: «ما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر» فبكى أبو بكر وقال: يارسول الله، وهل أنا ومالي إلاّ لك يارسول الله؟!(١).

كان عنده أربعون ألف دينار - أو درهم - قبل الهجرة، فلمّا هاجر لم يكن معه منها إلاّ خمسة آلاف، لم تزد كما يزيد مال التجار، وإنّما نقصت إلى هذا الحد، وإنّما أنقصها أنّه كان يشترى العبيد المستضعفين الذين يُعذّبون ويعتقهم. اشترى سبعة أنفس ممّن يُعذَّبون في الله منهم (بلال بن رباح)، ولذلك كان عمر يقول: أبو بكر سيّدنا وأعتق سيّدنا.

وقد أجمع المفسّرون على أنّ الآيات الكريمة في سورة (الليل) نزلت في أبي بكر: ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ** ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١].

قال عمر: أمر رسول الله ﷺ يوماً بالصدقة، وقد اجتمع عندي مال، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، فأخذت نصف مالي - وهو يظنّ أنّ أحداً لن يصل إلى ما وصل إليه - وذهبت به إلى النبي ﷺ، فقال: ماذا تركت لأهلك ياعمر؟ قلت: تركت لهم مثله يارسول الله، فدعا لي. ثمّ جاء أبو بكر بماله، فقال: ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله - أي جاء بماله كلّه - فقال عمر: والله لا أسابقك إلى شيء أبدا (٢).

● **رجل القرآن :**

كان السابق في الخيرات، كان المقدّم في كل شيء: في الإيمان، في الفقه، في البذل، في السلوك.

عاش بعد رسول الله ﷺ سنتين وبضعة أشهر، ثمّ وافاه المرض، فلمّا مرض نظرت إليه (عائشة) ابنته، الصدّيقة بنت الصدّيق - وهو على فراش الموت - فتمثّلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري كتاب مناقب الأنصار باب ٤٥ ج ٤ .

(٢) رواه أبو داود عن عمر بن الخطاب حديث رقم ١٦٧٨ - الترمذي حديث رقم ٢٩٠٢ وقال: حسن.

فكشف أبو بكر عن وجهه - وهو يعاني سكرات الموت - وقال: لا تقولي هذا يا بنيّة، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

هذا أبو بكر يعيش مع القرآن، حتى ساعة الاحتضار، وقد أغناه القرآن عن الشعر، هذا خليفة رسول الله ﷺ.

التدقيق في الكلمات :

دخل عليه بعض الناس بعد الخلافة، فقال له: ياخليفة الله. قال: لا، بل أنا خليفة رسول الله، وأنا راضٍ به [١].

خشي أن تستخدم هذه الكلمة، كأنّه يتلقّى عن الله، أو نحو ذلك، كما يقوله دعاة (الحق الإلهي) الذي كان يدعيه بعض الناس لملوكهم وأباطرتهم: أنّ عروقهم يجري فيها دم إلهي معيّن - غير دماء الناس - يعصمهم من الخطأ، فنفى أبو بكر ذلك من أوّل الأمر وقال: أنا خليفة رسول الله.

رضي الله عن أبي بكر، ورضي عمّن عاونه وناصره من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

أقول قولي هذا - أيّها الإخوة - وأستغفر الله تعالى لي ولكم، وصلّى الله على محمّد وآله، أُدعوا الله يستجب لكم.

● الخطبة الثانية :

الحمد لله، بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء. وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزرّوه

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/١٨٣، عن ابن أبي مليكة.

ونصروه واتبعوا النّور الذى أنزل معه، أولئك هم المفلحون. ورضى الله عمّن دعا بدعوته، واهتدى بسنّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

من الواجب علينا أن نرجع إلى تاريخنا، وأن نتعرّف على هؤلاء الميامين المباركين من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن تبعهم بإحسان.

إنّ الكثيرين منّا يجهلون هذا التاريخ العظيم، وهو تاريخ حافل، وأكثر من يعرفون منّا شيئاً عنه، إنّما يعرفون الوقائع السياسية الشهيرة، ولا يعرفون ما تمتلىء به صفحات الكتب من فضائل ومناقب لكل هؤلاء الأبطال.

إنّ الإسلام إنّما انتشر فى الأرض بأخلاق هؤلاء. ما انتشر الإسلام بالسيف كما يقول الأفّاكون، إنّما انتشر الإسلام بالأخلاق .. بالإيمان.. بالعمل.

رأى الناس فى أصحاب رسول الله ﷺ، وفيمن تبعهم بإحسان: الإسلام مجسّماً، رأوا فيهم الصدق.. الأمانة.. الزهد فى الدنيا.. الرغبة فيما عند الله عزّ وجلّ، حب الخير للناس، الرحمة بخلق الله، فأحبّوا هذا الدين.

إنّ الذى يحجز الأمم عن الإسلام اليوم إنّما هم (المسلمون). أغلظ حجاب حاجز عن الدخول فى الإسلام هو: حال المسلمين وسلوك المسلمين، هؤلاء الذين يعبثون بالأموال، بالملايين فى أورُبّا وأمريكا، هؤلاء الذين لا يراهم الناس إلاّ مخمورين، هؤلاء الذين يراهم الناس بهذا السوء، ثم يعرفون أنهم (مسلمون) فينفرّون الناس من الإسلام.

إنّ أحوج ما نحتاج إليه: أن نعرف تاريخنا، ونعرف أوّل ما نعرف أصحاب رسول الله ﷺ، الذين ظلمهم من ظلمهم.

تصوّروا أنّ هناك فئة من الناس تذمّ أبا بكر وعمر، وأمثالهما من أصحاب رسول الله ﷺ!

هل رأت الدنيا مثل هؤلاء؟!

هل اكتحلت عين الدنيا برؤية مثل هؤلاء الصفوة الأخيار؟!

هـذا الجيـل الربانى . . الإنسـانى . . القـرآنى . . الأخـلاقى . . الذى لم يُر مثله قط هو ثمرة التربية النبوية، وخريج المدرسة المحمدية فمن طعن فيه فكأنما يشكك فى ثمار النبوة.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا ممّن يسيرون وراء رسول الله ﷺ، ويهتدون بهدى أصحابه، وأن يجعلنا من ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ١٨].

اللّهم إنّا نسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى.

اللهّم إنّا نسألك العفو والعافية فى ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا.

اللهّم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهّم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهّم انصر الإسلام وأعز المسلمين. اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا، وكلمة أعداء الإسلام هى السفلى.

﴿ . . **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿ . . **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠].

وصلّ اللهّم على عبدك ورسولك محمّد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

﴿ . . **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

٢ - رسالة المسجد فى الإسلام

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

حديثنا اليوم عن رسالة المسجد فى الإسلام.

المسجد فى الإسلام دار العبادة، ومكان الصلاة.

كلمة المسجد مشتقّة من (السجود)، أى: موضع السجود، وعُبِّر عن الصلاة - أعظم العبادات - بالسجود، لأنّه الركن الذى يتجلىّ فيه الخشوع الكامل، والخضوع الشامل، لله تبارك وتعالى، كما فى الحديث الصحيح: «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد..» (١).

المسجد هو مكان الصلاة، مكان هذه العبادة اليوميّة، التى جعلها الإسلام عموداً له، فـ«الصلاة عماد الدين» (٢) من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

وجعلها الله خمس مرّات فى اليوم والليلة، أشبه بالوجبات الروحيّة التى يحتاج إليها الإنسان، كما يحتاج إلى الوجبات الغذائيّة المادّيّة لجسمه، حمّام يتطهرّ به كلّ يوم خمس مرات: «أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والنسّائى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، وتتمّته: «فأكثروا الدعاء». (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: برقم ١٩٣، ٩٢٣) و(شرح السنة للبغوى: ٣/ ١٥١ برقم ٥٥٨).

(٢) ذكر الحافظ بن حجر العسقلانى فى كتابه [التلخيص الحبير] ١/ ١٧٣

[(فائدة) قال فى الوسيط: قال صلى الله عليه وسلم: الصلاة عماد الدين، فقال النووى فى التنقيح: هو منكر باطل، قلت: وليس كذلك، بل رواه أبو نعيم شيخ البخارى فى كتاب الصلاة، عن حبيب بن سليم، عن بلال بن يحيى، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ نسأله فقال: الصلاة عمود الدين، وهو مرسل رجاله ثقات.....]. يقول يوسف القرضاوى:

وجاء فى حديث معاذ بن جبل عند الترمذى وغيره: «ألا أدلك على رأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد».

يوم خمس مرّات هل يبقى من درنه [1] شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا » [2] .

وقد ندب الإسلام إلى الصلاة في المسجد . . صلاة الجماعة، فهي إمّا سنّة مؤكدة، وإمّا فرض كفاية، وإمّا فرض عين كما يرى ذلك الإمام أحمد رضى الله عنه .

فللجماعة أهميّتها في الإسلام، ومن هنا نشأت أهميّة المساجد لتبنى الإيمان وتزرع اليقين، وتذكر بالله تعالى وباليوم الآخر، وتصل المسلم بحقائق الإسلام، يتعلم فى المسجد ما جهل، ويتذكر ما نسى، ويقوى ما ضعف من أمر دينه .

ليس ارتباط المسلم بالمسجد كما يرتبط النصرانيّ مثلاً بالكنيسة، يزورها مرّة فى الأسبوع، لا، إنّ المسجد يرتبط بحياة المسلم يوميّاً، وإذا تكاسل عن الجماعة صلاة أو صلاتين تفقده إخوانه وسألوا عنه، فإن كان مريضا عادوه، وإن كان مشغولاً أعانوه، وإن كان مسافراً دعوا له وتفقدوا أهله، وإن كان ناسياً ذكّروه، وهكذا .

كان المسجد هو الملتقى اليومى للمسلمين، ومن هنا حثّ الإسلام على بناء المساجد، وجعل لبناء المسجد قيمة عند الله، جعله باباً إلى الجنّة، حتى قال النبى ﷺ : « من بنى لله مسجداً قَدْرَ مَفْحَصِ قَطَاة بنى الله له بيتاً فى الجنّة » [3] القطاة : طائر صغير، ومفحص قطاة : هو المكان الضيّق الذى تفحص التراب عنه لتبيض فيه . أى مهما بلغ من الصغر والضيق فإنّ له عند الله بيتاً فى الجنّة .

هكذا تسابق المسلمون قديماً إلى بناء المساجد، ولا يكاد يوجد خليفة

---

(١) الدرن : هو الوسخ .

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسّائى من حديث أبى هريرة، ورواه ابن ماجة من حديث عثمان (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٦٨ ، برقم ١٨٤) .

(٣) رواه البزّار واللفظ له، والطبرانى فى الصغير، وقال الهيثمى : رجاله ثقات، ورواه ابن حبان فى صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٥٩ ، برقم ١٥٥) .

أو سلطان أو أمير إلا حاول أن ينشيء مسجدا، أو يحيى مسجدا، ولا غرو أن كان أول مؤسسة أنشأها رسول الله ﷺ بعد الهجرة هي المسجد النبوى، الذى كان محور النشاط فى المجتمع كله.

ومن هنا كانت أهمية المشى إلي المسجد، كل من مشى إلى المسجد كتب الله له بكلّ خطوة حسنة، ورفع له بها درجة، ومحا عنه سيّئة [1] ، ولهذا لمّا أراد بنو سلمة من الأنصار أن يتركوا أماكنهم البعيدة وينتقلوا إلى أماكن قريبة من مسجد النبى ﷺ منعهم النبى عليه الصلاة والسلام. أرادوا أن يتركوا أماكنهم التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم وأن يأتوا قرب المسجد فقال لهم: «يابنى سلم، ديارَكُمْ تُكْتَبْ آثارُكُم، ديارَكُمْ تُكْتَبْ آثارُكُم»[2] أى: الزموا دياركم، وآثاركم وخطواتكم مكتوبة لكم.

وقال النبى ﷺ: «المشّاؤون إلى المساجد فى الظلم أولئك الخوّاضون فى رحمة الله تعالى»[3] من مشى للمسجد وخاصّة فى ظلمات الليل أولئك الخوّاضون فى رحمة الله، وقال: «بشّر المشّائين فى الظلم إلى المساجد بالنوّر التامّ يوم القيامة» [4].

فكل غدوة أو روحة إلى المسجد لها أجرها عند الله، وفى الحديث: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ الله له فى الجنّة نزلاً كلّما غدا أو راح» [5].

---

(١) ففى الحديث الذى رواه أبو داود: «إذا توضأ أحدكم فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة، لم يرفع قدمه اليمنى إلاّ كتب الله - عز وجل - له حسنة، ولم يضع قدمه اليسرى إلاّ حطّ الله - عز وجل - عنه سيّئة...» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ١٦٢ برقم ١٦٨).

(٢) رواه مسلم وغيره من حديث جابر رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ١٦٣ برقم ١٦٩).

(٣) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة حديث رقم ٧٧٩ وسكت عنه البوصيرى ولم يذكره الألبانى فى صحيح ابن ماجة.

(٤) رواه أبو داود، والترمذى وقال: حديث غريب، وفى نسخة: حسن غريب. من حديث بريدة، قال الحافظ المنذرى: ورجال إسناده ثقات، ورواه ابن ماجة بلفظه من حديث أنس. وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ١٦٤ برقم ١٧٣).

(٥) رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ١٦٣ برقم ١٧٢).

هكذا كانت قيمة المسجد، وهكذا منزلة المسجد.

ولهذا كان اعتياد المشيء إلى المساجد وعمارتها بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن دليلاً على الإيمان.

روى الترمذى عن النبى ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» [1] ثمّ تلا قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...** ﴾ [التوبة: ١٨] والعمارة ليست بالبناء فقط، من ذهب إلى المسجد مصليّاً أو مسبّحاً أو تالياً أو جالساً فى حلقة علم أو منتظراً للصلاة أو لتلاوة قرآن فهو يعمر المساجد. والحديث ضعيف الإسناد ولكن عمدتنا هى الآية الكريمة.

للمسجد منزلة أى منزلة فى الإسلام، ولهذا كان فى عهد النبى ﷺ مركز الدعوة، ودار الدولة، الدعوة تنطلق من المسجد، والدولة أيضاً كانت تتمثّل فى المسجد، كان النبى ﷺ يستقبل المندوبين والوفود والسفراء القادمين من البلاد الأخرى فى المسجد، ويقابل أصحابه فى المسجد، ويعلّمهم فى المسجد، وتنطلق الجيوش من المسجد، وكان المسجد محور الحياة الإسلامية، ومحور النشاط الإسلامى كلّه.

المسجد جامع وجامعة :

كان المسجد جامعاً للعبادة، وجامعة للعلم. كان جامعة شعبيّة مفتوحة الأبواب فى الصيف والشتاء، فى الخريف والربيع، للرجال وللنّساء، للكبار وللصغار، يتعلم فيها الدين، ويتعلّم فيها الأدب، ويتعلّم فيها الخلق، مدرسة تعلّم العلم والعمل، وتربى النفوس، وتعلم الرؤوس، تُعنى بالتطبيق قبل النظريّة.

كانت الجوامع جامعات، ومن هنا عرفنا الجامعات العلميّة العريقة فى العالم

---

(١) رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجة، وابن خزيمة فى صحيحه، وابن حبان والحاكم والبيهقى فى السنن عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، وقال الترمذى: حسن غريب. وانظر (فيض القدير للمناوى: ١/٣٥٧ - ٣٥٨ برقم ٦٣٤). والحديث من رواية دراج عن أبى الهيثم، ولذا ضعفه العلماء.

الإسلامى باسم الجوامع: جامع الأزهر في مصر، وجامع الزيتونة فى تونس، وجامع القرويين فى المغرب . هذه الجامعات من أعرق – أو هى أعرق – الجامعات فى العالم، نشأت تحت سقوف الجوامع وفى ساحات المساجد .

المسجد للرجل وللمرأة جميعا :

كان المسجد جامعة شعبية مفتوحة للرجل والمرأة، لم تكن المرأة محرومة من المساجد، كما حرمها المسلمون فى العصور الأخيرة . كان مسجد النبى ﷺ يتسع للرجال وللنساء، كان للرجال الصفوف الأماميّة، وكان للنساء الصفوف الخلفيّة، ولم يكن بينهم أىّ حاجز لا من خشب ولا من بناء، ولا من نسيج .

وكانوا يدخلون من أبواب واحدة، ثمّ رأى النبى ﷺ فى بعض الأوقات مزاحمة الرجال بالنّساء، فقال : «لو تركنا هذا الباب للنساء» [١] . قال ابن عمر : فلم أدخل منه ولم أخرج بعد منه [٢] .

صار هذا الباب للنّساء، ولا زال إلى اليوم مكتوباً عليه : «باب النّساء» . من زار مسجد النبى فى المدينة، رأى هناك باباً يسمّى باب «النّساء» .

ولهذا ممّا سرّنى فى هذا المسجد أن يكون هنا مكان للمرأة المسلمة، تأتى لتسمع الموعظة، وتشارك فى العبادة الإسلاميّة، كما شارك نساء الصحابة، وأمهات المؤمنين فى العهد النبوى وعهد الصحابة رضى الله عنهم .

لم يحرم الإسلام المرأة من العبادة، ولا من الموعظة، ولا من الدروس، فلا داعى للتشدّد الذى تشدّد به بعض العلماء فى العصور الفائتة . فإنّ المرأة اليوم قد خرجت وذهبت إلى المدرسة، وذهبت إلى الجامعة، وذهبت إلى السوق، وسافرت بكلّ وسائل النقل، فلماذا نحرمها من المسجد . . . . . ، وقد قال العلماء : إنّها تبقى

---

(١) رواه أبو دواد عن ابن عمر، وفى رواية أخرى أنّ قائل ذلك هو عمر، قال : وهذا أصحّ (سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود : ٢/ ٢٧٧ – ٢٧٨ برقم ٥٦٧) .

(٢) وهذا مشهور من سيرة ابن عمر رضى الله عنهما، أنّه كان شديد الاتباع لآثار رسول الله ﷺ .

فى بيتها وعلى زوجها – أو على أبيها – أن يفقهها فى دينها، ولكن أين الأب الذى يعلّم ابنته؟ وأين الزوج الذى يفقه امرأته؟ وقد قيل: فاقد الشىء لا يعطيه!

فعلى المرأة أن تأتى إلى المسجد، وليس لزوجها أن يمنعها، وفى الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[1]، إذا أرادت المرأة أن تصلّى فى المسجد مثل هذه الصلاة (صلاة الجمعة) أو تحضر درساً أو موعظة، فلا يجوز لزوجها أن يمنعها، إذ لا ينبغى أن تمنع إماء الله مساجد الله، المسجد جامعة.. مدرسة عامّة للمسلمين والمسلمات جميعا.

المسجد برلمان للأمة :

والمسجد برلمان للأمّة. كان المسلمون إذا نزلت بهم نازلة أو ألّمت بهم ملمّة، اجتمعوا فى المساجد يتشاورون ماذا يفعلون؟ كان المسجد ملتقى الحاكم والمحكوم، بل كان حاكم المسلمين هو الذى يؤمّهم، فليس فى الإسلام انفصال بين الدين والدنيا، ليس هناك رجال الدين ورجال الدنيا، كل مسلم رجل لدينه، الذى رشّح أبا بكر للخلافة فى نظر المسلمين أنّ النبى ﷺ استخلفه لإمامة الناس فى الصلاة، فقال عمر كلمته: رضيه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟!

الحاكم يعرض سياسته من فوق المنبر، يقول للناس: ماذا يريد منهم؟ وماذا يريدون منه؟

اعتلى أبو بكر – رضى الله عنه – المنبر ووقف يقول: أيّها الناس، إنىّ ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتمونى على حقّ فأعينونى، وإن رأيتمونى على باطل فقوّمونى، القوىّ فيكم هو الضعيف عندى حتى آخذ الحقّ منه، والضعيف فيكم قوىّ عندى حتى آخذ الحقّ له، أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم !!

بيان ألقاه خليفة يقول فلا يكذب، ويعد فلا يخلف. وسمعته أمّة تسمع فلا تنسى، وتحاسب فلا تخشى.

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر، كما فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢٥٤).

برلمـان نوّابه : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]

المساجد الجامعة :

المسجد مؤتمر عام للمسلمين، وخاصّة فى مثل هذا الاجتماع الأسبوعى : اجتماع الجمعة . المفروض أن يلتقى أهل الحى فى مسجدهم فى الصلوات الخمس، ويجتمع أهل المدينة أو أكبر مجموعة منها فى الجامع الكبير لصلاة الجمعة . كانت سياسة المسلمين إذا بنوا مدينة أن يبنوا مسجداً جامعاً يسع أهلها جميعا . هذه كانت سياستهم منذ عهد النبى ﷺ .

بنى النبى مسجده فى المدينة ليسع أهل المدينة، ولمّا كثر المسلمون وسّعه الخلفاء الراشدون .

لمّا دخل عمرو بن العاص إلى مصر بنى جامعه فى الفسطاط، فى مصر القديمة، ليسع أهل الفسطاط فى ذلك الوقت .

ولمّا بنى أحمد بن طولون بعد ذلك مدينة القطائع بنى جامعاً ضخماً ليسع أهل المدينة التى بناها .

ولمّا بنى جوهر الصقلّى بعد ذلك مدينة القاهرة بنى جامع الأزهر ليسع أهل القاهرة .

لم تكن سياستهم بناء جوامع صغيرة أو مساجد ضيقّة تسع مائة أو مائتين، وتزخرف وتزيّن، ولكنّها لا تتسع للآلاف من الناس، لا، المفروض فى المساجد أن تتسع للآلاف، وأن يكون المسجد مجتمعاً للجماهير المسلمة، وكأن الحاكمين والساسة يخافون من التجمعّات الدينية الإسلامية، فأوعزوا أن تكون المساجد من الضيق والصغر بحيث لا تسع النّاس .

الأصل فى المساجد أن تكون جامعة، وأن يقلّ عددها، وتتسع مساحتها، ولو كانت المساجد بهذه المثابة لاستطعنا أن نهيىّء لها خطباء مجيدين ووعّاظاً نابغين، أمّا أن يكون فى المدينة الواحدة ألف مسجد، فمن أين تأتى بألف خطيب ؟ .

الأصل فى المساجد أن تكون جامعة واسعة رحبة، ولهذا قال الفقهاء: إنّه لا يجوز أن تصلى الجمعة فى مسجد إلاّ إذا امتلأ المسجد الآخر، وينبغى أن لا تتعدّد المساجد إلاّ لحاجة.

والآن المساجد كلّها ممتلئة لأنّها صغيرة، ولذلك يُصلّى فى جميع بلاد المسلمين فى الشوارع وفى الطرقات، ليست هناك مساجد مثل الأزهر وابن طولون وعمرو بن العاص وغيرها (1).

المسجد فى نظر المبشرين :

أيها الإخوة المسلمون: فى أوائل هذا القرن جاءت حملة تبشيريّة على مصر، ولكنّها لم تنجح، باءت بالفشل، فكتب كبير المبشرين تقريراً يقول فيه: سيظلّ الإسلام صخرة عاتية تتحطّم عليها محاولات التبشير مادام للمسلمين هذه الأركان الأربعة: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعى، ومؤتمر الحج السنوى.

هكذا كانت رؤيتهم لهذا المؤتمر الأسبوعى للمسلمين.

المسجد يعلمنا النظام :

فى المسجد نتعلّم أشياء كثيرة :

فى المسجد نتعلّم النظام والطاعة والجنديّة: «سووا صفوفكم، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة»(2)، «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»(3)، «ولينوا بأيدى إخوانكم»(4)، «إنّما جعل الإمام ليؤتمّ به، فإذا ركعَ الإمام فاركعوا، وإذا سجد

---

(1) انظر رسالة : (الضوابط الشرعية لبناء المساجد) للشيخ الدكتور يوسف القرضاوى نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

(2) رواه البخارى، ومسلم، وابن ماجة، وغيرهم، عن أنس رضى الله عنه، وفى رواية للبخارى: «فإنّ تسوية الصفوف من إقامة الصلاة» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: 1/183 برقم 234).

(3) رواه ابن خزيمة فى صحيحه عن البراء بن عازب رضى الله عنه، وتمامه: «... إنّ الله وملائكته يصلّون على الصف الأوّل» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: 1/183 برقم 233).

(4) قطعة من حديث رواه أحمد وأبو داود، وصححّه النووى فى الرياض، وكذا شاكر، ونصّه: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدّوا الخلل، ولينوا بأيدى إخوانكم، ولاتذروا =

فاسجدوا، وإذا قرأ فأنصتوا»[1]، «الذى يخفض ويرفع قبل الإمام إنّما ناصيته بيد شيطان»[2]، «أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه من ركوع أو سجود قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار»[3]، لأنّه لم يفقه معنى النظام ولا معنى الصلاة، فهو جدير بأن يخرج من الإنسانيّة وأن يمسخ الله رأسه رأس حمار.

المسجد يعلمنا الحرية :

نتعلّم فى المسجد الحرية والإخاء والمساواة : المعانى والقيم الإنسانية التى ينادى بها المنادون اليوم، ويتاجرون بها على المسلمين، المسلمون هم أصحابها، المسلون هم دعاتها، المسلمون هم أوّل من دعا إليها نظرياً وطبّقها عليًا.

أىّ حرية أعظم من حرّية الضمير؟ أن يصلى فى المسجد، فلا يخضع إلاّ لله، ولا يدعو إلاّ الله، ولا يخشع لأحد مهما كان لأنّ المساجد لله، ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ [سورة الجن:١٨].

حرية التعبير وحرية الرأى : إذا صلّى وراء الإمام وأخطأ الإمام فمن حق المصلين خلفه – بل من واجبهم – أن ينبهوه، ولا سيما إذا كان الخطأ جسيما، حتى يعود إلى الصواب، هذا يقول له : سبحان الله، وآخر يصحّح له الآية، وأخرى من وراء الصفوف تصفّق له بيدها، لأنّ المرأة يكون تصحيحها بالتصفيق لا بالكلام، وهكذا.

وإذا اعتلى الخطيب المنبر، فليس دكتاتوراً يفرض على النّاس ما يريد، إذا

= فرجات الشيطان، ومن وصل صفاً وصله الله، ومن قطع صفاً قطعه الله» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٨٤ برقم ٢٣٥).

(١) رواه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى، وحديث قتادة برقم ٤٠٤، وابن ماجة برقم ٨٤٧ .

(٢) رواه البزار والطبرانى بإسناد حسن، وكذا قال الهيثمى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، ورواه مالك فى الموطأ موقوفاً عليه ولم يرفعه، (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ /١٨٨ برقم ٢٥٠).

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة، عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ /١٨٨ برقم ٢٤٩).

أخطأ فمن حقّ أيّ جالس في المسجد أن ينبهه، وأن يناقشه، بل من حق المرأة في الصفوف الخلفيّة أن تفعل ذلك، كما فعلت المرأة التي ردّت على عمر في مسألة المهور، وقالت له: كيف تقول في المسألة هذا، وقد قال الله كذا وكذا؟ فقال: أصبت، وقال للناس: أصابت المرأة وأخطأ عمر !!

وردّ رجل من غمار الناس على عليّ بن أبي طالب ورجع إلى رأيه وقال: أخطأت أنا وأصبت أنت، وفوق كلّ ذي علم عليم.

هذا يعلّمنا أنّ المسجد هو موئل الحرية، ومعلم الحرية.

المسجد يعلمنا الإخاء:

في المسجد نتعلّم الإخاء: فنحن نلتقي كل يوم فيه، تتلاصق الأبدان، وتتصافح الأيدي، وتتعارف الوجوه، وتتحابّ القلوب، ويسأل بعضنا عن بعض.

مجموعة تقف وراء إمام واحد، تتجه إلى قبلة واحدة، تؤمن بربّ واحد، تؤمن برسول واحد، تتلو كتاباً واحداً، تؤدي أقوالا وأفعالاً واحدة، بنية واحدة.. إلام يؤدي هذا؟ إن هذا يؤدّي إلى إشاعة الأخوّة، والترابط بين القلوب بعضها وبعض.

المسجد يعلمنا المساواة:

نتعلّم في المسجد المساواة: وأيّ مساواة أعظم من مساواة المسلمين في المسجد؟ يجلس الكبير بجوار الصغير، والغني بجوار الفقير، والوزير بجوار الخفير، والحاكم بجوار المحكوم، وأستاذ الجامعة بجوار عامل من العمّال، لا فرق بين هذا وذاك.

ليس في الإسلام لائحة تنظّم بروتوكولات الحضور: أنّ الصف الأوّل للسادة الوزراء، والصف الثاني لأعضاء مجلس الشورى، والصف الثالث للمديرين العامين.. لا، من حضر مبكّراً احتل مكانه في الصف الأوّل، ثم الذي بعده» دون تمييز ولا تفضيل.

الغربيّون إلى اليوم لا يعرفون هذه المساواة، هناك كنائس للبيض وكنائس للسود!

أخطأ مرة أحد الزنوج فى أمريكا فدخل كنيسة للبيض، ووجد القسيس هذا الأسود مع الناس، فلمحه هذا الكاهن فى صفوف الناس، فأرسل إليه ورقة يقول له: الكنيسة المخصّصة للسود تقع فى شارع كذا وكذا (يعنى انصرف) فأخذ الرجل نفسه وانصرف.

حتى العبادة فرّقوا فيها بين الألوان.. بين الأبيض والأسود.

يقول الدكتور محمد إقبال فيلسوف الإسلام في الهند: أىّ ثورة تحدث لو أنّ هذا البرهمي الارستقراطى المستكبر وقف بجوار هذا المنبوذ فى جنوب الهند، وصلّى معه فى مكان واحد؟! الناس فى الهند من قديم طبقات بعضها فوق بعض بالوراثة، لا يستطيع أحد أن يرقى من طبقة إلى ما هو أعلى منها، لا بالعلم، ولا بالعمل، ولا بالأخلاق، لا يمكنك مهما أوتيت من علم، وما حصلت عليه من مركز اجتماعى، أن تنتقل من طبقتك إلى طبقة أخرى، فالبراهمة هؤلاء هم السادة.. هم فى القمّة، قد خلقوا من فم الإله! أمّا الذين خلقوا من ذراع الإله، أو من رجل الإله، أو لم يخلقهم الإله قط، مثل هؤلاء الذين لا يجوز أن يمسهم أحد أو أن يمسّوا أحداً فقد ولدوا أنجاساً أرجاساً، لا سبيل لهم إلى التطهر أو الترقى.

المساواة الحقيقيّة عندنا نحن المسلمين، وأظهر ما تكون عندنا فى المسجد.

هذا هو المسجد، وهذه هى رسالة المسجد، ينبغى أن نعرفها، ينبغى أن نرتبط بها، أن نعّود أبناءنا أن يذهبوا إلى المساجد، ينبغى أن يكون لنا حظّ من صلاة الجماعة فى المساجد، فصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بخمس وعشرين – أو بسبع وعشرين – درجة، كما جاءت أحاديث النبى ﷺ [1].

---

(١) كحديث: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة» رواه مالك =

من هم عمّار المساجد؟ هل هم الدراويش والمتبطلون والمجاذيب؟ إن القرآن حدثنا عن عمار المساجد فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ [النور: ٣٧] هم إذن رجال أعمال، وليسوا رجال بطالة أو دروشة، وهكذا كان أصحاب رسول الله. هذا هو المسجد، هذا هو بيت الله، بيت ينسبه الله تعالى إلى نفسه كما فى الحديث القدسى: «إنّ بيوتى فى الأرض المساجد، وإنّ زوّارى فيها هم عمّارها، فطوبى لمن تطهر فى بيته ثمّ زارنى فى بيتى، فحقّ على المزور أن يكرم زائره» (١).

نسأل الله أن يجعل كرامتنا عنده المغفرة والجنّة، إنّه سميع قريب. ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

المسلمون فى العالم أكثر من ألف مليون، ومع هذا فهم مُضيعّون. مُضيعّون

= وأحمد والبخارى ومسلم والترمذي والنّسائي وابن ماجة، عن ابن عمر رضي الله عنهما. وحديث: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة» رواه أحمد والبخارى وابن ماجة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (فيض القدير للمناوى: ٤ / ٢١٦ - ٢١٧، برقم ٥٠٧٤، ٥٠٧٥).

وقد جمع بين روايتي: الخمس والسبع بوجوه أوردها الحافظ ابن حجر في (فتح البارى): منها أن ذكر القليل لا ينفي الكثير لأنّ مفهوم العدد غير مراد فرواية الخمس داخلة تحت رواية السبع، ومنها أنّه صلّى الله عليه وسلم أخبر بالخمس ثم أعلمه الله بزيادة الفضل فأخبر بالسبع، ومنها أنّ السبع لبعيد المسجد والخمس لقريبه، ومنها أنّ السبع محمولة على من صلّى بالمسجد والخمس لمن صلّى في غيره، ومنها أنّ الفرق بحال المصلّي كان يكون أعلم أو أخشع، ومنها أنّ الفرق بالمنتظر للصلاة وغيره، ومنها أنّ الفرق بإدراك كلّها أو بعضها، ومنها أنّ الفرق بكثرة الجماعة وقلّتهم، ومنها أنّ السبع مختصّة بالجهريّة والخمس بالسرية، وقيل غير ذلك. والوجه الأخير هو الذي رجّحه الحافظ. انظر (فتح البارى: ٢ / ١٥٥ - ١٥٦) ط. دار الريان بالقاهرة.

(١) الطبراني فى الكبير برقم ١٠٣٢٤، مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢٢. وهما عن عبد الله وقال في المجمع: وفيه عبد الله بن يعقوب الكرماني وهو ضعيف.

لأنّ كلمتهم ليست واحدة، لأنهم ليسوا صفاً واحدا، كالبنيان المرصوص، لأنّهم أمّة لا يسعف بعضهم بعضا، ولا يشد بعضهم أزر بعض، بل أسلم بعضهم بعضا، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولايُسلمه..» (١) لا يسلمه: أى لا يسلّم فيه.. لا يخذله، لا يتخلى عنه، بل ينصره ويقويه ويقف إلى جنبه فى السراء والضراء.

منذ أيّام زارنى إخوة من (أوغندا) وقالوا: نحن نقارب النصف من سكّان (أوغندا) – أكثر من خمسة ملايين من اثنى عشر مليوناً – ومع هذا ليس لنا قيادة، ليس لنا أىّ وضع سياسى أو تشريعى، أكثر من أربعين وزيراً وليس لنا لا وزير ولا نائب وزير، المجلس التشريعى فيه مائة وثمانون، ليس لنا فيه إلاّ اثنان فقط، أملاكنا تؤخذ وتنهب، حتى الأوقاف.. حتى المساجد استولوا عليها، ولم يتكلم أحد من المسلمين.

هناك تعتيم إعلامى رهيب علينا، فلا يعلم بنا أحد، ولا يحس بنا أحد.

هناك إبادة مستترة للمسلمين.

بعد (عيدى أمين) يُباد المسلمون فى أوغندا.

عيدى أمين الذى حاولت الصحافة العالميّة والإعلام العالمى أن يشنّعا عليه، وأن يضخّما من هفواته، وأن يجعلا منه كذا وكذا، حتى قُضى عليه، وسكت المسلمون للأسف.

فى الهند الآن مذابح ما بين فترة وأخرى تُقام للمسلمين، المسلمون فى الهند أقليّة بالنسبة للأكثريّة الهندوسيّة، ولكن هذه الأقلّيّة تقارب مسلمى العالم العربى، أكثر من مائة وخمسين مليون مسلم فى الهند، لهم أرضهم، ولهم ديارهم، ولهم مساجدهم، ولهم مدارسهم، ولهم حضارتهم التى بقيت آثارها

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، وتتمّته: «من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (رياض الصالحين للنووى: برقم ٢٣٣).

إلى اليوم، ومع هذا تأبى الأحزاب الهندوسيّة المتعصبة إلاّ أن تقيم مذبحة ما بين حين وآخر، ولا يتكلم أحد، ولا يحتج أحد، لم هذا؟ ولحساب من هذا الصمت المريب؟

أصبح الدم الإسلامى هو أرخص دم على الأرض.

الهندوس لا يستبيحون قتل البعوض، لكنّهم يستبيحون قتل المسلمين!!

كنّا فى الهند فلم نجد فى الفنادق أىّ مبيد للنّاموس والبعوض والذباب لماذ؟ لأنّ هذه الحشرات لها أرواح، ولا يجوز أن يقتلوا ذا روح، لا يقتلون البعوض ولا الذباب ولا الفئران، يتركون الفئران تأكل القمح بملايين الأطنان، حتى إنّ بعض أعضاء الشيوخ فى الكونجرس الأمريكى قال: لا يحوز أن نصدر القمح أو نعطى القمح معونة للهند، لأنّها تترك مختارة الفئران لتأكل محصولاتها........

لماذا لا يقتلون الفئران؟ لأنّ الفئران ذات روح، ولا يجوز قتل ذى روح. وذو الروح الوحيد الذى يجوز قتله، بل يستحب قتله، بل يجب قتله: هو المسلم!!

انظروا: المسلمون وحدهم مستباحو الدماء فى كل مكان، لماذا؟ لأنّ أحداً لا يتكلم، لا يقول: ياناس استحوا.. اختشوا، هؤلاء لهم حريتهم..، هؤلاء وراءهم ألف مليون فى العالم.

فيامسلمون تنبهوا من غفلتكم، واسألوا عن إخوانكم، وادعوا الله لهم على الأقل، كونوا معهم بمشاعركم، من كان يستطيع أن ينفع هؤلاء.. أن يكتب كلمة فى صحيفة أو مجلة أو غير ذلك، فلينفعهم.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا فى ديننا، وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا.

اللهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهمّ طهّر أقوالنا من اللغو، وطهّر أعمالنا من العبث، وطهّر أنفسنا من الضعف، وطهّر قلوبنا من الغشّ، وطهّر ألسنتنا من الكذب، وطهّر أفعالنا من الرياء.

اللهم اجمع بين المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل.

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة.

اللهم انصر إخوتنا المجاهدين، وأيدّ إخواننا المضطهدين في كل مكان ﴿ ..رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

اللهم آمين، وصلّ اللهمّ على محمد وآله وصحبه وسلّم.

وأقم الصلاة.

* * *

٣ - الصلاة عمود الدين

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

تحدثنا فى الخطبة الماضية عن رسالة المسجد، ونتحدث فى هذه الخطبة عن الصلاة .

الصلاة عمود الدين، ومفتاح الجنّة، ودليل الإيمان، والفيصل بين الإسلام والكفر، وهكذا جعلها النبى ﷺ : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »(١)، « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر »(٢) .

حينما دعا إبراهيم ربه، دعاه أن يجعل أبناءه من مقيمى الصلاة : ﴿ **رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ** ﴾ [إبراهيم: ٤٠] .

وحينما أثنى الله على إسماعيل قال: ﴿ **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٥] .

وحينما خاطب الله موسى فى لحظات الوحي الأولى قال له: ﴿ **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾

[طه: ١٣ - ١٤] .

وحينما أنطق الله كلمته عيسى ابن مريم فى المهد صبيًا، كان أوّل ما قال : ﴿ **.. إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ﴾ [مريم: ٣٠ ، ٣١] .

---

(١) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ١٩٨ برقم ٢٧٨) .

(٢) رواه أحمد، والنسائى، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح، ولا نعرف له علّة، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ١٩٨ برقم ٢٧٩) .

ولما وصّى لقمان الحكيم ابنه كان من أهم ما أوصاه به: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

الصلاة، هذه منزلتها فى كلّ دين من الأديان، وفى الإسلام خاصّة.

كانت الصلاة أوّل ما فرض من العبادات، فرضت فى مكّة، وفرضت بصورة لم تفرض عبادة بمثل هذه الصورة. فرضت العبادات كلّها فى الأرض، وفرضت الصلاة وحدها فى السماء، بخطاب مباشر من الله لنبيّه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، فهى بقيّة هذه الذكرى، هى معراج كلّ مؤمن إلى الله تبارك وتعالى.

هذه هى الصلاة، وهذه أهميّتها.

ذكرها النبى ﷺ يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً، وبرهاناً، ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور، ولا برهان، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خلف»[١].

قال ابن القيمّ رحمه الله[٢]: من شغله عن الصلاة ملكه حشر مع فرعون، ومن شغله عن الصلاة منصبه حشر مع هامان، ومن شغله عن الصلاة كنوزه وثروته حشر مع قارون، ومن شغله عن الصلاة تجارته حشر مع أبىّ بن خلف.

ولا عذر لتارك الصلاة، أينما كان الإنسان مُشرّقاً أو مغرّباً، فى سفر أو فى حضر، فى صحّة أو فى مرض، فعليه أن يقيم الصلاة. يقول النبى ﷺ: «صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[٣].

لا تسقط الصلاة إلاّ عمنّ فقد الوعى ولم يفهم الخطاب، أمّا مادام واعياً

---

(١) رواه أحمد بإسناد جيدّ عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، والطبرانى فى الكبير والأوسط، وابن حبان فى صحيحه، وقال الهيثمى: رجال أحمد ثقات، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ١٩٩ برقم ٢٨٣).

(٢) ابن القيم الجوزية فى كتاب [الصلاة حكم تاركها] ص ٢١.

(٣) رواه أحمد، والبخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، عن عمران بن حصين رضى الله عنه (فيض القدير للمناوى: ٤/ ١٩٨، برقم ٥٠٠٨).

مميزاً – ولو كان على سرير المرض لا يستطيع أن يتحرك يمنه ولا يسرة – فعليه أن يصلى. يصلى بالايماء مومياً برأسه، أو مشيراً بحاجبيه محركاً لسانه، كيف استطاع.

الصلاة لا تسقط عن إنسان أبداً مادام واعياً، ولو كان فى معمعة الحرب، ولو كان فى قلب المعركة، يقاتل بالسيف أو بالمدفع، راكباً أو ماشياً، يقول الله تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ[1] فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ... ﴾ [البقرة: ٢٣٨ ، ٢٣٩] أى: فصلّوا راجلين أو راكبين، ولو كنت على قدميك تضرب بالسيف أو بالقنبلة، أو كنت راكباً جواداً أو مدرّعة أو دبابة أو طائرة، صلّ وأنت على هذه الحالة، ولو لم تستقبل القبلة، ففى مثل هذا يقول القرآن: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. ﴾ [البقرة: ١١٥] بلاركوع وبلا سجود وبلا قيام، هذه الأركان كلّها تسقط عند هذه الضرورة.

صلّ بوضوء وطهارة، فإن لم تجد ماء أو لم تقدر على استعماله فصلّ بتيمم، فإن لم تجد فصلّ صلاة فاقد الطهورين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]

هناك فى الإسلام صلاة تسمّى (صلاة الحرب) أو (صلاة الخوف)، حينما يواجه المقاتلون المسلمون العدو لا يكون القتال عذراً لهم، ينقسمون قسمين: قسم يواجه العدو، وطائفة تصلّى، ثمّ تذهب مكان تلك، يصلّون ويحافظون حتى على صلاة الجماعة، وعلى صلاة الجماعة خلف إمام واحد.

انظروا إلى هذا: جماعة واحدة وخلف إمام واحد !! أىّ حرص على الصلاة وخصوصا فى جماعة أكثر من هذا؟! يقول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ

(١) أى: اشتد بكم الخوف فى الحرب.

وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [النساء: ١٠٢].

هكذا يعلّمنا الإسلام الحرص على الصلاة فى أشدّ المواقف حرجا.

فماذا يكون الحال حين نرى مسلمين يُسمّون باسم محمّد وأحمد ومحمود وحسن وحسين وعبد الله، ولكنّهم لا يصلّون ولا يعرفون المساجد، يبلغ أحدهم الثلاثين والأربعين والخمسين وربّما أكثر، ولم ينحن يوماً لله راكعا، ولا عفّر جبهته يوماً لله ساجدا، ويُسمّى هؤلاء مسلمين، ويحُسبون على الألف مليون – أو أكثر – من المسلمين !!

أين إسلام هؤلاء ؟

إنّ اللقمة التى يأكلونها تلعنهم، لأنّهم يأكلون نعمة الله ولا يؤدّون شكرها.

كيف بهؤلاء إذا دخلوا سقر، وسألهم أصحاب اليمين: ما سلككم فى سقر أيّها المجرمون؟ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ... ﴾ [المدثر: ٣٨ – ٤٤].

ما حكم هؤلاء عند علماء المسلمين ؟

أمّا من كان جاحداً للصلاة.. جاحداً لفرضيتّها، فهو كافر بالإجماع، لأنّ شأنه شأن المشركين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٨].

إذا كان مستخفّاً بالصلاة، مستهزئاً بها، ساخراً من أصحابها، فهذا كافر مارق مرتدّ ولا شك، وهو مثل الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ٥٨].

أمّا من تركها عمداً كسلا، فهذا هو الذى اختلف فيه أئمّة المسلمين:

١ – قال الإمام أحمد – فى رواية شهيرة له – وإسحاق بن راهويه وعدد من الصحابة والتابعين: بأنّه كافر ليس بمسلم، مادام لا يصلّى، ولا يؤدىّ حقّ الله تعالى بأداء هذه الفريضة. روى ذلك عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، وهو ظاهر الأحاديث التى جعلت الفاصل بين المسلم والكافر: ترك الصلاة.

٢ – وهناك مذهب الشافعي ومالك: أنّ تارك الصلاة عاص فاسق، يُخشى عليه أن يُختم له بالكفر، والعياذ بالله، إذا استمرّ على هذا، لأنّه يرتكب أكبر الكبائر فى الإسلام، بترك حقّ الله تبارك وتعالى، ومن داوم على هذا الترك يُخشى أن يملأ السواد قلبه، فيموت على غير الإسلام، ما لم يتب الله تعالى عليه. وهو يستحق القتل عندهما، حدّا لا كفرا، كما هو عند أحمد ومن وافقه.

٣ – وقال أبو حنيفة: هو فاسق آثم، ويجب أن يؤدب ويضرب ضرباً موجعا، ويُحبس حتى يصلى.

وهذا أخف المذاهب.

أخفّ المذاهب فى تارك الصلاة كسلا: أنه فاسق، و ﴿ **بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ..** ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ** ﴾ [السجدة: ١٨]

هذا هو شأن تارك الصلاة.

ولهذا لم يصف الله المؤمنين بأنهّم يؤدّون الصلاة، أو أنهّم للصلاة فاعلون، فهذا أمر مفروغ منه، ولكنّه وصف المؤمنين المفلحين بقوله: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، وختم هذه الأوصاف بقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٩].

بدأ أوصاف المؤمنين بالخشوع فى الصلاة، وختمها بالمحافظة على الصلاة، دليلاً على أهمّيّة هذه الفريضة فى حياة المسلمين.

إنّ على المؤمن أن يحافظ على هذه الفريضة، فيؤديها كما ينبغى أن تكون،

فى أوقاتها، قبل أن تفوته، فيكون له الويل الذى توعّد الله به المتشاغلين عن الصلاة فى كتابه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، جاء فى الأثر: « إنهّم يتلهون ويتشاغلون بأعمالهم الدنيويّة حتى يفوت وقت الصلاة » أى: إنهم يصلون، ولكنهّم يصلّون الصلاة بعد وقتها.

فما بالكم بمن لا يصلّى؟! ما بالكم بتارك الصلاة؟!

جاء فى الأحاديث: إنّ فى القبر عذابا، وأن من أشد أسباب عذاب القبر عدم العناية بالطهارة للصلاة.. عدم الاستبراء أو الاستنزاه من البول.

مرّ النبى ﷺ بقبرين يُعذب صاحباهما، فقال: « إنهما ليعذبان وما يُعذبان فى كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله » [1] أى لا يهتم بأمر الطهارة. معنى هذا أنه يصلى ولكنه أهمل فى شرط من شروط الصلاة، فكيف بمن لا يصلى أبدا؟.

لهذا كانت هناك مسؤولية، مسؤولية كل إنسان عن غيره، مسؤولية الزوج عن زوجته: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه:١٣٢]

سئل الإمام أحمد عن الزوجة إذا كانت تاركة للصلاة، ماذا يصنع زوجها؟ قال: أخشى أن لا يحل له المقام مع امرأة لا تصلى لله.

وإن كان الذى أراه اليوم: أن كثيرا من الزوجات والسيدات يشتكين من أزواج لا يعرفون الله تعالى مصلين، ولا راكعين، أو ساجدين.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ ﴾ [طه:١٣٢]: أأمر أبناءك وبناتك بالصلاة، عوّدهم عليها من الصغر، فإن الخير عادة وإن الشر عادة، حتى ينشأوا على الخير وعلى حب الصلاة، ولهذا جاء فى الحديث: « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع

---

(١) رواه البخارى، وهذا أحد ألفاظه، ومسلم، وأبو داود والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، عن ابن عباس رضى الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ١٤١ برقم ١٠٤).

سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين» [1] أى: مروهم بالصلاة: وهم أبناء سبع سنين، واستمروا على هذا الأمر والترغيب والترهيب مدة ثلاث سنين، من تكاسل بعد ذلك فمن حق الأب بل من واجبه أن يضربه، ضربا لا يجرح ولا يكسر، والضرب هنا إشعار بأهمية الأمر، وأنه ليس مجرد كلمة تقال، ثم يدع الولد وحبله على غاربه، لا يبالى أنفذ أمره أم لم ينفذه.

كيف يصنع الوالد لو أمر ابنه بشئ من أمور الدنيا فضرب بكلام أبيه عرض الحائط؟ ماذا يفعل؟ أيقبل أن يفعل ابنه معه مثل هذا وأن يقف مثل هذا الموقف؟ فكذلك فى أمور الدين.

بعض الآباء كل ما يهمه من أمر ابنه أن يذهب به إلى المدرسة، وأن يوفر له حاجاته المادية، وأن يعطيه من النقود ما لعله أكثر من حاجته، وقد يهيئ له سيارة يركبها، ولا يبالى بعد ذلك أصلى أم لم يصل؟ أكان مستقيما على أمر الدين أم منحرفا عنه؟

ماذا يفيدك أن يحمل ابنك أرقى الشهادات ويتسنم أعلى الدرجات، ثم يكون بعد ذلك مصيره إلى النار وبئس القرار؟

أتحب أن يكوى ولدك وفلذة كبدك فى النار؟ ولله جل وعلا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

المجتمع مسؤول عن تاركى الصلاة.

الصلاة لابد أن نحافظ عليها، وأن نأمر غيرنا بالمحافظة عليها، وأن ننكر المنكر ونأمر بالمعروف.

إذا جاءك من يشاركك فى تجارة فلابد أن تسأل: أهو من أهل الصلاة أم لا؟

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود والحاكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال النووى بعد عزوة لأبى داود: إسناده حسن. وتمامه: «وفرقوا بينهم فى المضاجع، وإذا زوج أحدكم خادمه عبده أو أجيره فلا ينظر إلى ما دون السرة وفوق الركبة». انظر: (فيض القدير للمناوى: ٥/٥٢١ برقم ٨١٧٤) و (رياض الصالحين للنووى برقم ٣٠١).

إذا كان عندك ابنة، وجاء من يخطبها،فاسأل : أهو من أهل الصلاة أم لا؟

كان السلف الصالح يسمون الصلاة (الميزان)، بها يزنون الرجال، والأشخاص، فإذا أرادوا أن يسألوا عن دين رجل وعن أخلاقه وعن سيرته، سألوا أول ما يسألون عن صلاته: هل يعرفه أهل المسجد؟ هل يقوم لله تعالى فى الصباح الباكر؟ هل يحرص على الجماعة؟ هل هو من الخاشعين فى الصلاة؟ هل هو؟ هل هو؟

ولو أننا فعلنا ذلك مع من يناسبنا أو يشاركنا أو يصاهرنا أو يعمل عندنا، لحاصرنا تاركى الصلاة حصاراً، اجتماعيا أدبياً، وأجبرناهم على أن يحترموا شعائر المسلمين، ولكن أحدنا لا يبالى.

حيا الله البنات الصالحات فى هذا البلد، اللاتى عرفت بعضهن وقد رفضن من يتقدم لهن وهو تارك للصلاة، وقالت إحداهن لمن خطبها: والله لا أتزوجك إلا إذا عاهدتنى أمام الله وأمام الناس عهدا لا رجعة فيه أن تصلى ولا تترك الصلاة.

لابد أن نعنى بأمر الصلاة، الصلاة هى الفريضة الأولى، هى الصلة الأولى بين العبد وربه، فلا ينبغى أبدا أن نهملها.

لقد كان هذا المجتمع كله، من أوله إلى آخره، محافظا على الصلاة، ثم جاءت سموم العدوى من هنا وهناك، فإذا بنا نرى كثيرا من الشباب لا يعرفون المسجد، ولا يعرفون الصلاة، ورأينا بعض الناس لا يعرفون المسجد إلا فى رمضان، ورأينا آخرين لا يعرفون الصلاة إلا يوم الجمعة، والصلاة فرضها الله خمس مرات فى كل يوم وليلة.

لابد أن نحرص على هذه الفريضة.

كان الناس قبل أن تأتى الوسائل الحديثة والأجهزة الإعلامية ينامون مبكرين ويستيقظون مبكرين، منذ أكثر من عشرين سنة حينما قدمنا إلى هذا البلد [1]

---

(١) كان ذلك سنة ١٩٦١ وما بعدها حينما أعير الشيخ القرضاوى - حفظه الله - إلى دولة قطر، مديرا لمعهدها الديني الثانوى.

كانت المحلات التجارية تغلق أبوابها قبيل أذان المغرب، وكان الناس ينامون بعد صلاة العشاء، ثم تدب الحركة قبيل الفجر فتمتلئ المساجد، ويذهب الناس صاحين باكرين إلى أعمالهم، يلتمسون البركة فى البكور، يلتمسون بركة دعوة النبى ﷺ حينما قال: «اللهم بارك لأمتى فى بكورها» [(١)]، يتلقون الصباح طاهرا طهورا، قبل أن تلوثه أنفاس العصاة، وينطلقون إلى أعمالهم مباركين ميمونين.

أما اليوم وقد أصبح الناس يسهرون على الأفلام والمسلسلات والتمثيليات والمسرحيات، وغير ذلك من السهرات، ما حل منها وما حرم، ثم ينامون فلا يستيقظون إلا بعد طلوع الشمس بوقت طويل، وقد قال النبى ﷺ حينما ذكر له رجل نام ليلة حتى أصبح - أى طلع عليه الصباح - «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه - أو قال: فى أذنه» .[(٢)] يقول الحسن: إن بوله والله ثقيل! وما أكثر الذين أصبحت آذانهم مباول للشيطان فى عصرنا!! يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه: عجبت لمن يصلى الصبح بعد طلوع الشمس كيف يرزق؟!

كيف يرزق وقد أضاع الأوقات المباركة؟ وهى أبرك ما تكون فى البلاد الحارة.

---

(١) أخرجه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد والدارمى، كلهم من حديث يعلى بن عطاء، عن عمارة بن حديد، عن صخر الغامدى، والحديث روى بأسانيد كلها ضعاف، ولكنه حسن كما قال الترمذى أو صحيح بشواهده، وقد اعتنى الحافظ المنذرى بجمع طرقه فبلغ عدد من جاء عنه من الصحابة نحو العشرين نفسا انظر:(شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١١ / ٢٠ - ٢١ برقم ٢٦٧٣) و (فيض القدير للمناوى: ٢ / ١٠٣ - ١٠٤ برقم ١٤٥٧).

(٢) رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجة وقال: «فى أذنيه» على التثنيه من غير شك، عن ابن مسعود، ورواه أحمد بإسناد صحيح عن أبى هريرة، وقال « فى أذنه» على الإفراد من غير شك، وزاد فى آخره: قال: الحسن : إن بوله والله ثقيل، قال الهيثمى: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر تعليق الشيخ القرضاوى على الحديث فى كتابه: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٢٢٣- ٢٢٤ برقم ٣٣١).

يا أيها الأخوة :

إن علينا أن نحرص على الصلاة .الصلاة قوة، قوة للروح، قوة للبدن، قوة للإرادة، قوة للخُلق . . قوة للمجتمع . . قوة فى كل شئ هى قوة روحية لأنها تصلك بالله تبارك وتعالى، تدخل إلى الله بغير باب، وتقف بين يديه بلا حجاب، وتكلمه بلا ترجمان، وتناجيه فتناجي قريبا غير بعيد، وتستعين به فتستعين بعزيز غير ذليل، وتسأله فتسأل كريما غير بخيل، تشف روحك، وتصفو نفسك بين يديه، حتى لتكاد تسمع قول الله تعالى فى الحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد :« الحمد لله رب العالمين » قال الله تعالى : حمدنى عبدى، وإذا قال : « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى : أثنى علىَّ عبدى، وإذا قال : « مالك يوم الدين » قال : مجدنى عبدى – أى عظمنى – فإذا قال : « إياك نعبد وإياك نستعين » قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل »[1] .

هذه المناجاة بين الله وبين عبده، هذه الشفافية الروحية شحنة تعَطى للإنسان المسلم كلما دخل الصلاة، ولذلك كانت الصلاة مددا فى معركة الحياة مع المتاعب والآلام .

كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، كان يجد فى الصلاة قرة عينه ومسرة قلبه، ويقول : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » [2] . وينتظر وقتها بلهفة حتى إذا جاء قال : « أرحنا بها يا بلال » [3] إنها راحة النفس، إنها روح وريحان فأين هذا ممن يقوم إلى الصلاة ولسان حاله يقول : أرحنا منها؟!

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه، فى كتاب الصلاة من صحيحه، باب : وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة . انظر (صحيح مسلم بشرح النووى : ٤ / ١٠١ – ١٠٢) .

(٢) رواه النسائى وأحمد عن أنس النسائى ٣٦٨٠ / ٣٦٨١ وصححه الألبانى، أحمد ج٣ / ١٢٨ / ١٩٩ وحسن الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده .

(٣) رواه أحمد عن رجل من أسلم ج٥ ٣٦٤ / ٣٧١ .

فرق بين من يستريخ بها ومن يستريح منها.

إن الله تعالى وصف المنافقين بقوله: ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة:٥٤]، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء:١٤٢].

هذا هو شأن المنافقين، أى أنهم يصلون، ولكنهم لا ينهضون إليها بقوة ونشاط ومحبة، إنها عبء يريدون أن يتخلصوا منه.

ماذا نقول فى منافقى اليوم، الذين لا يقومون إلى الصلاة لا نشطين ولا كسالى؟ ماذا نقول فى منافقى هذا العصر الذين لا يذكرون الله لا قليلا ولا كثيرا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا أيها الإخوة:

الصلاة، هى آخر ما أوصى به النبى ﷺ وهو على فراش الموت، كان يقول: الصلاة وما ملكت أيمانكم. [١]

هذه هى الصلاة:

الصلاة الإسلامية امتازت عن كل صلاة فى الأديان الأخرى لأنها تمثل كل مظاهر التعظيم لله تبارك وتعالى: فيها القيام، فيها التلاوة لكلام الله تعالى، فيها التسبيح، فيها التهليل، فيها التكبير، فيها الركوع، فيها السجود، و «أقرب ما يكون العبد من ربه – عز وجل – وهو ساجد» [٢].

ثم إن الإسلام قد أحاطها بأشياء، لم تحط به العبادات والصلوات فى الأديان

---

(١) رواه ابن ماجه عن أم سلمة برقم ١٦٢٥ وفى الزوائد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وانظر: دلائل النبوة للبيهقى ج٧ ص ٢٠٥.

(٢) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه. وتمامه: «فأكثروا الدعاء» أى أكثروا من الدعاء فى حالة السجود (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: برقم ١٩٣، ٩٢٣).

الأخرى، فهى صلاة جماعية، وهى صلاة بأذان، إذا جاء الوقت لا يصيح بوق، ولا يجلجل جرس أو ناقوس، ولا تشتعل نار، كما كان ذلك فى ديانات سابقة، وإنما يؤذن مؤذن بكلام يهز القلوب، بكلام يشرح الصدور، بكلام تعرفه العقول:

الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة حى على الفلاح.

أين هذا من جلجلة جرس وناقوس يصك الأسماع، ولا يعرف ما فحواه، جماد أصم يصك أسماع الناس!

صلاة الجماعة تربية اجتماعية، تعلم الطاعة والنظام والجندية والاستجابة السريعة للنداء، لا يدفع المسلم عن إقامة الصلاة وقدة الحر، ولا شدة البرد، إذا سمع نداء الله هرع إليه وقام من نومه، فالصلاة خير من النوم، يسبغ الوضوء على المكاره [1]، ولا يبالى فى سبيل دينه بشئ أبدا.

رأى أحد قواد الفرس المسلمين - فى عهد عمر - رضى الله عنه فى أحد الجيوش - يقفون صفوفا يصلون، لا فرجة، لا خلل، لا عوج فى الصف، المنكب إلى المنكب، والقدم إلى القدم، إذا ركع الإمام ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا قرأ أنصتوا، فنظر إليهم وقال فى غيظ وكمد: أكل كبدى ابن الخطاب، أكل كبدى ابن الخطاب، لقد علم هؤلاء البداة مكارم الأخلاق.

وما علمهم ابن الخطاب، إنما الذى علمهم وعلم ابن الخطاب معهم وقبلهم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» رواه مالك، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه بمعناه، ورواه ابن ماجه أيضا، وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى والمقصود بالمكارة: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه مثل شدة البرد فى الشتاء ونحوه، وإسباغه: إتمامه وإكماله (المنتقى من كتاب الترغيب والترغيب: ١/١٤٧ برقم ١٢١).

هو (الإسلام) و (رسول الإسلام ﷺ).

هذه هى الصلاة التى ينبغى أن نحرص عليها لتكون لنا مددا وتكون لنا قوة: ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

أقول قولى هذا، واستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

حدثتكم فى الأسبوع الماضى عن إخوتنا فى (آسام) فى الهند، وعن إخوتنا فى أوغندا. وإنى لأحيى صحيفة (الراية) التى استجابت لدعوتنا فى الأسبوع الماضى، حين قلنا: هل من جهاز إعلامى، هل من صحيفة، هل من أحد يتحدث عن هؤلاء الناس؟

فتحدثت عنهم الصحيفة، فجزى الله كل من قال كلمة حق فى هذا الأمر خيرا.

حدثتكم فى الأسبوع الماضى - أيها الأخوة - عن إخوتنا فى أوغندا، عن الملايين الخمسة - أو أكثر - فى هذا البلد الافريقى، الذين اضطرهم الطغيان - الذى دخل عليهم من بلد مجاور - أن يلجأوا إلى الغابات ليعيشوا فيها سنين، يأكلون أوراق الشجر، وتتمزق ملابسهم حتى يظلوا عراة لا يسترهم شئ. من كان عنده ثوب استعاره من أخيه وقت الصلاة ليصلى فيه ثم يعيده إليه.

ظلوا مختفين مدة من الزمن، ثم عادوا وهم مقهورون، لا يسأل عنهم أحد، ولا يتحدث عنهم أحد، أخذت مساجدهم، أخذت أوقافهم.

عندنا هنا أخوان فى جامعة قطر فى منحة قصيرة، يقولان: إنا لا نجد الكتاب الذى نعلمه لأولادنا، لا نجد كراسة نعلم فيها الأولاد الكتب والكراريس تأتى من أمريكا وأوروبا بالملايين، وكل ما يطلبونه منا أن نقبل المسيحية وتتدفق علينا الكتب والكراريس والمعونات.

أين نحن المسلمين؟ إنهم يطلبون منا شيئا بسيطاً يقولون ألا يوجد من ينشئ لنا مطبعة - أو يشترى لنا مطبعة - نطبع فيها بعض الكتب أو بعض النشرات، أو حتى الكراريس للأولاد؟ ألا يوجد من أغنياء المسلمين - وما أكثرهم - من يتبنى مشروعا كهذا بمائة ألف - أو مائتى ألف - دولار؟

ما أكثر الأموال التى تنفق بغير حساب هنا وهناك. ألا يستطيع أحد أن يمد يده لهؤلاء؟

وإن مؤتمر المبشرين البرتستانت الأمريكان وحدهم، قد اجتمع سنة ١٩٧٨م فى مدينة (كولورادو)، وحضره أكثر من مائة وخمسين مبشراً، وقرروا أن يعملوا على تنصير المسلمين فى العالم، ورصدوا لذلك (ألف مليون دولار) !!

هل نعجز نحن عن رصد ألف مليون دولار؟ والله لا نعجز لو أردنا وصممنا، منذ يومين كان يكلمنى إنسان هنا فى قطر وقال: إذا كان لى مائة مليون دولار فى البنوك الأجنبية، وأصبح لها فوائد تساوى هذا المبلغ أو تقاربه فماذا أفعل فيه؟

هناك إذن ملايين، هناك عشرات الملايين، هناك مئات الملايين فأين هؤلاء؟ لماذا لا يمدون اليد إلى إخوانهم الذين يشكون ولا يجدون؟

المسلمون فيهم أغنياء، المسلمون عندهم أموال، المسلمون عندهم قوة، ولكنهم لا يخططون ولا ينظمون ولا ينسقون ولا يتعاونون، ليسوا يدا واحدة كما أمرهم الله، وإنما هم فئات شتى كما أراد لهم الشيطان وأراد لهم الاستعمار.

متى تتحد كلمة المسلمين لمواجهة الباطل؟ متى يقفون صفا واحدة كالبنيان يشد بعضهم بعضا؟

نسأل الله عز وجل أن يجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل.

اللهم اجعل يومنا خيرا من أمسنا، واجعل غدنا خيرا من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة. اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا، واجعل كلمة أعدائه هى السفلى.

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، وحبّب إلينا الإيمان وزيّنه فى قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة.

وصل على عبدك ونبيّك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] وأقم الصلاة.

٤ - عاطفة الحبّ

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

طلب إليَّ بعض الشباب أن أحدثكم عن العلاقات العاطفية ، قلت له: وماذا تعنى بالعلاقة العاطفية؟ أى عاطفة تعنى؟ قال: عاطفة الحب، وهل هناك عاطفة غيرها؟ قلت: وأى حب تعنى؟ قال: حب الرجل للمرأة، وحب المرأة للرجل، وهل هناك حب غير ذلك؟ قلت : هنا الخطأ. إن الإنسان ليس عاطفة فحسب، الكيان الإنسانى مكون من مجموعة أشياء: من الجسم ومتطلباته، من العقل وآفاقه، من الروح وأشواقه، من العاطفة وتطلعاتها، من الإرادة وما تتجه إليه، كل هذه النواحى تنشئ الكينونة الإنسانية.

الإنسان ليس عاطفة فحسب، والعاطفة ليست هى الحب وحده، الإنسان يجب ويكره، ويرضى ويسخط، ويفرح ويحزن، كل هذه عواطف، فلماذا قصرنا العاطفة على الحب؟

وإذا أردنا أن نتحدث عن الحب، فلماذا نقصر الحب على حب الرجل للمرأة والمرأة للرجل؟ ولماذا نقصر حبّ الرجل للمرأة أو المرأة للرجل على حب الرجل الأجنبى من المرأة، أو المرأة الأجنبية من الرجل؟ هذا كله خطأ وانحراف فى الاتجاه.

إن الله فطر الإنسان على أن يَحِب وأن يُحَب، ولكن لماذا يحصر الحب فى هذا المجال الضيق؟

أولى من ينبغى أن نحب هو الله تبارك وتعالى.

أعظم أنواع الحب وأرقاها وأخلدها وأبقاها هو حب الله.

الإنسان يحب الجمال، وأى جمال أجمل من ذى الجمال والجلال... من الله تبارك وتعالى؟ هو واهب الجمال، وهو مصدر الجمال، وهو جميل يحب الجمال.

الإنسان يحب الكمال، ولذلك يحب الناس العباقرة والنوابغ والأبطال، وأى كمال يدانى كمال الله عز وجل؟ وكل كمال فى البشر نقص، الذى تنزه عن كل نقص، واتصف بكل كمال هو الله تبارك وتعالى.

الإنسان يحب الإحسان، وهو أسير الإحسان، وجبلت النفوس على حب من أحسن إليها، فهل هناك من أحسن إلينا أعظم من الله تبارك وتعالى؟ إن كل النعم منه: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل:٥٣] ما ننعم به فى حياتنا، فى داخلنا وفى خارجنا، ما يغمرنا من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا، هو من نعم الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم:٣٤].

أفلا يستحق الله تعالى أن نحبه؟

لماذا لا نحب الله؟

لماذا لا يشغل حب الله أنفسنا وعقولنا وقلوبنا؟

لماذا ينسى الناس حب الله تبارك وتعالى؟

﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة:١٦٥]. هؤلاء المؤمنون الذين يقدمون حب الله على كل شئ، يعمر هذا الحب أفئدتهم، ويملأ ما بين جنوبهم، فهم يحيون به ويموتون عليه. وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ** ﴾ [المائدة: ٥٤].

كانت رابعة العدوية تقول حينما ينام الناس ويأوون إلى فرشهم: قد جاء الليل، وأوى كل حبيب إلى حبيبه، وهذا يارب أوان خلوتى بك، وأنسى إليك.

هذا هو شعور من يحب الله.

وكانت تقول:

حبيبى لا يعادله حبيب   وما لسواه فى قلبى نصيب

حبيب غاب عن بصرى وحسى ولكن فى فؤادى لا يغيب

الله حاضر معها ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فهى تنظر فى نفسها وتنظر فى الآفاق من حولها، فى السماء فوقها وفى الأرض تحتها، وفى كل ما حولها ومن حولها، فتجد آثار نعمة الله، وآثار فضل الله، وآثار قدرة الله، وآثار رحمة الله، فكيف لا يمتلئ قلبها حبا لله تبارك وتعالى؟

حب الله، هذا هو المصدر الأول، وهذه هى الوجهة الأولى، لمن يريد أن يستخدم هذه العاطفة فى محلها.

حب رسول الله ﷺ الذى هدانا الله به، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، وعلمنا به من جهالة، وهدانا به من ضلالة، به عرفنا الصراط المستقيم، به أصبحنا خير أمة أخرجت للناس.

لهذا كان واجبا على كل مؤمن أن يحب رسول الله ﷺ. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (١)، وهكذا أحبه الصحابة رضى الله عنهم، حتى أن خبيبا رضى الله عنه حينما صلبوه - رفعوه على خشبة ليصلب - أرادوا أن يختبروه، وقال له قائل من المشركين: أتحب أن يكون محمد فى مكانك وأنت فى بيتك وأهلك؟ قال: لا والله، ما أحب أن يكون رسول الله ﷺ فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة فى قدمه، فقال أبو سفيان - وكان مشركا فى ذلك الوقت - ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا، وقد قتلوه وهو ينشد:

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى! (٢)

ولما حضر أحد الصحابة الوفاة - بعد النبى ﷺ قالت ابنته: واحزناه. قال:

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى، وابن ماجه ورجاله ثقات، عن أنس بن مالك رضى الله عنه (فيض القدير للمناوى: ٦/ ٤٤١ برقم ٩٩٣٩).

(٢) قضية مذكورة فى الصحيح. وانظر الإصابة جـ(١) ترجمة (٢٢٢٢) والاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة جـ١ صـ ٤٢٩ - ٤٣٣.

وهو يحتضر –: لا تقولى واحزناه، ولكن قولى: (وافرحاه) غدا ألقى الأحبة، محمدا وصحبه.

وثوبان مولاه ﷺ أصابه تغير وذبول، فسأله عليه الصلاة والسلام: ماذا بك يا ثوبان؟ قال: تذكرت يا رسول الله أمرى وأمرك فى الآخرة، فى الدنيا لا أطيق فراقك وإذا غبت عنى حننت إليك واشتقت إليك، فذكرت الآخرة حينما تكون فى الدرجات العلى ونحن فى درجات المؤمنين إن شاء الله، كيف لى أن أصبر عنك؟ فكان الجواب في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾ [النساء:٦٩]، ولذلك قال له: « أبشر فإن المرء مع من أحب » (١).

وجاء رجل يقول يا رسول الله، يا نبى الله متى الساعة؟ فقال (ما أعددت لها؟ » [بدل أن تسأل عن الساعة اسأل نفسك: ماذا هيأت للساعة لتستقبلها]، فقال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكنى أحب الله ورسوله، فقال له: أنت مع من أحببت » (٢) وفى حديث آخر: « المرء مع من أحب » (٣) فما فرح الصحابة بشئ فرحهم بهذا الحديث: « المرء مع من أحب » وكلهم يحبون رسول الله ﷺ.

هذ هى التطلعات العليا التى شغلوا أنفسهم بها، ولهذا لم يبالوا أن يدعوا كل شئ يحرص عليه الناس فى دنياهم من أجل حب الله وحب رسول الله ﷺ.

وفى غزوة أحد كان حنظلة فى الليالى الأولى من زواجه، وسمع النداء بالمعركة فبادر بالاستجابة دون أن يغتسل وكان جنباً، أراد أن يلحق بالمؤمنين وأن لا تفوته الفرصة، فلم يسعفه الوقت للاغتسال. وشاء الله أن يكتب له الشهادة فى هذه المعركة، وأخبر النبى ﷺ بقصته الصحابة، وقال لهم: إن صاحبكم –

---

(١) رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود كتاب الأدب باب ٩٦.

(٢) متفق عليه من حديث أنس كما فى اللؤلؤ والمرجان برقم (١٩٦٣).

(٣) متفق عليه عن أبى موسى اللؤلؤ والمرجان (١٩٦٤).

يعنى حنظلة – لتغسله الملائكة. ولهذا عرف فى السير والمغازى وفى كتب السنة بأنه: حنظلة غسيل الملائكة [(١)].

فى غزوة تبوك كان (أبو خيثمة) قد تخلف عن النبى ﷺ، طاوع نفسه الأمارة بالسوء، فجلس إلى نسائه وفى بيته، لأن الوقت كان وقت شدة حر، ووقت جنى الثمار، كانت ساعة العسرة، ولكنه ما إن رأى حوله الظل والماء والطعام والنساء قال: أأبقى فى هذه الرفاهية وهذا النعيم ورسول الله فى الحر والريح؟ لا والله، لا أقرب واحدة منكن، ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى ألحق برسول الله ﷺ.

ولحق به، حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام رأى غبارا من بعيد فأدرك أن هذا أبو خيثمة، لأن مثله لا ينبغى أن يتخلف، فقال: «كن أبا خيثمة» فما إن وصل حتى كان هو أبا خيثمة رضى الله عنه [(٢)].

هذه هى النفسيات العالية التى تعيش فى حب كبير، حب لله ورسوله وللجهاد فى سبيله، أما إن كانت الدنيا وزخارفها ومتعلقاتها أحب من الله ورسوله والجهاد فى سبيله، فهذا أمر آخر، أنذرنا الله سوء عاقبته حينما قال: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

المؤمن الحق مشغول بحب الله وحب رسول الله وحب الجنة، إنه فى شوق إلى ما عند الله عز وجل، إن حب الآخرة وحب الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قد شغله عن كل شئ فى هذه الدنيا، إنه يريد ما عند الله عز وجل: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ**

---

(١) انظر: الإصابة فى تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر جـ١ الترجمة رقم (١٨٦٣).
(٢) انظر: زاد المعاد. غزوة تبوك.

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ [أى من النساء والبنين والقناطير المقنطرة وكل متاع هذه الدنيا] لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

هذا ما يتطلع إليه المؤمنون، هذا ما ترنو إليه أبصارهم وبصائرهم، هذا ما تفكر فيه عقولهم، هذا ما تهتم به عزائمهم، هذا ما تتوجه إليه قلوبهم، ولكن الناس فى عصرنا - والشباب خاصة - شغلوا بغير ما شغل به خبيب بن عدى، وأسامة بن زيد، وعلى بن أبى طالب، والمهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

شغلهم الحب، وأى حب؟ إنه ليس حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله إنه حب المرأة فى صورة معينة.

إذا كان ولابد من حب المرأة، فلماذا لا يحب الإنسان أمه؟ ولماذا لا يحب زوجته؟ وإذا كان حب البشر مطلوبا، فلما لا يحب إخوانه المؤمنين؟

الحب فيه متسع: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[(١)]، « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم » [(٢)].

محبة المؤمنين بعضهم لبعض فى الله: أن تحب لله، تحب فلاناً لأنه يطيع الله، لأنه ينصر دين الله، لأنه يقول الحق، لأنه لا يخاف فى الله لومة لائم، لأنه فعال للخير، مناع للشر. إذا أحببت إنسانا لهذا فأنت تحبه لله، لا لدنيا تصيبها، ولا لشئ من أغراضها تناله، هذا هو الحب فى الله أو الحب لله. ولهذا كان هو تمام الإيمان، كما جاء فى الحديث الصحيح: « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله

---

(١) رواه البخارى ومسلم، وغيرهما، عن أنس رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥١٤ برقم ٩٩٨) وهو من أحاديث الأربعين النووية.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٢/ ٢٥٨ برقم ٣٣٠٠).

ومـن يكـره أن يعـود فى الكفـر بعـد أن أنقـذه الله منه كـمـا يكـره أن يقـذف فى النار» [1].

هذا هو الحب والكره، هـذه هى العاطفة التى يريدها الإسلام. يريد الإسلام من المسلم أن يطوع عواطفه وانفعالاته وميوله لحكم الله ولشرع الله، كـما قـال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» [2]، أى: تصبح أهواؤه وميوله ومشاعره إسلامية محمدية قرآنية.

هذا هو ما يراد من المسلم.

ليس معنى هذا أن الإسلام لا يريد من الإنسان أن يحب من يستحق الحب من زوجة أو أبناء، لا، هذا مطلوب، ولكن للأسف الحب الذى يتحدثون عنه هو: حب المرأة التى ليست زوجة ولا أما ولا بنتا ولا أختا، هذا الحب: الغرام.. العشق، والذى تتفنن الحياة الحديثة فى إشعال ناره، فى الرمى له بالوقود المتأجج باستمرار: أغانى... قصص.. صور.. أفلام.. مسلسلات، هذه كلها تؤجج النار، والنار موجودة وليست محتاجة إلى هذا كله.

إنه فى الحقيقة ليس حبا، إنه شهوة، إنه ميل غريزى كامن وموجود.

لماذا هذا كله؟ لماذا نلح على هذه الغريزة هذا الإلحاح، وبهذه الأساليب الشديدة التأثير؟ حتى أصبح الشباب والشابات يعيشون فى هذه الأباطيل، يعانون القلق، يعانون الاضطراب النفسى، من جراء التفكير المستمر، والسرحان، والتوهان، والمكالمات الهاتفية التى تطول.

لم هذا كله؟

---

(١) رواه البخاري ومسلم، والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٨٥ - ٧٨٦، برقم ١٨٣٢).

(٢) من أحاديث الأربعين النووية، قال النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. وقد بسط الكلام علي هذا الحديث الحافظ ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) وضعف إسناده لضعف نعيم بن حماد المروزي. انظر (جامع العلوم والحكم: ص ٥٢١ - ٥٢٥) ط مكتبة دار التراث بالقاهرة.

قالوا: ربما يكون وراءه زواج. ولكن هل يكون الزواج بهذه الطريقة؟!

إن الزواج الذى عرفه المسلمون له أبواب معروفة ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة :١٨٩]. بدل أن تكلم الفتاة من خلف ظهر أهلها، إذهب إلى أهلها، إذا قبلوك فبها، وإلا فلا تضع نفسك فى مأزق لا تستطيع الخروج منه.

كم من المكالمات الهاتفية ومن الرسائل، تأتينى من فتيات شغلن أنفسهن بعلاقة عاطفية مع شاب معين، فلما تقدم لأهلها رفضوه.

لم إذن هذا العذاب؟

عرفنا وعرف المسلمون من قديم الزمان أن الشاب يتقدم لخطبة الفتاة، وينظر أهل الفتاة بالموازين الإسلامية فى أمره.. فى دينه وخلقه، وقدرته على إحصانها، وإلى الموضوع من كل جانب، فإذا وافقوا عليه كان ذلك خيرا كثيرا.

وهنا نذكر أن هناك للأسف من الناس من لا يسمحون لخاطب ابنتهم بمجرد النظر إليها، وهذا غلو ليس من الدين فى شئ.

إن النبى ﷺ قال لمن خطب من الصحابة [١]: « هل نظرت إليها؟ قال: لا، قال: فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » [٢] هنا أباح الإسلام النظر لأنه نظر لهدف، إنه يريد أن يتعرف عليها ليطمئن قلبه لها، ولعل هذه النظرة البريئة — التى تهدف إلى مشروع صالح وقيام أسرة مسلمة — تكون بداية لمحبة زوجية، فإن العين رسول القلب .

---

(١) هو المغيرة بن شعبة رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى، عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه، حسنه البغوى، وصححه ابن حبان، وقال شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح. انظر (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الارناؤوط: ٩ / ١٦ — ١٧ برقم ٢٢٤٧) وقوله: « يؤدم بينكما » أى: يكون بينكما المحبة والموافقة.

نحن للأسف دائما نقع بين الإفراط والتفريط، فإما أناس لا يسمحون للخاطب أن يرى مخطوبته بحال، ولا يراها إلا ليلة الزفاف، وإما أناس تركوا الحبل على الغارب، وأطلقوا العنان للشاب والشابة يذهبان معا إلى النزهات، أو إلى السينما، أو الأماكن الخلوية، قبل عقد العقد، وهذا لا يجوز.

لا يجوز أن يختلى الشاب بالشابة دون عقد بينهما، إلا أن يكون معهما أحد من أهل الفتاة.

الإسلام يريد إقامة أسر صالحة، ولا يريد من الإنسان المسلم أن يشغل نفسه بما لا يجدى، ومن هنا أمرنا بغض الأبصار، أو الغض من الأبصار ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

إنه يريد أن يسد الذرائع إلى الفجور، ومن ناحية أخرى يسد الذرائع إلى القلق والاضطراب النفسى، الذى يعانيه من يعانيه، من أجل نظرة أدت إلى تعلق قلبه بامرأة لا يستطيع أن يصل إليها، ولا يستطيع أن يتزوجها. لم هذا؟

الشاعر العربى يقول قديما:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائدا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادرعليه ... ولا عن بعضه أنت صابر

لم هذا؟ لماذا يعرض الإنسان نفسه للقلق والاشتغال وإدخال نفسه فى مآزق لايمكنه الخروج منها؟ ولماذا يعرض نفسه للفتنة أيضا؟ وكما قال الشاعر قديما:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

وقال الشاعر شوقى حديثا:

نظرة فابتسامه فسلام ... فكلام فموعد فلقاء

الألف تجر إلى الباء، والقليل يجر إلى الكثير، ولهذا سد الباب، وغض من

بصرك ولا تتبع النظرة النظرة، كما قال النبى ﷺ لعلى: «يا على، لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الآخرة» [1] خشية أن يفتن أو يشغل أو يقلق.

بعض الناس يقول: إنه حب، والحب لا دخل للإنسان فيه، هذا شئ يصنعه الله فى القلب، والقلب ليس بيدى!

هذا صحيح، ،ولكن مقدماته فى يدك، الأسباب فى يدك، أنت الذى أوصلت نفسك إلى هذه المرحلة، ولهذا يقول الشاعر:

تعلق بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة ... فلما توغل فيها غرق

هو أغرق نفسه، وكان الأولى أن يبتعد، إن الذى نريده من شبابنا وشاباتنا: أن يدعوا هذه الترهات، أن يدعوا هذه الأباطيل، وأن يفكروا فى مصيرهم ومستقبلهم، أن يفكروا فى موقفهم بين يدى الله تبارك وتعالى، أن يفكروا فى أمر هذه الأمة، أن يهتموا بأمر المسلمين، أن ينشغلوا بما هو أعظم من هذا.

أما من شغل نفسه بهذه الأمور، من الشبان الذين يجلسون فى الشوارع أو فى الطرقات يلتهمون الغاديات والرائحات، فهؤلاء لن يربحوا فى الدنيا، ولن يربحوا فى الآخرة، وهل يقبل الإنسان لأحد ممن يغار عليه أن يكون كذلك؟ هل ترضى هذا لزوجتك أو لأختك أو لابنتك أو لإحدى ذوات محارمك؟

كان الشاعر الجاهلى الفارس عنترة بن شداد العبسى يقول:

أغشى فتاة الحى عند حليلها ... وإذا غدا فى الجيش لا أغشاها

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود، والترمذى، والحاكم من حديث بريدة، وقال الترمذى: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك، وذكر شعيب الأرناؤوط أن له طريقا آخر عند أحمد والدارمى عن على رضى الله عنه فيتقوى الحديث به ويحسن (شرح السنة للبغوى تحقيق شعيب الأرناؤوط: ٩/٢٣ - ٢٤) و (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٤٧ برقم ١٠٨٨).

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها

فعل ذلك من باب الشهامة والمروءة ومكارم الأخلاق.

يقول هذا وهو جاهلى، ونرى الناس فى عصرنا أول من ينظر إليها ومن يريد أن يتطلع إليها هى امرأة جاره أو بنت جاره، وللجوار حرمة. الجار حارس على حرمات جاره، فكيف يكون هو اللص؟! إنه الراعى فكيف يكون هو الذئب؟!

إن الإسلام يريد منا أن نوجه عواطفنا وجهة كريمة، يريد منا أن نوجه هذه العواطف ونتسامى بها إلى ما يحب الله ويرضى، يريد منا أن نكون كيوسف عليه السلام، وليس كامرأة العزيز.

امرأة العزيز شغفها فتاها - يوسف - حبا، وهو مملوك لها، وأرادت أن يرتكب معها الحرام، و هيأت الأسباب ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ..﴾ [يوسف: ٢٣]، ولكن الشاب المؤمن - مع أنه كان فى ريعان شبابه ومقتبل عمره، وفى غربة لا يعرفه فيها أحد، ولا يحاسبه على ذلك أحد، ولم يسع إلى الفتنة ولكن الفتنة سعت إليه، وكان يمكنه أن يستجيب، ولكنّه - وقف كالطود الأشمّ وقال: ﴿... مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣].

ولما حضر النّسوة وطلع عليهنّ ﴿... فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، قطعن أيديهنّ من الدهشة.. من حسنه وجماله وفتوته، وحرّضنه على طاعة سيّدته، فماذا كان منه أمام التحريض من ناحية والتهديد من ناحية؟

إغراء وإغواء، وتهديد ووعيد، قالته المرأة بصريح العبارة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]. هنا خُيرّ يوسف بين محنتين: محنة فى دنياه ومحنة فى دينه، فأىّ المحنتين يختار؟

كانت محنة دنياه أن يُسجن كما هدّدت المرأة ويكون من الصاغرين، وهى

قادرة على أن تقول وتفعل لما لها من نفوذ فى تلك الدوائر العليا. كان مخيّراً بين هذه المحنة وبين محنة أخرى فى دينه، بأن يُفتن وأن يزنى ويكون من الفاسقين، فآثر محنة الدنيا على محنة الدين، ومحنة الدنيا لا تساوى شيئاً بجانب محنة الدين، ولهذا علّمنا نبينّا أن نقول: «اللهم لا تجعل مصيبتنا فى ديننا»[1].

ولهذا توجّه يوسف إلى ربه و ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]. وهذا يدلّ على شدّة فتنة النّساء، ولهذا قال: ﴿.. وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فالقوى قد يضعف.

ورضى بالسجن ولم يرض بارتكاب الفاحشة، ودخل السجن وعاش فيه ما عاش.

هذا هو العفاف، هذه هى الإرادة الصُّلبة، هذه هى الرجولة. من أراد أن يتخذ له مثلاً عالياً من شبابنا فليتخذه من يوسف، لا يتخذ المثل من الممثلين العرب أو الممثلين الأمريكان. يتخذه من أسامة بن زيد، من محمد بن القاسم، من الشباب المؤمن على مراحل التاريخ، هذا ما نريده من شبابنا.

يا أيّها الشبان ويا أيتها الشابّات.. يا أبناء الإسلام وبناته: اعرفوا أنفسكم، اشغلوا أنفسكم بما هو أهمّ وأبقى، دعوا هذه الترّهات، دعوا هذه المغريات التى نراها فى كلّ مكان.

ويا أصحاب التوجيه والتأثير فى الصحافة والإعلام والقصص والكتب: اتقوا الله فى بنينا وبناتنا، اتقوا الله فى بنيكم أنتم وبناتكم أنتم، أليس لكم بنون

---

(١) وذلك فى الدعاء المأثور الذى كان يدعو به عليه الصلاة والسلام ونصّه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلّغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهوّن علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا» رواه الترمذى وحسّنه وأقرّه النووى، ورواه الحاكم وصححّه (فيض القدير للمناوى: ٢/١٣٢ - ١٣٣ برقم ١٥٠٥).

وبنات؟ أليس لكم شبان وشابأت؟ احرصوا على هؤلاء، احموهم من الفتنة، فإنّ الفتنة تطلّ برأسها من كل مكان.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يجنّبنا الفواحش كلّها، إنّه سميع بصير.

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية :

أما بعد :

ورد أنّ فى يوم الجمعة ساعة إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له، ولعلّها تكون هذه الساعة(1).

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا فى كلّ خير، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شر.

اللهم طهرّ أقوالنا من اللغو، وطهر أعمالنا من العبث، وطهرّ أنفسنا من الضعف، وطهرّ قلوبنا من الغشّ، وطهرّ ألسنتنا من الكذب، وطهرّ أعمالنا من الرياء، وطهرّ أعيننا من الخيانة.

اللهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

عباد الله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النحل: ٩٠].

وأقم الصلاة.

---

(١) يشير الشيخ حفظه الله إلى حديث أبى هريرة المتفق عليه، أنّ رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّى يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه إيّاه» وأشار بيده يقلّلها. والمراد بالساعة هنا (معناها اللغوى) وهو: برهة من الزمن، ولهذا قال: وأشار بيده يقلّلها، ليسارة وقتها. وأمّا تعيين الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيرا، وأفاض الإمام ابن القيم فى ذكر أقوالهم ورجحّ منها قولين، أحدهما: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، والثانى: أنها بعد العصر، قال: وهذا أرجح القولين.

انظر (زاد المعاد: ١/٣٨٨ – ٣٩٧) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. وانظر أيضا: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للشيخ القرضاوى: ١/٢٤١ – ٢٤٣).

٥ – استنساخ البشر وأضراره على الإنسانية [١]

● الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

فى هذه الأيّام يتحدث الناس عن قضية خطيرة، تحدثت عنها الصحف والإذاعات والتلفازات وأجهزة الإعلام المختلفة، قضية علميّة شغلت الناس من كلّ حدب وصوب وعلى جميع الاختصاصات، هى القضيّة الى يسمّونها (الاستنساخ) : أن تستنسخ من كائن حيّ نسخاً عدّة.. نسخاً مكرّرة لشخص واحد !!

وهذا أمر جرّبه الناس منذ عرفوا ما سمّى بالهندسة الوراثيّة، عندما اكتشف الإنسان – الذى علّمه الله ما لم يكن يعلم – أنّ هناك عوامل وراثيّة هى التى تتحكم فى الإنسان، وتحدّد شكله وصورته وهيئته وذكاءه وقوّته الجسميّة وطوله وقصره وبياضه أو سواده... إلخ. تلك التى يسمّونها (الجينات)، التى تحمل عوامل الوراثة من الأب ومن الأمّ ومن الجدّة ومن الجد، ومن القبيلة، ومن الفصيل، ومن النوع. منذ اكتشف الناس هذه الأشياء، وهم يطبقونها فى عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات، بأطر مختلفة وضوابط محدّدة.

ولكنّهم فى الآونة الأخيرة – فى إطار ما عرف باسم (الثورة البيولوجيّة).. ثورة علم الأحياء وعلوم الوراثة – وصلوا إلى استنساخ فى عالم الحيوان. وهذا ما نُشر من استنساخ تلك النّعجة الأسكتلنديّة التى يسمّونها (دُوللى)، بواسطة خلية أخذت من خروف ذكر وضعت – بعد أن عولجت معالجة معيّنة – فى بييضة منزوعة النّواة من الأنثى – أى هذه البييضة لا تحمل العوامل الوراثيّة – ثمّ وضعت فى رحم الأنثى الشاة. وكانت النتيجة أن جيء بنسخة طبق الأصل من النّعجة التى أخذ منها – أو الخروف الذى أخذ منه – تلك الخليّة.

---

(١) ألقيت بجامع عمر بن الخطاب بالدوحة فى يوم الجمعة ١٢ / ١١ / ١٤١٧ هـ الموافق ٢١/٣/١٩٩٧).

وقالوا: إنّ هذا يمكن أن يطبق فى عالم الإنسان، نستطيع أن نأخذ خليّة من ذكر ونعالجها تلك المعالجة، ونأخذ بييضة من امرأة ننزع منها نواتها وعوامل الوراثة فيها، ونغرس تلك الخليّة فى تلك البييضة، ونضعها فى رحم امرأة، فتأتى لنا بنسخة طبق الأصل من الذكر الذى أخذت منه الخليّة. ويمكن أن تُخلّق من هذا الشخص مئات وآلاف الأشخاص طبق الأصل، هو هو، بجسمه ولونه وصورته وذكائه وصفاته الجسميّة وصفاته العقليّة وصفاته النفسيّة!

هكذا قالوا.

ومن هنا تخوّف الناس فى العالم كلّه، وهاج هائجهم. علماء القانون، وعلماء الاجتماع، وعلماء الأخلاق، وعلماء التربية، وفوق ذلك كلّه علماء الدين، من مسلمين ومن نصارى، كلّهم تخوّفوا من خطورة هذا الأمر.

ماذا لو تمادى الناس فى هذه القضيّة واستطاعوا أن يُخلّقوا[1] إنساناً بهذه الصورة؟ ماذا يمكن أن يقول الناس وأن يقول الدين وأن يقول الشرع وأن تقول الأخلاق أمام هذه القضيّة؟ هل نسمح بالعبث فى الجينات والعوامل الوراثيّة وهندسة الوراثة إلى هذا الحد؟ هل يقبل الشرع ويقبل الدين وتقبل العقائد السماويّة - بل هل تقبل القيم الأخلاقية وتقبل الأوضاع الاجتماعيّة - هذا التصرّف؟

نقول: لا، ثم لا.

إنّ الإسلام يفسح ذراعيه للتقدم العلمى، ونحن نعتبر أنّ التقدّم العلمى فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتّمها الواقع، وفقهاء المسلمين يعتبرون ذلك التفوق والتقدم من فروض الكفاية على الأمة، إذا فرطت فيه ركبها الإثم والخطيئة.

لابد للمسلمين إذن أن يتبوّؤا مكانهم فى المجال العلمى، وقد كانوا سادة

---

(١) هم يُخلّقون ولا يخلقون، وفرق بين الخلق والتخليق، الخلق لله عزّ وجلّ، والتخليق أو التكوين يستطيعه الإنسان بواسطة ما خلق الله. الإنسان لم يخلق المادّة الحيّة.. لم يخلق الخليّة.. لم يخلق البييضة، الله هو الذى خلقها، ولكن الإنسان استطاع بما خلق الله أن يتوصل إلى هذه النتائج، وأن يصنع أناسيّ متشابهين مكرّرين، كأنّها صور فوتوغرافيّة لشخص واحد (القرضاوى).

الدنيا فى هذا المجال لعدّة قرون، كانوا معلّمى العالم، وكان الطلاّب يأتون إليهم من أوربا ومن غيرها ليتعلّموا فى جامعات المسلمين، وكان علماء المسلمين هم أساتذة الدنيا، والمراجع العالميّة للمسلمين هى مراجع العلم للعالم، واللّغة العربّية هى لغة العلم.

نحن نرحب بالعلم، ولكن يجب أن يكون العلم فى خدمة الإيمان، فى خدمة الأخلاق.. فى خدمة القيم... فى خدمة الإنسان، لا أن ينطلق العلم سائباً، لا معالم تهديه، ولا ضوابط تعصمه، هنا يكون الخطر كلّ الخطر.

القرآن ضرب لنا مثلاً بسيّدنا سليمان عليه السلام، حينما قال للملأ من حوله: ﴿ .. أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا [أى: عرش بلقيس ملكة سبأ] قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [أى: فى لمح البصر، قبل أن تغمض عينيك وتفتحها، وفعلاً أتاه به بواسطة هذا العلم الذى آتاه الله] فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠]. هذا منطق الإيمان، لا يطغى بسبب العلم ولا يتجبّر ولا يغتر، وإنّما يرجع الفضل لله عزّ وجلّ، ويرى أنّ هذا ابتلاء وامتحان له: أيشكر أم يكفر؟

وكذلك ذكر لنا القرآن قصّة أخرى: قصّة ذى القرنين، حينما أقام السّدّ العظيم بين يأجوج ومأجوج وبين أولئك القبائل الذين استنجدوه فأنجدهم وجندهم للعمل معه فى ذلك ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ.... ﴾ [الكهف: ٩٥ ، ٩٦] إلخ، فلما أقام هذا السّدّ العظيم ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨].

العلم إذنْ كان فى إطار الإيمان، كان نافعاً ولم يكن ضارا، كان معمّراً، ولم يكن مخرّباً ولا مدمّرا. وهذا شأن العلم فى الحضارة الإسلامية.

الحضارة الحديثة نرى العلم فيها لا ينضبط بقيم الإيمان والأخلاق، قد ينفع وقد يضرّ، قد يبنى وقد يدمّر، قد يحيى وقد يميت، كما رأينا فى الأسلحة النّووية، وكما رأينا فى الأسلحة الجرثوميّة، والأسلحة الكيماويّة، وأدوات التدمير وغيرها. فهى لا تقف عند حدّ منفعة الإنسان، بل قد تستخدم فيما يضّر الإنسان، وفيما يدمّر الحياة والأحياء.

من أجل هذا نتوقف فى هذه القضيّة، ونقول: هناك عدة اعتبارات لا بدّ أن نأخذها فى الحسبان:

● **الاستنساخ ضد التنوع والتمايز:**

الاعتبار الأوّل: أنّ الله سبحانه وتعالى خلق الناس متمايزين، خلق هذا الكون على أساس التنوّع واختلاف الألوان، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]، العلماء الذين يعرفون أسرار هذه الكائنات هم الذين يخشون الله، لأنّ من عرف الله فى آياته يخشاه سبحانه وتعالى.

«مختلف ألوانه»: اختلاف الألوان هو تعبير عن التنوّع الذى خلق الله عليه هذه الكائنات وأقام عليه هذا الكون، فلا يجوز إذن أن نجعل النّاس متشابهين.. نسخاً مكرّرة، هنا تفسد الحياة.

الله تعالى يقول: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ..** ﴾ [الروم: ٢٢]، بعض المفسرين يقول: ليس اختلاف اللسان أنّ هذا يتكلم بالعربى وهذا يتكلم بالانكليزى، لا، اختلاف الألسن: اختلاف الأصوات، كلّ إنسان له صوته المميزّ. عرف فى عصرنا ما سمّى باسم (البصمة الصوتيّة)، كلّ إنسان له بصمة صوتيّة مثل بصمة بنانه تميزّه عن غيره، وبعض الناس يضع أمواله فى حساب فى بنك معيّن ويقول: إنّ توقيعى هو صوتى. هذا اختلاف الألسن.. اختلاف الأصوات.

وقال: اختلاف الألوان: فسّرها بعضهم باختلاف الصور، كلّ إنسان له صورة تميّزه عن غيره، تستطيع أن تعرف زيداً من عمرو، وعلياً من عباس، وهكذا، كلّ واحد له صورته المميّزة.

ولكن إذا استطاع هؤلاء أن يخلّقوا أناساً متشابهين فكيف يتميّز النّاس؟ كيف تعرف زيداً من عمرو؟ كيف تعرف فلاناً من علاّن؟ كيف تعرف هذه من تلك؟ كيف يعرف الأستاذ تلاميذه؟ وإذا دخل أحدهم مكان صاحبه في الامتحان كيف يعرف هذا من هذا؟ كيف يُعرف المجرم إذا أجرم وكيف يحقق معهم المحقق، ويحاكمهم القاضي، وكلهم صور واحدة؟ كيف تستطيع أن تميز المجرم من غيره؟ بل كيف يستطيع الرجل أن يميزّ امرأته من غيرها؟ وكيف تستطيع المرأة أن تميزّ زوجها من غيره؟ ستفسد الحياة حينئذ، حين يتشابه الناس ولا يتمايزون.

هذا التمايز صفة مطلوبة، بل ضرورية لتستقيم الحياة، إن ربنا سبحانه وتعالى جعل لكلّ إنسان شخصيّته المستقلّة، على أساسها يخاطب، وعلى أساسها يُحاسب، وعلى أساسها يُثاب ويُعاقب، وعلى أساسها يتحمّل المسؤوليّة في الدنيا والحساب في الآخرة. فإذا خلّق هؤلاء أناساً متكرّرين، فهؤلاء قد أفسدوا الحياة الإنسانية والاجتماعية.

● **التعريض لخطر الأمراض القاتلة :**

ثمّ هذا نفسه يعرّض الناس لأخطار، إذا أصاب واحداً من هؤلاء مرض أو فيروس، أصيب الجميع. يمكن لمرض واحد أن يقضي على هذا القطيع البشري كلّه.

● **استغلال قوى الشر للاستنساخ :**

ومن ناحية أخرى: يمكن لبعض جهات الشر وقوى الإثم والعدوان أن تستغلّ هذا. (المافيا) العالميّة تستطيع أن تصنع من بعض الأشرار نسخاً متكرّرة. النّاس كانوا يشكون من (هتلر) واحد، تستطيع إذن أن تصنع عدّة (هتالر) من هذا الإنسان الشرّير، وهذا يهدّد الحياة بالخطر.

هناك أخطار كثيرة لا نستطيع أن نتنبأ بها. كلّ هذا لأنّه فقد عنصر التمايز.. عنصر التنوع الموجود بالفطرة بين الناس بعضهم وبعض.

الاستنساخ ضد ظاهر الزوجية :

الاعتبار الثانى: أنّ الله خلق الكون كلّه أزواجاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ [النبأ: ٨]، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يس: ٣٦].

كان الناس قديماً يظنّون أنّ الأزدواج – الذى يتمثل فى الذكورة والأنوثة – قائم فى عالم الإنسان وفى عالم الحيوان. وعرفوا فى عالم النبات أنّ فى النخيل ذكوراً وإناثا. ثم جاء العلم الحديث وقال: كلّ النباتات فيها ذكورة وأنوثة، بل كلّ الكائنات، الكهرباء فيها موجب وسالب، الذرة – وهى وحدة البناء الكونى – فيها شحنة كهربائيّة موجبة وشحنة كهربائيّة سالبة (إلكترون وبروتون)، الحياة كلّها والكون كلّه قائم على سنة الزوجية. وهذا ما قرره القرآن فى هذه القاعدة الكونيّة العامّة حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الذاريات: ٤٩].

هؤلاء يريدون أن يبطلوا هذه القاعدة (قاعدة الزوجية) فى الكون وفى الحياة، ويقولون: يمكن أن يستغنى النّاس عن الذكور نهائياً أو عن الإناث نهائياً، ويبقى جنس واحد. وقالت إحدى الكاتبات الأمريكيّات: نستطيع أن نجعل كوكبنا هذا – تعنى الأرض – كوكباً للنساء، وتصبح الأرض للنّساء وحدهنّ ولا داعى للذكور !!

الله خلق الزوجين الذكر والأنثى[١]، فكيف يعيش هؤلاء بجنس واحد؟

حينما خلق الله آدم لم يدعه وحده، وإنّما خلق له من جنسه زوجاً ليسكن إليها، وقال له: ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ..** ﴾ [البقرة: ٣٥، الأعراف: ١٩]، لأنّه

---

(١) كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٩].

لا معنى لجنّة يعيش الإنسان فيها وحده، فمن أحل ذلك حدث هذا الإزدواج، فخلق الله الناس من ذكر وأنثى.

وهؤلاء يريدون أن يستغنوا بأحد الصنفين عن الآخر، وفي هذا تدمير للحياة، ومخالفة لفطرة الله التي فطر الناس عليها.

حاول ذلك من قبلُ قومُ لوط، الذين قال لهم نبيهّم: ﴿ أئنكم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النّمل: ٥٥]، ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١]، ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ، ١٦٦]. وصفهم بالجهل، وصفهم بالإسراف، وصفهم بالعدون، وصفهم بالإفساد: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وصفهم بالإجرام، وصفهم بكلّ رذيلة وبكلّ نقيصة. لأنهم عاندوا فطرة الله، وأرادوا الاستغناء بالذكور عن الإناث. وهو شذوذ عن الفطرة والحق والدين.

ومن هنا عاقب الله قوم لوط عقوبتين:

العقوبة الأولى: أنّه قلب قريتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها.

والعقوبة الثانية: أنّه أمطر عليهم حجارة من سجيّل منضود، مسوّمة عند ربك، كل جحر يقصد واحداً معيّناً وهدفاً محدّداً، يأتيه فيصيبه، وما هي من الظالمين ببعيد[1].

الاستغناء عن الأسرة:

الاعتبار الثالث: أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الأسرة هي الأساس لحياة المجتمع الإنساني. لابدّ أن يتربى الطفل في ظلّ أسرة.. في ظلّ أبوة وأمومة، لابدّ للإنسان أن يعيش في بيت يحنو عليه ويرعاه.

الطفولة الإنسانية أطول أنواع الطفولة في الحيوانات، لا يوجد حيوان

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢ ، ٨٣].

تستمر طفولته عدّة سنوات كما فى الطفل البشرى، فمن يرعى هذا الطفل فى أثناء هذه السنين؟ لابدّ من أمّ ترعاه، وأب يحنو عليه، وأخوة يتعامل معهم. ومن خلال هذا التعامل تتربى مشاعر الحنوّ والحب والعطف والحنان والإيثار والتعاون. كلّ هذه تنمو فى ظلّ هذا التعامل المستمر اليومى.

من الذى يرعى هذا الطفل إذا لم يكن له أب ولم يكن له أمّ؟

الآن يفكرون فى عمل رحم صناعى توضع فيه هذه الخليّة، ويحاولون أن يستعنوا عن رحم المرأة نهائياً. وطبعاً يرحّب بهذا الموسرات والممثّلات والمطربات حفظاً على الرشاقة، وهذا خطر كلّ الخطر.

أين الأمومة؟ الأمومة هى المعاناة وليس مجرّد أن تعطى بذْرة أو بييضة لهذا الرحم الصناعى. الأمومة أن تعايش المرأة جنينها فى بطنها تسعة أشهر. الله تعالى حينما أمر بالإحسان بالوالدين قال: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا..** ﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال فى آية أخرى: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ..** ﴾ [لقمان: ١٤]، هذه هى الأمومة، الأمومة الحقيقية هى هذه المعايشة لهذا الطفل، وتحمّل آلامه.

وحينما جاءت إحدى النساء المطلقات تشكو إلى النبى ﷺ أنّ زوجها يريد أن يأخذ طفلها منها قالت: يا رسول الله، إنّ ابنى هذا كان بطنى له وعاءً، وثديى له سقاء، وحجرى له حواء، وإنّ أباه طلقنى، وأراد أن ينزعه منّى: فقال رسول الله ﷺ: «أنت أحقُّ به ما لم تنكحى» [1].

ماذا تقول المرأة التى لم يكن بطنها لطفلها وعاء، ولا ثديها له سقاء، ولا حجرها له حواء؟ إنّها لم تتولّ إرضاعه، ولم تحمل حتى يكون لها لبن، أين الأمومة إذن؟

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، وإسناده حسن (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٩/٣٣٣ برقم ٢٣٩٩).

من أجل هذا جعل الإسلام - وجعلت الأديان كلّها - الزواج أساس الأسرة، وهؤلاء يلغون الزواج من حياة الإنسان. وبهذا يصبح الناس حيوانات، لم يعودوا أناسيّ، لم يعودوا بشراً تحكمهم شرائع وتحكمهم قيم.

هذا كلّه إفساد وتدمير للحياة.

الحياة لابدّ لها من أسرة، ولابدّ لها من زوجين أو أبوين، ولابدّ أن ينشأ الطفل في ظلال هذه الأسرة، وفي رحابها، ويتعلم منها «كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته.... والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيّته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها...» [1]. فإذا تركنا الحبل على الغارب لهذه الأمور فسدت الحياة، واضطرب نظام هذا الكون.

ومن أجل هذا كلّه نقف ضدّ هذا التوجه الخطير الذي يسعى إليه بعض العلماء. وكثير من العلماء أنفسهم - من أهل العلم الأحيائي البيولوجي - يقفون ضدّ هذه التوجهات..

نرحب بالعلم المنضبط :

نحن لا نقف في وجه العلم، بل نرحب به وندعو إليه، ولن تتقدم أمّتنا إلا بالعلم، ولكننا ضد العلم المنفلت المدمرّ، لذا نحن نقول: إنّه إذا كان يمكن أن نستفيد من هذه التوجيهات العلمية في مجال الهندسة الوراثية، في علاج بعض الأمراض المستعصية، وبعض الأمراض الوراثيّة، التي يرثها الأبناء عن الآباء والأحفاد عن الأجداد، وإذا استطعنا أن نعالج بعض أسباب العقم الذي يشكو منه الكثير، فلا مانع من ذلك، فحيث توجد المصلحة هنا فثم شرع الله.

ولكن بشرط: أن لا يكون ذلك فتحاً لباب خطر على البشر. إذا خفنا - خوفا

---

(1) قطعة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي رواه البخاري ومسلم، ونصّه كاملاً: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيّده ومسؤول عن رعيّته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيّته» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٥٣ برقم ١١٠٨).

مبنيا على دراسة – إنه إذا فتح هذا الباب فلن يُسدّ، فالأولى بنا أن نسدّه من أول الأمر.

عندنا فى الشرع قاعدة تسمّى (قاعدة سدّ الذرائع) أى: لو أنّ هناك أمراً مباحاً، ولكنه إذا فُتح الباب له سيؤدى إلى أمور منكرة ومفاسد للناس، فإنّه يمنع هذا الأمر المباح، سداًّ للذريعة إلى الفساد، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ...** ﴾ [الأنعام: ١٠٨] لا تسبوا الأصنام أمام المشركين فيسبوا الله سبحانه وتعالى، مع أنّ الأصنام لا حرمة لها وسبّها لا حرج فيه، ولكن إذا تسبب هذا الأمر فى سبّ الله عزّ وجلّ، فينبغى أن نترك هذا الأمر خشية من عواقبه ونتائجه.

إذا كان فتح الباب لهذا الأمر سيجلب علينا شراً لا يعلمه إلاّ الله، وسنكون أمام مخاطر قد نعرف أوّلها ولا نعرف آخرها، فلا بدّ أن نأخذ بالحزم ونسدّ هذا الباب، كما قيل (الباب الذى يأتيك منه ريح يجب أن تسدّه وتستريح).

إنّنا أمام أمر خطر، نحن لا نعرف كلّ ما يّمكن أن يتمخّض عنه هذا الأمر، نحن ذكرنا بعض أشياء وهى مؤشّرات، ولكن لا نستطيع أن نتكهّن بما يمكن أن يأتى به هذا الأمر لو فتح الباب على مصراعيه، إنّه قد يودى بالبشريّة وقد يدمّرها، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ .. **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [يونس: ٢٤].

أسأل الله تبارك وتعالى أن يسدّد خطانا، وأن ينير طريقنا، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يوفّق العلماء إلى ما هو خير للإنسان وللحياة وللأحياء، إنّه سميع قريب.

أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لا نستطيع أن نُصمّ آذاننا، ولا أن نغمض أعيننا، ولا أن نغلق عقولنا، عمّا يجرى فى القدس الشريف.

القدس العربية الإسلامية مهدّدة بالزوال، على مرأى ومسمع منّا نحن العرب والمسلمين، حكومة (نتنياهو) قررّت أمراً، وهى تنفذه ولا تُبالى باستنكار المستنكرين ولا باحتجاج المحتجين. ونتنياهو هو كمن كان قبله بل شرّ منه، ولكن ليس فى الشرّ خيار، كلهم أشرار.

وليس فيهم من فتى مطيع فلعنة الله على الجميع

رابين منذ اليوم الأوّل – يوم الاتفاق فى أوسلو – أعلنها صريحة : أنّ القدس هى العاصمة التاريخية والأبدية والموحّدة لشعب إسرائيل.

هذا ما قاله (رابين)، وما قاله (بيريز)، وما يقوله (نتنياهو) ويزيد عليهم : أنّه يتحدى ولا يبالى بأحد.

القدس تتعرّض لمخطّط استيطاني يهودى، وهى خطة ليست بنت اليوم ولا وليدة الأمس. إن اليهود قد خططوا لذلك من قديم، منذ القرن الثامن عشر، حاولوا أن يتسللوا إلى فلسطين وإلى القدس.

سيدنا عمر – رضى الله عنه – حينما دخل القدس وصالح أهلها من المسيحيين، اشترطوا عليه أن لا يساكنهم فيها يهود. ولا ندرى منذ متى بدأ التسلل اليهودى لدخول هذه المدينة، ولكنهم فى القرن التاسع عشر حاولوا الضغط على الدولة العثمانية – عندما بدأ يصيبها الضعف شيئا فشيئا – لتسمح لهم بإقامة بعض المؤسسات ومن خلال هذه المؤسسات خدعوا العرب والمسلمين، وطالبوا بإنشاء مستشفى، وجعلوا فى داخل هذا المستشفى وحوله مساكن.

ولكن فى آخر القرن التاسع عشر كان سكان مدينة القدس حوالى خمس وأربعين ألف نسمة، وكان اليهود لا يزيدون على ثلاثة آلاف أو أكثر قليلا، ثم بدأوا يخططون للزيادة شيئا فشيئا، ففى سنة (١٩١٨م) - أى بعد أن دخل الجنرال اللنبى القائد البريطانى القدس - أصبحوا عشرة آلاف، وبدأ التدفق فى الهجرات، وبدأوا يعدون العدة، ويهيئون الخطة، لتهويد هذه المدينة، خطوة خطوةً وشبراً شبرا.

بعض الناس يظن أن العرب باعوا أرضهم لليهود، وهذا ليس بصحيح، الذين فعلوا ذلك كانوا قلة، وكان معظمهم من غير المسلمين، ولكن البلدية التى يحكمها البريطانيون استولت على أراضٍ أميرية، واستولت على أراضى الوقف الإسلامى، ومعظم أراضى القدس أراضى وقفية، وسلمتها لليهود.

وحين قامت دولة الكيان الصهيونى (إسرائيل) سنة ١٩٤٨، ودخلت الجيوش العربية السبعة، ودخل الجيش الأردنى القدس، وقسمت المدينة إلى قسمين: شرقية قديمة فيها المقدسات، وغربية حديثة سكانها من المستوطنين اليهود، وكان بينهما حاجز أو سلك شائل.

وهكذا استمر الأمر عاما بعد عام، ومدة بعد مدة، وهم يغيرون الخطط والهياكل لتهويد المدينة، وفى كل مدة يستولون على جزء من القدس، وعلى القرى القريبة من القدس، ويضعون خططا بعيدة المدى، ونحن فى غفلة لاهون، وفى غمرة ساهون. إلى أن حدثت حرب (١٩٦٧م) - النكبة الثانية - حيث استولوا على القدس الأصلية، وبدأ التخطيط لتهويد القدس الشرقية نفسها، التى فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومسجد عمر بن الخطاب وكنيسة القيامة، حتى هذه يهيئون الأسباب الآن لإقامة اليهود واستيطانهم فيها، رغم هذا الإتفاق الذى زعموه (اتفاق السلام)، والذى عارضناه من أول يوم لأنه أجَّل القضايا الخطيرة:

١ - قضية القدس: كأن هذه القضية قضية لا تستحق أن تكون القضية رقم (١) فى جدول الأعمال.

٢ – قضية اللاجئين المشردين فى آفاق الأرض – وهم نحو خمسة ملايين – وحقهم فى العودة إلى ديارهم.

٣ – قضية الحدود، وأين تقف حدود إسرائيل.

٤ – قضية المستوطنات والمستوطنين اليهود.

كيف تؤجل هذه القضايا الكبرى؟!

ولهذا فإن اليهود ينفذون مخططاتهم، ولا يبالون باحتجاج محتج ولا بصراخ صارخ.

تحكم السيف فاسكت أيها القلم تكلّم الذئب فاخضع أيها الحمَل

هكذا، هذا هو الذى يجرى الآن:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

نحن نرى ما يحدث ولا نفعل شيئا، حتى مجرد الصراخ لا نصرخ!

لابد أن نعمل شيئا.

لماذا لا تعقد قمة عربية مكبرة مستوعبة؟

بل لماذا لا تعقد قمة إسلامية؟ الأمر جد خطير ومهم.

حينما أحرق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م تنادى المسلمون، وكان المؤتمر الإسلامى الأول أيام الملك فيصل رحمه الله، وأقيمت منظمة المؤتمر الإسلامى.

الآن المدينة كلها ستضيع، اليهود يستولون على الأرض، ويبنون المستوطنات، ويحفرون تحت المسجد، وقد صنعوا النفق وقتل من قتل فيه.

لماذا لا تعقد هذه القمة؟

لماذا لا يتنادى الناس فى كل مكان؟

لابد أن يتحدث الخطباء، لابد أن يكتب الكُتّاب، لابد أن يبدع الشعراء،

لابد أن تسير المسيرات، لابد أن تعقد الجمعيات اجتماعاتها، لابد أن نعمل شيئا . كيف نسكت على ما يجرى؟ إن ما يجرى والله لأمر خطير.

المسجد الأقصى يضيع بين أيدينا ونحن صامتون متفرجون،

أين هذه الأمة؟ أمة المسلمين.

أمة اليهود تقول وتفعل وتنفذ، ويقول (نتنياهو) : نحن نقرر والفلسطينيون ينفذون ! بل وصل التبجح بهم إلى أن هددوا رئيس السلطة الفلسطينية نفسه بالطرد من فلسطين، ليعيش هائما كما قالوا - بين تونس وبغداد . بل هددوه بالاغتيال وقالوا : إن عرفات ليس دمه مضمونا، كما أن المهندس ليس دمه مضمونا . أى : كما قتل يحى عياش - رحمه الله - يمكن أن يقتل ياسر عرفات .

إنهم يهددون ولا أحد يهددهم بشئ .

أين أمة الإسلام؟

نحن نحيّى كل الصامدين في وجه هذا العدوان : نحيّى سوريا على موقفها الصامد، ورفضها أن تركع لإسرائيل، نحيّى لبنان، ونحيّى تأييده للمقاومة، نحيّى شباب (حماس) فى داخل فلسطين المحتلة، نحيّى شباب (الجهاد)، نحيّى كل من يصمد ويقول: لا .

بعض الناس . . يقول لك : ليس أمامنا شئ ولا فى أيدينا شئ فماذا نفعل؟

نحن نستطيع أن تقول: لا (بملء فينا) (1)، يكفى أن نقف رافضين مقاومين معاندين، لا نستسلم، ولا ندعو إلى السلم، كما قال الله تعالى ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

[محمد : ٣٥]

جزى الله (دولة قطر) خيراً حيث أقامت أسبوعا للقدس، يبدأ فى الأسبوع

(١) وحينما قلنا : (نعم، الأرض مقابل السلام) ماذا أخذنا؟! (القرضاوى).

القادم، نتنادى فيه، ويصرخ كل منا على أخيه أن هبوا للدفاع عن قدسكم.. عن مسجدكم الأقصى.. عن حرماتكم .

لابدأن نقف وقفة الرجال الذين لا يقبلون الهوان، ولا يرضون الذل لأنفسهم، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨]

إن الأمر خطير وخطير جدا، ولا يمكن أن نسكت على هذا، لابد أن نعلن رأينا.. أن نعلن موقفنا.. أن نحدد (من نحن) ؟

نحن لسنا قطيعا من الأغنام يسوقنا اليهود كما يريدون. لا، نحن خير أمة، نحن الأمة (الوسط) التى جعلها الله شهداء على الناس. ولكننا نحتاج إلى القادة، الذين يستطيعون أن يتماسكوا، وأن يقفوا على أرض صلبة .

نسأل الله عز وجل إن يؤيد خطى المجاهدين، وأن يسدد العاملين، وأن يأخذ الظالمين المعتدين، إن أخذه أليم شديد .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم عليك باليهود الغادرين المعتدين، اللهم رد عنا كيدهم، وفلّ حدهم، وأذل دولتهم. اللهم إنا ندرأ بك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم. اللهم نكس أعلامهم، وزلزل أقدامهم، وأنزل عليهم بأسك الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى سبيلك، اللهم أيدهم بملأ من جندك، وأمدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التى لا تنام، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام.

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، واجعل هذا البلد آمنا مطمئناً سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٧].

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

٦ - فوائد البنوك هى الربا الحرام(١)

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

جاء الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاجاً كاملا للحياة: حياة الفرد وحياة الأسرة وحياة الجماعة وحياة الأمة.. بل جاء ليهدى الإنسانية كلها إلى التى هى أقوم ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ [الفرقان: ١] ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

جاء الإسلام رسالة شاملة، وجاء منهاجا متكاملا للحياة، يقيم الحياة على أقوى الدعائم وأرسخ الركائز، حتى ينتشر فيها الحق والعدل والرحمة والإحسان بين الناس، بل هذا هو هدف الرسالات السماوية كلها، كما قال اللهَ تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ [الحديد: ٢٥] والقسط هو العدل، والله يحب المقسطين، ولا يحب الظالمين، ولا يهدى القوم الظالمين.

فى هذا الإطار جاء الإسلام بأصول وأحكام تنظم الحياة الاقتصادية للناس؛ فالمال مال الله والإنسان مستخلف فيه، أى أمين على هذا المال، ونائب عن الله تعالى فى تنميته، وفى الاستمتاع به، وفى الانفاق منه، ليس حر التصرف يفعل ما يشاء، إنه مقيد بتوجيهات المالك الأصلى للمال وهو (الله) يقول الله تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧].

أنت أيها الإنسان فى مالك مستخلف فى مال الله، هذا مال الله عندك،

---

(١) للشيخ القرضاوى – حفظه الله – كتاب بهذا العنوان أصدره ردا على فتوى الدكتور محمد سيد طنطاوى بشأن فوائد البنوك وشهادات الاستثمار يوم كان مفتيا للجمهورية.

وقد تجلت فى هذا الكتاب: دقة الفقيه، وأصالة المفكر، وروح الداعية، فجزاه الله خيرا ونفع المسلمين بما كتب.

وأنت مستخلف فيه، أى موظف عند صاحب المال الأصلى وهو الله تبارك وتعالى.

جاء الإسلام بأحكام كثيرة تنظم المال، ومن أهم هذه الأحكام حكمان أساسيان:

- حكم يتعلق بجانب الأوامر.
- وحكم يتعلق بجانب النواهى.

أما الحكم الأول فهو إيتاء الزكاة، هذا فى قمة الأوامر الإسلامية، ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائمه الخمس، التى بنى الإسلام عليها، كما فى الحديث الصحيح المشهور (١)، هى الدعامة الثالثة، بعد الشهادتين وبعد إقام الصلاة: إيتاء الزكاة.

هذا فى جانب الأوامر.

وفى جانب النواهى والمحرمات جاء تحريم الربا، فهو من الموبقات السبع كما سماها النبى ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» (٢).

وعدَّ منها: أكل الربا وأكل مال اليتيم. فهذا من المهلكات، هى مهلكات للفرد ومهلكات للجماعة، مهلكات فى الدنيا ومهلكات فى الآخرة.

وقد لعن النبى ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه» (٣)

---

(١) الذى رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن عمر رضى الله عنهما: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» (فيض القدير للمناوى: ٣/٢٠٨ برقم ٣١٦٢).

(٢) وتتمة الحديث: «.. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» متفق على صحته من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش: ١/٨٦ برقم ٤٥).

(٣) رواه مسلم وغيره، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما وفى آخره: «وقال: هم سواء» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٥٣٤ برقم ١٠٥٦).

فلسفة الإسلام أنه إذا حرم شيئا حرم كل ما يفضى إليه وكل ما يعين عليه، ليحاصر المنكر والمحرم فى أضيق دائرة ممكنة .

من أجل هذا لعن فى الخمر عشرة [1]، ومن أجل هذا لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه .

آكل الربا : هو الذى يأخذ الفائدة . . المرابى .

ومؤكله : هو الذى يعطى الفائدة .

وجاء القرآن الكريم ليؤكد هذا الأمر أبلغ التأكيد فى آيات من سورة البقرة تعتبر من أواخر ما نزل من القرآن [2] . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا** ﴾ [البقرة: ٢٧٥] هكذا قال الممارون والمجادلون بالباطل من أهل الجاهلية، سواء كانوا من المشركين أم من اليهود الذين كانوا يتعاملون بالربا، وهم أساتذة الربا فى العالم من قديم، حرموا الربا فيما بين بعضهم وبعض، لا يجوز للإسرائيلى أن يعطى جاره الإسرائيلى بربا، ولكن لغير الإسرائيلى يحل له أخذ الربا . هؤلاء أثاروا تلك الشبهة وقالوا : ما الفرق بين البيع والربا؟ أنت بالبيع تأخذ وتعطى، وتكسب ربحا، وفى الربا تأخذ وتعطى وتكسب فائدة، ما الفرق بين هذا وذاك ؟ حتى إنهم جعلوا الربا أصلا، لم يقولوا : الربا مثل البيع بل قالوا : إنما البيع مثل الربا!

وجاء الرد الإلهى القرآنى حاسما قاطعا كحد السيف، قال : ﴿ **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾ [البقرة ٢٧٥] والله لا يحل إلا طيبا، ولا يحرم إلا خبيثًا . فلا

---

(١) فى الحديث الذى رواه أبو داود والحاكم وصححه عن ابن عمر رضى الله عنهما : «لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها» ورواه ابن ماجة عن أنس، قال المنذرى :

ورواته ثقات (فيض القدير للمناوى : ٥ /٢٦٧ - ٢٦٨ برقم ٧٢٥٣) .

وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥٢ برقم ١٤٠٠، ١٤٠١) .

(٢) انظر الآيات : ٢٧٥ - ٢٨١ .

كلام لمتكلم، ولا تأويل لمتأول، ولا تمحل لمتمحل ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٦] يمحو البركة منه، حتى وإن كثر « الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل » (١) وكم رأينا من المرابين والمتعاملين بالربا من زاد ماله وزاد، ثم أخذه الله عز وجل. الربا فى ظاهره زيادة ولكنها زيادة ممحوقة لا بركة فيها، كثيرا ما تؤثر عليك فى نفسك. . فى صحتك. . فى أهلك. . فى أولادك الذين يتربون من مال الربا، فلا يبارك الله تعالى فيهم. ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩] ، الربا زيادة فى الظاهر ونقص فى الباطن، والزكاة والصدقة نقص فى الظاهر وزيادة فى الباطن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ يضاعف الله أموالهم، ويضاعف لهم أجرهم بعد ذلك.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وهذا إشارة إلى المرابى، فهو مبالغ فى الكفر مبالغ فى الإثم.

ثم يقول الله تبارك وتعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٢٧٨] كل ما بقى من الربا من عهد الجاهلية ، قل أو كثر.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٩] هى حرب قدرية وحرب شرعية، ولا يمكن أن ينتصر من يحارب الله ورسوله، إن الله سيغلبه، من حارب الله ورسوله هو المغلوب وهو المهزوم.

---

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود وصححه وأقره الذهبى ورواه عنه أيضا البزار، ورمز له السيوطى بالصحة (فيض القدير للمناوى: ٤ / ٥٠ برقم ٤٥٠٥) وروى ابن ماجه عن ابن مسعود:« ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل» (كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى: ١ /٤٢٢ - ٤٢٣ برقم ١٣٥٤) . والمراد من قوله «إلى قُلّ»: أنه يؤول إلى نقص ومحق آجلا بما يفتح على المرابى من المغارم والمهالك. وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب:٢ / ٥٣٥ برقم ١٠٦٣).

﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ لم يجئ فى معصية من المعاصى ولا فى كبيرة من الكبائر ما جاء فى الربا، لم يجئ فى الزنى ولا فى شرب الخمر ما جاء فى هذا الأمر.

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٩]: وهذا إشارة إلى أن ما زاد على رأس المال بغير عوض مقابل الأجل وحده – لا بيع ولا شراء ولا تجارة – فهو ظلم وهو ربا.

يقول بعض الناس: كيف يكون الربا ظلما وأنا آخذه برضاى؟! أنا متفق مع البنك أن آخذ المائة وأردها إليه مائة وعشرة، آخذ الألف وأردها إليه ألفا ومائة. فلماذا يكون هذا ظلما؟! ونقول لهؤلاء: و هل يتصور فى الربا إلا أن يكون بالتراضى؟! هل كان الربا فى وقت من الأوقات بالقهر؟ الناس كانوا يذهبون إلى المرابى، ويكادون يقبلون يده أو رجله ليعطيهم، وكان كثيرا ما يتدلل المرابى عليهم، يريدون منه ألفا ويعطيهم خمسمائة أو سبعمائة.

الربا دائما بالتراضى، ولكن التراضى لا يحل الحرام. أإذا زنى رجل بامرأة بتراضيهما أيكون ذلك حلالا؟! التراضى لا يحل الحرام، ولا يجعل المنكر معروفا، إنه تراض على الباطل.

إن الإسلام حرم الربا لحكم كثيرة. من هذه الحكم التى أكتفى بالنص عليها الآن:

أن المال فى نظر الإسلام لا يزيد ولا ينمو وحده، النقود لا تلد نقودا، والمال بطبيعته لا يلد المال، إنما المال يزيد بالعمل، الألف وحدها لا تصبح ألفا ومائتين، والمائة لا تصبح مائة وعشرين ما الذى يجعل المائة مائة وعشرين، والألف ألفا ومائتين؟ العمل، أن تعمل فتزيد المال.

ولكن ليس كل الناس قادرا على العمل، أنا مدرس وأعمل بالتدريس وقد أدخر شيئا من المال، فماذا أفعل فى هذا المال؟ إذا لم تستطع أن تعمل فما الحل؟ هنا يجوز لك أن تعطى غيرك المال ليتجر لك به، أو ليعمل به مشروعا، وبذلك تكونان شريكين: أنت بمالك وهو بجهده وخبرته، وبهذا يتعاون رأس المال والعمل معاً.

ولكن هنا يقول الإسلام لك: ما دمت قد شاركت هذا الآخر الذى نسميه (المضارب) وأنت (رب المال)- فكن شجاعا، وكن على خلق، وتحمل مسؤولية المشاركة. لقد صرتما شريكين، ومقتضى المشاركة أن تتحملا المسؤولية معا، فإذا ربحتما ربحتما معا، وإذا خسرتما خسرتما معا.

إذا ربحتما كثيرا نال كل واحد منكما من هذا الكثير بالنسبة المتفق عليها حسب ما تتفقان: أنت $\frac{١}{٤}$ وهو $\frac{٣}{٤}$، أنت النصف وهو النصف أنت ٩٠٪ وهو ١٠٪، فالربح بينكما على ما اتفقتما عليه.

والخسارة على رأس المال، إذا خسرت الشركة بدون تقصير ولا تعدّ من المضارب، إذا ثبت أنه قصر أو تعدى فهو الذى يتحمل الخسارة، أما إذا كانت هناك أقدار قاهرة، وأشياء لم تكن فى الحسبان، وأدت إلى خسارة رأس المال - فهنا يخسر صاحب المال ماله أو جزءاً من ماله، ويخسر الآخر جهده. ما بذل من جهد طوال العام قد خسره، وليس المال أهم من جهد الإنسان.

هذا هو مقتضى العدل المحكم الذى جاء به الإسلام.

مقتضى ما جاء به الإسلام، أن تتحملا الغرم والغنم معاً، أن تتحملا الربح والخسارة معاً.

أما أن تحدد الربح من الأصل وتقول: أنا آخذ المال منك، وأعطيك فى كل سنة عن المائة (عشرة) أو عن المائة (عشرين) فهذا لا يجوز. ما يدريك أنك ستكسب؟ قد تظن أنك تكسب ولكنك تخسر، هذه ليست العدالة المنشودة.

العدالة المحكمة التى جاء بها الإسلام: أن تتحملا الغرم والغنم معا، وهذا بإجماع العلماء.

فى المضاربة: (لا يجوز تحديد شئ لأحد الطرفين دون الآخر) لابد أن يدخلا على نسبة مشاعة، هذا بالإجماع.

وهذا الإجماع له سند من النصوص، ففى مزارعة الأرض نهى النبى ﷺ أن

يشترط لأحد الطرفين ثمرة أرض معينة أو قطعة أرض معينة، قنطار أو إردب معين أو نحو ذلك [1] ما يدريه قد يسلم هذا أو يتلف ذلك، وقد تثمر تلك القطعة من الأرض دون غيرها، وقد يحدث عكس هذا، فيكون لأحد الطرفين غنم لا يشاركه فيه الآخر، أو يكون عليه غرم لا يشاركه فيه الآخر.

فهذا هو الأصل النصى لمنع اشتراط شئ لأحدهما فى المزارعة، والمزارعة كما قال الإمام ابن قدامة - مضاربة فى المعنى، نعم المزارعة مضاربة فى الأرض، والمضاربة مزارعة فى المال، الذين يريدون للمال أن يكسب ولا يخسر، وأن يزيد ولا ينقص، هؤلاء يريدون الخروج على سنة الله فى الكون كله. ليس هناك شئ فى هذا العالم غير قابل للنقص، كل شئ.. كل نعمة قابلة لأن تنقص وأن تذهب، الصحة قابلة للمرض، الصحيح قد يمرض، الشباب قابل للشيخوخة، الشاب تعتريه الشيخوخة، القوى تطرأ عليه ظروف الضعف، الحى قد يأتيه الموت فى أى لحظة. فهل المال أهم وأغلى من الحياة.. من الصحة.. من الشباب.. من القوة؟؟

لماذا يراد للمال أن يظل كما هو ولا ينقص أبدا؟ لماذا يراد للمائة أن لا تنقص؟ تصبح مائة وعشرة أو مائة وخمس عشرة، أما أن تكون أقل، فلا، لم هذا؟ هذا خروج عن سنة الحياة.. عن فطرة الكون. فهؤلاء المرابون خارجون عن الفطرة، خارجون عن الدين.

ولهذا فإن الربا أمر لاشك فى تحريمه، وهذا ما سار عليه المسلمون طوال ثلاثة عشر قرنا، منذ بعث الله محمداً ﷺ، وأقر فى الناس الحق، وأقام العدل،

---

(١) عن رافع بن خديج قال: «كنا أكثر الأنصار حقلا، فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه، ولم تخرج هذه، فنهانا عن ذلك..» أخرجه البخارى ومسلم. وفى لفظ: «كنا أكثر أهل الأرض مزروعا كنا نكرى الأرض بالناحية منها تسمى لسيد الأرض قال: فربما يصاب ذلك وتسلم الأرض، وربما تصاب الأرض ويسلم ذلك، فنهينا...» رواه البخارى. انظر: (نيل الأوطار للشوكانى: ٦/ ١١) :(باب فساد العقد إذا شرط أحدهما لنفسه البقعة أوبقعة بعينها ونحوه).

وجاء بعده الراشدون، وجاءت بعده الدول المختلفة، منهم من استقام على الإسلام، ومنهم من انحرف عنه، ولكن بقيت هناك أشياء قطعية لا مجال لجدال فيها، من هذه الأشياء: تحريم الربا.

لم تجئ دولة من دول الإسلام طوال التاريخ: لا فى العهد الأموى، ولا فى العهد العباسى، ولا فى عصر المماليك، ولا فى العهد العثمانى، ولا فى أى عصر من العصور، لتقول بإباحة الربا، أو إباحة شرب الخمر، أو إباحة الزنى، لم يحدث هذا، هذه أمور مقطوع بها فى دين الله.

لم يعرف المسلمون إباحة الربا إلا فى عصر الاستعمار. عندما جاءنا الاستعمار الغربى وأجلب علينا. بخيله ورجله، واحتل ديارنا، وأصبح هو المتحكم في رقابنا، وهو الذى يسوس تعليمنا، ويسوس اقتصادنا، ويسوس كل أمورنا، وأصبح التشريع في يده، وأصبح القانون فى يده، وأصبح الاقتصاد فى يده، وأصبحت الثقافة في يده، فأصبح يكيف حياتنا وفقا لفلسفته هو، لا لفلسفتنا نحن، فأحل ما حرم الله، وحرم ما أحل، وأسقط ما أوجب الله، وشرع ما لم يأذن به الله.

ومن أجل هذا عرفت المجتمعات الإسلامية لأول مرة حل (الربا) وقامت البنوك الحديثة هذه، وهى جزء من أجزاء المجتمع الرأسمالى، الرأسمالية الغربية لها أدوات، ومن أهم هذه الأدوات: البنوك. إن الرأسمالية تقوم على ساقين: الاحتكار، والربا. والربا يتمثل فى هذه البنوك.

ما هى مهمة البنوك؟

مهمة البنوك أن تستقرض بالربا وتقرض بالربا. يعنى: أنت عندك فائض من الأموال، فتذهب وتعطى البنك وديعة ربوية، تعطيه (المائة) فيعطيك (عشرة) على المائة، فإذا ذهبت وأنت محتاج لتستقرض من البنك فيعطيك بخمسة عشر أو بثلاثة عشر، والفرق بين النسبتين، هو ربح هذا البنك.

هذا هو البنك، عمله الأساسى المتاجرة فى الربا، ليس عمله الأساسى أن يصنع ويزرع ويستثمر، وليس هذا هو عمل البنك التجارى التقليدى.

الذين يقولون: إن البنك يستثمر أموال الناس، يضللون الناس. هذا ليس عمل البنك، البنك عمله (دائن ومدين). حتى الكشف الذى يأتى الإنسان من البنك قائم على هذا الأساس (دائن ومدين)، ليس هناك عمل لهذا البنك فى أمور استثمارية، لا. فهذا البنك هو المرابى الأكبر، هو سمسار الربا الأعظم، يأخذ الأموال بفوائد، ويعطيها بفوائد أكثر، ويربح من هذا الفرق.

هذه الفوائد التى تأخذها البنوك، أجمع المسلمون أنها هى الربا المحرم شرعا،لم يقل بذلك عالم أو اثنان أو ثلاثة، وإنما قالت ذلك مجامع فقهية قائمة على الاجتهاد الجماعى، وأول مجمع صرح بذلك وقرره بوضوح هو (مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر)، وذلك فى سنة (١٩٦٥م). كان مجمع البحوث الإسلامية برئاسة الشيخ حسن مأمون العالم الكبير المعروف رحمه الله، وكان فيه ممثلون لخمس وثلاثين دولة إسلامية، وفيه من فطاحل العلماء المعروفين أمثال: الشيخ محمد أبو زهرة.. الشيخ فرج السنهورى.. الشيخ على الخفيف.. الشيخ محمد السايس.. الدكتور محمد البهى.. الشيخ نديم الجسر، وغيرهم وغيرهم من علماء العالم الإسلامى أجمع هؤلاء بصريح العبارة: أن فؤائد البنوك هى الربا الحرام، وعلى البلاد الإسلامية أن تحاول إقامة بدائل عن هذه البنوك.

ثم جاء المجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى بمكة، وأكد ما قرره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

ثم جاء مجمع الفقه الإسلامى المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامى وأكد ما قرره المجمعان السابقان.

وجاء المؤتمر العالمى الأول للاقتصاد الإسلامى الذى عقد فى مكة المكرمة سنة (١٩٧٦م)، وكان فيه أكثر من ثلاثمائة عالم جاؤوا من أنحاء العالم ما بين علماء شريعة وعلماء اقتصاد وعلماء محاسبة، وقرروا بالإجماع أن الفوائد هى (الربا الحرام).

وأشهد أنى حضرت هذا المؤتمر، وكان رجال الاقتصاد أشد حماسا لتحريم الربا من رجال الفقة.

وجاء المؤتمر العالمى الأول للفقة الإسلامى المنعقد فى الرياض ومؤتمر الدعوة المنعقد بالمدينة المنورة، ومؤتمرات المصارف الإسلامية التى انعقدت فى دبى، وفى الكويت، وفى القاهرة، وفى استانبول ، وفى غيرها من البلاد، كلها تؤكد أن الفوائد هى (الربا الحرام) .

هذا أمر لم يعد هناك خلاف فيه .

وقلنا : الحمد لله استراح المسلمون، وأغلقوا هذا الملف .. ملف الفوائد والربا .

كنا فى أوائل هذا القرن، حينما ابتلينا بالهجمة الاستعمارية الغربية، التى أحلت الحرام، وجعلت المنكر معروفا، حدث هناك خلاف بين بعض العلماء :

فى فترة من الفترات قال من قال : يجب أن نسير وراء المجتمع الغربى نأخذ الحضارة الغربية، بخيرها وشرها وحلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ودعوا إلى ذلك بصراحة .

ثم جاء آخرون – وكانوا أهون من هؤلاء – وحاولوا أن يبرروا الواقع، وقالوا : نحن نحاول أن نبرر ما نستطيع تبريره من الحضارة الغربية . كان همهم تبرير الواقع لا محاولة التحرر من الواقع الدخيل عليهم . حاولوا أن يستسلموا للواقع وأن يبرروه، بماذا يبررونه؟ بتأويلات وتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، يحاولون بها أن يسندوا هذا الواقع الدخيل على الأمة، أرادوا أن يُلبسوا الخواجة الأوربى عمامة شيخ مسلم!

قالوا : إن ربا الجاهلية غير الربا الحاضر .

وربا الجاهلية هو نفسه (الربا الحاضر) . إنك تأخذ المال فى مقابلة الأجل، وليس هناك أى عمل ولا أى جهد، وهو الربا الموجود فى العالم كله، هذا هو الربا .

قال بعضهم : إن الربا المحرم هو ربا الاستهلاك وليس ربا الانتاج . ربا

الاستهلاك : من يستدين منك أو يستقرض منك ليأكل أو يشرب أو يلبس، أما ربا الإنتاج: فهو الذى يريد أن يتاجر ويستثمر، قالوا: هذا لا دخل له بالربا!!

وهذا ليس بصحيح. الإسلام حينما جاء حرم الربا كله، سواء كان للتجارة أم كان للاستهلاك، وهل كان العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وهو ممن كان يرابى فى الجاهلية - إذا أتاه رجل يريد أن يأكل يقول له: لا أعطيك إلاإذا دفعت لى كذا؟! وهو الذى كان يسقى الحجيج كل الحجيج على حسابه.

وقال بعضهم: إن الربا المحرم هو ربا الأضعاف المضاعفة، الله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وجميع المفسرين من جميع المدارس والمذاهب اتفقوا على أن هذا القيد لبيان الواقع. يعنى أنهم كانوا يأكلون الربا حتى يبلغ أضعافا مضاعفة (الربا المركب) فهذا هو الذى نهى عنه. لكن ليس معنى هذا أنه لا يحرم إلا الأضعاف المضاعفة، لأنه لوصح هذا لكان الربا لا يحرم إلا إذا كان ستمائة فى المائة (٦٠٠٪)! لأن كلمة (أضعاف) جمع، وأقله ثلاثة، فإذا ضاعفناها - ولو مرة واحدة - تصبح ستة أضعاف. فهل الربا لا يحرم إلا إذا كان ستة أضعاف؟ هل هذا معقول؟

فهؤلاء الذين حاولوا أن يبرروا الربا فى أوائل هذا القرن، سقطت كل شبهاتهم، ولم يبق منها شئ، واستطاع المسلمون أن يتحرروا من هذه العقد، وأن يجمعوا على تحريم الربا، سواء كان للاستهلاك أم للإنتاج، قليلا كان أم كثيرا.

الربا هو الربا، الإسلام إذا حرم شيئا حرم قليله وكثيره كما فى الخمر. يريد أن يفطم الناس عن الحرام، وأن يسد الباب إلى الحرام بالكلية.

فهذا ما جاء به الإسلام.

فى أول الأمر كانت هناك هذه التبريرات ، ثم جاءت بعد ذلك صحوة، وقام وعى إسلامى، وعاد كثيرون إلى الإسلام، وإلى كنوزه يكتشفونها ويعرفون أسرار هذه الشريعة. من هؤلاء من هم من رجال الفقه، ومنهم من هم من رجال

الاقتصاد، ورجال القانون والمالية، فوقفوا وبينوا أخطار الربا وما وراءه، من أزمات.

حتى الغربيون أنفسهم قالوا: إن الربا وراء أزمات الكساد، وأزمات الاقتصاد فى العالم، ولا يمكن أن يتخلص العالم من هذا إلا إذا أصبحت الفائدة صفرا، ومعنى أن تصير (صفراً): تلغى.

جاء رجال من رجالات المسلمين، وكتبوا فى ذلك كتابات رائعة: الدكتور محمد عبد الله العربى أستاذ المالية بجامعة القاهرة، الدكتور عيسى عبده إبراهيم أستاذ المحاسبة، الدكتور محمود أبو السعود أستاذ الاقتصاد، الدكتور أحمد النجار..... وكثيرون من رجال الاقتصاد.

ثم رجال الشريعة بعد ذلك كتبوا فى هذا الأمر وبينوا: لماذا حرم الله الربا؟ وأنه لابد للأمة أن ترفض الربا، حتى لا تأذن بحرب من الله ورسوله، ولا تصاب فى أنفسها وأبنائها وأموالها وحياتها كلها، فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول: «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله» [1] ظهور الزنى دلالة على فساد الناحية الاجتماعية، وظهور الربا دلالة على فساد الناحية الاقتصادية، فإذا اجتمعت العلتان ضاعت الأمة «**فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله**».

وجاءت بعد ذلك مرحلة أخرى: هى مرحلة إيجاد البدائل. الناس قالوا: حرمتم علينا الربا ولكن ماذا نفعل؟ ألا يوجد بديل لهذا الأمر؟ وقال لهم أهل العلم: لا يوجد شئ حرمه الله إلا وفى الحلال ما يغنى عنه، لا يمكن أن يحرم الله على الناس شيئا يضطرون إليه، نستطيع أن نقيم بنوكا لا تتعامل بالفائدة.

قالوا: هذا مستحيل، الاقتصاد عصب الحياة، والبنوك عصب الاقتصاد، والفائدة الربوية عصب البنوك، فلا تحلموا ببنوك بلا فائدة.

ولكن هذا الحلم تحقق، وقامت البنوك الإسلامية، قام أول بنك فى العالم

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب ٢ / ٥٣٥ برقم ١٠٦١).

الإسـلامى فى (دبى) : بنك دبى الإسـلامى . وقـام بعـد ذلك : بنك فـيـصل الإسلامى المصرى . . بنك فيصل الإسلامى السودانى . بيت التمويل الكويتى . . البنك الإسلامى الأردنى . . . إلخ .

واتسعت البنوك الإسلامية فى انحاء العالم الإسلامى وهنا فى قطر بنكان إسلاميان ، وكان هذا أثرا من آثار الصحوة الإسلامية المعاصرة .

الصحوة المعاصرة كان لها آثارها فى الحياة كلها : آثارها فى التعليم ، آثارها فى الفكر والثقافة ، آثارها فى التشريع ، آثارها فى الناحية الاقتصادية . وكان من أهم هذه الآثار فى الناحية الاقتصادية : ظهور البنوك الإسلامية التى لا تتعامل بالفائدة . وظهور بيوت الزكاة وصناديق الزكاة ، وظهور مؤسسات مالية وشركات لا تتعامل بالربا .

وقلنا : الحمد لله ، أصبح أمام المسلم فرصة ليجد البديل عن الحرام ، حتى لا يطعم لقمة من حرام ، ولا يدخل جيبه ولا رصيده فى البنك درهم من حرام ، ولا يطعم أولاده من حرام ، ولا يربيهم من حرام . كان هذا من فضل الله تبارك وتعالى .

ثم وجدنا ـ للأسف من يفتح هذا الملف الذى أغلق ، ويعود فيثير الشبهات القديمة التى فرغ العلماء منها ومن الرد عليها ، ليقول : الفوائد حلال . بل أكثر من ذلك يهاجم البنوك الإسلامية ، البنوك التى تقوم على أساس من شريعة الإسلام ، وهى نعمة من الله تبارك وتعالى .

كيف تهاجم بنوكا قامت على أساس من أحكام الإسلام ، واستقبلها المسلمون فى أنحاء العالم بالترحاب ، ويشرف عليها علماء من أجلة العلماء فى العالم الإسلامى كله ؟!

لا أدعى أن البنوك الإسلامية معصومة من الخطأ ، لا ، ليس هناك عصمة ، هناك أخطاء فى البنوك الإسلامية ، تقل فى بنك وتكثر فى بنك آخر ، ومن أحسن البنوك الإسلامية : البنوك التى فى (قطر) ، لأن فيها رقابة شرعية وتدقيقا شرعيا

داخليا إلى حد كبير، وهناك بنوك أشد التزاما مثل: بنك (التقوى) فى (سويسرا).

هذه البنوك قامت على أساس من الإسلام، فكيف يأتى عالم مهما بلغ منصبه يهاجم هذه البنوك الإسلامية، ويطالب بإلغائها؟!

لقد خطونا خطوة إلى الأمام، وهو يريد منا أن نتأخر إلى الوراء؟!

البنوك الربوية نفسها أرادت أن تجارى هذه البنوك الإسلامية، وفتحت فروعا للمعاملات سموها (فرع المعاملات الإسلامية) فى البنوك الربوية. هم أنفسهم يعرفون أن بنوكهم ليست إسلامية، وهو يقول: لا، بنوككم إسلامية، رغما عنكم يا معشر البنكيين، ويا معشر المصرفيين!!

ويقول: إن من لا يحدد الربح أنا ضده!! لا يجوز أن لا نحدد الربح!! يجب أن نحدد الربح!! على خلاف ما أجمع عليه علماء الأمة طوال تاريخهم، أجمعوا على أن تحديد الربح لأحد الطرفين لا يجوز.

هذه فتنة أيها الإخوة – نسأ الله السلامة منها.

ولكن الذى أقوله: أنه ليس عندنا (بابوات)، ليس عندنا (بابا) معصوم: ما يحلّه فى الأرض فهو محلول فى السماء، وما يعقده فى الأرض فهو معقود فى السماء، كل عالم عندنا قابل للخطأ، كل أحد يؤخذ من كلامه، ويترك إلا النبى ﷺ، وخصوصا إذا جاء هذا العالم معارضا لعلماء الأمة كافة.

هل يستطيع شيخ الأزهر أن يجمع مجمع البحوث الإسلامية بعلمائه من مختلف البلاد، وينظر فى هذه القضية، ويصدر رأيا باسم المجمع يلغى ما أصدره سنة (١٩٦٥م) من أكثر من ثلاثين عاما؟ هل يستطيع أن يلغى القرار السابق لمجمع البحوث بقرار جديد يقول فيه: إن فوائد البنوك حلال وليست كما قرر المجمع القديم؟

هل يستطيع هذا؟

نحن نقول: إن كل عالم يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ، فهو الذى لا ينطق عن الهوى، وهوالمعصوم من كل خطأ.

إننا نأسف أشد الأسف أن يقع بعض علماء الأمة فى مثل هذا الأمر... فى مثل هذا الخطأ الجلل، فيحل مثل هذا الحرام الصريح وهذا المنكر الخبيث.

ونسأل الله تبارك وتعالى أن يتوب على كل من انحرف عن الطريق القويم، وأن يهدى الضالين، وأن يردهم إلى الصراط المستقيم، إنه سميع قريب.

أقول قولى هذا، واستغفر الله تعالى لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيها الأخوة المسلمون:

من أعظم ما يتقرب به المسلمون إلى الله: (تعليم القرآن وتعلمه) كما قال النبى ﷺ فيما رواه البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (١) .

ومن هنا ينبغى أن نحرص على تعليم أولادنا القرآن الكريم، أو ما تيسر منه على الأقل، وقد أحسنت وزارة الأوقاف فى أن فتحت كثيرا من المساجد لتعليم القرآن، وأقامت مراكز لتحفيظ القرآن الكريم، ومنها هذا المسجد (٢) .

فشجعوا أبناءكم على هذا الأمر،عسى أن يكون القرآن شفيعا لكم ولهم إن شاء الله يوم القيامة.

وهناك بعد الصلاة توزيع جوائز على الفائزين فى مسابقة القرآن الكريم.

اللهم أكرمنا ولاتهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

---

(١) رواه البخارى والترمذى عن على رضى الله عنه، ورواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن عثمان رضى الله عنه (فيض القدير للمناوى :٣/ ٤٩٩ برقم ٤١١١).

(٢) مسجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالدوحة.

٧ - توضيح الحق فى فوائد البنوك [١]

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

من أكره الأشياء إلى نفسى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنى أكره التكرار، لا أحب أن أكرر نفسى، ولا أن أكرر غيرى، ولا أن أضيع الأوقات فى توضيح الواضحات، وتحصيل الحاصلات، ونشر النشارة، كما يقولون. وقديما قالوا: توضيح الواضحات من المشكلات.

الأمر الثانى: أنى أكره الجدل العقيم الذى لا يأتى بنتيجة، والذى يظل كل امرئ بعده متمسكا برأيه، متعصبا لما ذهب إليه، فهذا لا فائدة فيه، وقد قال النبى ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» [٢] ثم تلا قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] أى شديدو المجادلة، وهذا وصف لقريش فى جاهليتهم.

الأمر الثالث: أنى أكره تتبع المخالفين لى والرد عليهم، فإن الأعمار أضيق وأنفس من أن تضيع فى مثل هذا، ولو أن الإنسان تتبع كل كلمة تقال عنه، أو كل رأى يقال فى حقه، لقضى عمره فى تتبع هذه الأمور، ولكنى أشغل نفسى أبدا ببيان الحقائق، أكثر مما أشغلها بالرد على الأباطيل.

ومن أجل هذا استكرهت نفسى على موضوع اليوم الذى أحدثكم فيه، وهو ما يتعلق بفوائد البنوك، لأنى سبق أن ألقيت خطبة فى هذا الموضوع [٣]

---

(١) ألقيت فى جامع (عمر بن الخطاب) بالدوحة، يوم الجمعة ٤ / ١٢ / ١٤١٧هـ الموافق ١١ / ٤ / ١٩٩٧م.

(٢) رواه أحمد، والترمذى وقال: حسن صحيح، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبى، وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير، عن أبى أمامة (فيض القدير: ٥ / ٤٥٣ - ٤٥٤ برقم ٧٩٣٤).

(٣) انظرها فى هذا الجزء (ص ٧٩).

ولا أحب أن أكرر هذه الخطبة – وأنا ألفت كتابا فى هذا الموضوع تحت عنوان: (فوائد البنوك هى الربا الحرام) [1]، وطبع منه عشرات الآلاف والحمد لله.

ولكن الأمر إذا أصبح ظاهرة للتشكيك فى المسلّمات وتحويل القطعيات إلى محتملات، أصبح الأمر يقتضى الرد، ويقتضى الوقوف بحزم أمام هذه الظاهرة المرضية الخطيرة والفتنة الفكرية الجسيمة، التى تريد أن تحويل المحكمات إلى متشابهات، والقطعيات إلى ظنيات، والإجماعيات إلى خلافيات، فأصبحنا نشكك فى الأمور البدهية فى أحكام الدين، ليس هذا فى أمر ولا فى أمرين، ولا فى حكم ولا فى حكمين.

رأينا من يشكك فى ميراث الذكر والأنثى من الأولاد، وهو قطعى فى كتاب الله: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١١].

رأينا من يشكّك فى إباحة تعدّد الزوجات.

رأينا من يشكّك فى وجوب قوّاميّة الرجل على الأسرة ومسؤوليّته عنها.

رأينا من يشكّك فى تحريم الخمر، ويقول: إن الله لم يحرّمها، ولكن قال: (فاجتنبوه)[2]!

رأينا من يشكّك فى حرمة الخنزير، ويقول: إنّ الخنزير الذى حُرّم لم يكن مثل خنزير زماننا، إنّها كانت خنازير تأكل القاذورات، أمّا خنازير اليوم فهى خنازير حديثة (مُودرن) تُربى تحت إشراف صحّى!

رأينا هذا ورأينا هذا كلّه.

---

(١) وقد طبعته (دار الصحوة) بالقاهرة (ودار الوفاء) بالمنصورة عام ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م. ومكتبة وهبة بالقاهرة، وطبعة أكثر من مصرف إسلامى، ليوزع مجانًا. ثم طبعه (المكتب الإسلامى) طبعة خاصة على نفقة (مصرف قطر الإسلامى) عام ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م. وقد لاقى الكتاب قبولا عظيما ورواجا كبيرا، وكان له صداه القوى فى إبلاغ هداية الله، وإسماع صوت الحق، وكشف الزيف، والرد على الشبهات والأباطيل، والحمد لله رب العالمين.

(٢) فى قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠].

وأبرز ما تجلّت فيه هذه الظاهرة مسألة: الربا.. الفوائد الربويّة.

هناك من يُشكّكون في تحريم الفوائد الربوية!

والمدهش أنّهم يدخلون عليك مدخلاً عجيبا، يقولون: لا، نحن لا نشكّك في تحريم الربا، الربا حرام، وكبيرة من الكبائر، وملعون على لسان محمّد ﷺ، ومن أنكر حرمة الربا فهو كافر مرتد مارق من دينه. ولكن نقول: إنّ الفوائد ليست من الربا! كمن يقول لك: أنا لا أشكّك في حُرمة الخمر، الخمر حرام، الخمر أمّ الخبائث، الخمر إحدى الكبائر، ولكنّي أقول: الشمبانيا ليست من الخمر، والكونياك ليس من الخمر، والويسكي ليس من الخمر!!

ما قيمة هذا الكلام؟

إنّه كلام خطير، يضلّل الناس، ويموّه الحقائق.

وهذا ما أنكرته على برنامج (قضايا وآراء)[1]، وهو من أحبّ البرامج إلى نفسي، وقد شاركت فيه أكثر من مرّة في قضايا عدّة، لأنّه يطرح الرأي وضدّه، وأنا من أنصار الحوار، ومن أنصار حرّيّة الرأي، ولست مستبداً بشيء.

ولكن هناك أشياء يبدو فيها القصد إلى التمييع.

قبلت من الإخوة مرّة ومرّتين أن يناقشوا هذا الأمر، وقلت لهم على رأس هذا المنبر: يكفي هذا، ولكنّهم لم ينتصحوا، وجاءوا بحلقة ثالثة، فما المقصود من هذا كلّه؟

وماذا يقول هؤلاء الذين أتوا بهم؟

لم أسمع شيئاً ذا بال.

أنا أعيب على هذا البرنامج أمرين أساسيين يتعلّقان بالمنهج:

الأمر الأوّل: أنّهم يناقشون قضايا علميّة فقهيّة دقيقة على الرأي العام، كلّ من هبّ ودبّ يشارك فيها، وهذا خطأ منهجي. مثل هذه الأمور تُناقش في حلقات علميّة فقهيّة بين أهل العلم والفقه.

(١) الذي كانت تقدّمه إذاعة قطر ظهر كلّ يوم خميس، مدة من الزمن.

حينما طلبوني في أوّل حلقة لأناقش في هذا الأمر اعتذرت لهم، وكان اعتذاري، لأني ذاهب إلى مصر بدعوة من صديق لي ولشيخ الأزهر، لنناقش هذا الموضوع في حلقة ضيّقة يحضرها عدد محدود من أهل الفقه، وأهل الاقتصاد، وأهل البنوك الربويّة والإسلامية.

وعلى الرغم منّي وأنّي قلت له: ما أظنّ أنّ هذا سيفيد قال: علينا أن نعذر إلى الله ونؤدّي واجبنا، وذهبت إلى مصر في اليوم الأوّل للحلقة الأولى في برنامج (قضايا وآراء)، وانتظرنا أن يحضر الشيخ الأكبر، ولكنّه اعتذر لأسباب عنده[1].

المهمّ أنّ معالجة هذه الأمور يجب أن تكون في حلقات علميّة وفقهيّة واقتصاديّة للخبراء والعارفين بهذه الأمور، ولا يُطرح هذا على الملأ.

هذا هو الخطأ المنهجي الأوّل.

والخطأ المنهجيّ الثاني: هو انتقاء أناس معيّنين، عُرفوا بالشذوذ عن إجماع فقهاء الأمّة، والبرنامج يبحث عن هؤلاء بإبرة حتى يأتي بهم، ويعطيهم الوقت الطويل، ويأتي ببعض النّكرات ويقول: الأستاذ الكبير، والفقيه العظيم، إلى آخره، ثمّ إذا جاءه من يردّ عليه يقول له: أمامك ثلاث دقائق.. خمس دقائق!

سبحان الله، أين العدل؟!

هذا خطأ منهجي.

إذا أردت أن تناقش هذا الأمر على الملأ ولا بدّ، فهات من أهل العلم والفقه في أنحاء العالم الإسلامي، ممّن شاركوا في المجامع الفقهيّة، التي أجمعت على أنّ فوائد البنوك هي الربا المحرّم شرعاً، وهذا قلته من قبل.

---

(١) كان الذي أعدّ ورتب لهذا اللقاء هو صديقنا الشيخ صالح كامل، وكان في بيته في القاهرة، ودعى إليه عدد محدود أذكر منهم الدكتور عبد العزيز حجازي، والدكتور حسين حامد حسان، والدكتور عبد الرحمن يسري، والفقير إليه تعالى، وبعض رجال البنوك التقليدية، ولما حضرنا عند الشيخ صالح أبلغنا باعتذار الإمام الأكبر. (القرضاوي)

مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر منذ سنة ١٩٦٥ م، والمجمع الفقهى لرابطة العالم الإسلامى، ومجمع الفقه الإسلامى المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامى، ومؤتمرات الاقتصاد الإسلامى، ومؤتمرات الفقه الإسلامى، ومؤتمرات الدعوة الإسلاميّة، كلّ هذه أجمعت – بعلمائها وفقهائها واقتصاديتّها ومحاسبيها – على أنّ فوائد البنوك هى الربا الحرام.

بل قلت: إنّنا كنا فى مؤتمر اقتصادىّ عالمى، وقد شارك فيه نحو ثلاثمائة من رجال الاقتصاد فى العالم، ومعظمهم جاءوا من أمريكا ومن أوربّا، وكان رجال الاقتصاد أشدّ حماساً لتحريم الربا من رجال الفقه والشريعة !

ماذا قال هؤلاء الذين جاء بهم البرنامج ؟

قالوا كلاماً عجيبا .

لا أريد أن أتعرّض لكلام شيخ الأزهر، فهو لم يقل شيئاً جديدا، وطلب أن يُعرض الأمر على لجنة تبحث فيه، وهذا أمر طيّب يُحمد له.

ولكن هو زعم أنّ البنوك التجاريّة التقليديّة التى نسمّيها (ربويّة)، تستثمر أموال الناس ! وهذا ليس بصحيح.

البنوك التقليديّة التجاريّة هذه لا تستثمر الأموال، وهذا يعرفه الذين يعملون فيها، ونعرفه من قراءة قوانينها وأنظمتها الأساسيّة، فهى لا تعمل فى التجارة ولا فى الاستثمار.

هى تأخذ المال من زيد وتعطيه لعمرو. أنت تودع مالك لها أو تقرضها – بالتعبير الصحيح لأنّه إقراض – بعشرة، ويأتى عمرو ليأخذ منها هذا المال فى مشروع له بثلاثة عشر، وتكسب هى من الفرق ما بين الإقراض والاقتراض.

هذا هو المعروف فى هذه البنوك، وهذا هو مقتضى قوانينها، ولا أجد أحداً ينكر هذا من الذين يعملون فى البنوك، وهذا هو الربا.

ما هو الربا ؟

الربا ليس شيئاً جديداً، الربا كان موجوداً قبل الإسلام، كان موجوداً فى

الجاهلية العربية، وكان موجوداً فى الجاهليّة الرومانيّة، وكان موجوداً فى الجاهليّة اليونانيّة، كان موجوداً عند أمم شتىّ، ولا زال موجوداً إلى اليوم.

الربا: أن تعطى المال لآخر ليستخدمه مدّة من الزمن، على شرط أن يعود لك بفائدة عليه محدّدة، متناسبة مع الزمن، مع ضمان رأس المال، عمل فيه أو لم يعمل، كسب فيه أم خسر، كسب قليلاً أو كثيرا، خسر قليلاً أو خسره كلّه.

هذا هو الربا. هو ربا الجاهليّة، وهو ربا البنوك الحاليّة (الانترست) كما يسمّونه.

لا أدرى كيف يجادل الناس فى البدهيآت.. فى الأمور الواضحة ؟! وكيف يشكّك الناس فى هذه المسلّمات ؟!

هذا أمر عجب.

هناك من النّاس الذين استضافهم البرنامج من قال: الربا فى الذهب والفضّة، وهذا ليس ذهباً ولا فضّة، بل هو نقود ورقيّة.

وهذا أمر ناقشته من قديم فى كتابى (فقه الزكاة)[1]، وقلت: إنّ هذه النقود الورقية هى التى يدفعها الإنسان المسلم مهراً فيتزوج به المرأة، ويدفعها ثمناً فيستحلّ به السلعة، ويدفعها أجراً فيستحلّ به عرق العامل، ويدفعها دية فى القتل الخطأ، وعلى قدر ما يكون عنده من هذه النقود يكون غناه، وعلى قدر قلّتها يكون فقره.

وهل يسمح أحد بأن تؤخذ منه هذه النقود الورقيّة أو يقاتل عنها؟

هذا كلام ما عاد له قيمة.

ثمّ وجدنا من يصفه البرنامج بأنّه فقيه عظيم يقول: إنّ البنك لا يصحّ منه ربا، ولا يقع منه ربا، لأنّ البنك ليس شخصاً مكلّفاً - المكلّف مثل: زيد وعمرو وفلان وعلاّن - إنّما البنك شخصيّة معنويّة !

---

(١) انظر: الجزء الأول من الكتاب (ص ٢٧١ - ٢٧٦) (زكاة النقود الورقية). ط. مؤسسة الرسالة.

هذا ما شمّ رائحة العلم، ما عرف أنّ الشخصيّات المعنويّة أيضاً عليها تكليف.

بيت المال شخصيّة معنويّة، المسجد شخصيّة معنويّة توقف الأوقاف عليه، الدولة شخصيّة معنويّة، مجلس النوّاب شخصيّة معنويّة.

يمكن أن يقول: إنّ الدولة يمثّلها الحاكم. نقول له: البنك يمثّله المدير، أو المحافظ أو يمثّله مجلس الإدارة.

هذه الشخصيّات المعنويّة لها اعتبارها.

وفى الفقه: نجد الخلطة فى زكاة الأنعام. فالنبى عليه الصلاة والسلام اعتبر من خلط أنعامه بأنعام شخص آخر، أصبحت كأنّها ملك لرجل واحد، بتعبيرنا: أصبحت شخصيّة معنويّة. وطرد ذلك الإمام الشافعى فى جميع الأموال، وأخذ بذلك مؤتمر الزكاة الأول بالكويت: أن نعتبر الشركة التى اختلطت فيها رؤوس الأموال بمثابة شخص واحد، كما هو مذهب الشافعى وبعض الفقهاء.

فكيف يقال هذا ؟!

هل معنى هذا أن نقول: إنّ للدولة أن تفعل ما تشاء، تحكم بغير ما أنزل الله، تحل الحرام، وتحرم الحلال وتسقط الفرائض، وليس عليها مسؤوليّة، لأنّها شخصيّة معنويّة، وإنّ للشركات أن تبيع الخمر، وتبيع الخنزير، وترتكب المحرّمات، ولا شيء عليها، لأنّها شخصيّة معنويّة، وليست شخصاً مفرداً مجسّماً مكلفا ؟!

هذا كلام لا يقوله إنسان عرف الفقه.

والمشكلة أنّ البرنامج لا يعرف الفقيه من غير الفقيه. بل هى مشكلة كثير من المسلمين، الذين يحسبون كل واعظ أو خطيب جيد، فقيها جيدا !!

الفقيه من كان له إنتاج فقهى معتبر: كتب، رسائل، فتاوى. ومن شهد له العلماء بأنّه من أهل الفقه، بغضّ النظر من أىّ كلية ومن أىّ جامعة هو، قد لا يكون من جامعة قط، بعض الفقهاء ما تخرّجوا في جامعات، وليس معهم دكتوراه.

لكن المسألة ليست دكتوره، ولا ماجستير، ولا بكلوريوس. المسألة أنّ الفقه

علم ودراسة، وممارسة ومعايشة، الفقه بحر عميق لا يستطيع أن يغوص فيه إلاّ غوّاصون. فهؤلاء لا يعرفون من هم أهل الفقه ولا من هو غيرهم، ويأتون بإنسان ويقولون بأنّه اقتصادى كبير، وهو ليس اقتصاديا، هو قانونى... إلخ.

على كلّ حال، الذى يهمّنا هو (الأدلّة)، من يقول الرأى بدليله القوى الحجّة المقنع - والله - نرحّب به أيّاً كان موقعه.

ولكنّى لم أر - للأسف - من الذين جاء بهم هذا البرنامج من قال شيئاً مقنعاً.

هناك من قال: أن النبى عليه الصلاة والسلام مات ولم يبيّن ما هو الربا؟ وروى أثراً عن عمر رضى الله عنه، وهو أثر لم تثبت صحته، وحتى لو ثبتت صحته فإنّ عمر قال: «كنت أودّ أنّ النبى ﷺ عهد إلينا فى أمور ثلاثة: الجدّ، والكلالة، وأبواب من الربا»، وهو لوصحّ هذا عنه يقصد (ربا البيوع) وليس (ربا النسيئة)، لأنّ ربا النسيئة أمر مقطوع به [1].

كيف يمكن أن نتصوّر أنّ رسول الله ﷺ مات ولم يبيّن كبيرة من الكبائر؟!

كيف قال للصحابة: «اجتنبوا السبع الموبقات...»[2] وعدّ منها: «الربا»؟!

كيف «لعن النبى ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»[3] ولم يسأله أحد ما هو الربا يارسول الله ؟!

---

(١) المشهور أن الذى كان يقول بإباحة ربا الفضل (أو ربا البيوع) من الصحابة إنّما هو ابن عباس رضى الله عنهما، ثمّ رجع عن رأيه حين سمع عمر وابنه عبد الله يحدّثان عن رسول الله ﷺ بما يدلّ على تحريمه وقال: حفظتما من رسول الله ما لم أحفظ (نيل الأوطار للشوكانى: ٥/ ٢٩٩). وهذا يؤكدّ لنا تهافت القول المنسوب إلى عمر - رضى الله عنه - وعدم صحته.

(٢) فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى، عن أبى هريرة رضى الله عنه، ونصّه: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يارسول الله، وما هنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: برقم ٧١٩، ١٠٥٤).

(٣) رواه مسلم، وغيره، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٣٤ برقم ١٠٥٦).

كيف أنزل الله تلك الآيات التى تهتزّ لها القلوب، وتقشعرّ لها الأبدان: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩]. كيف قرأ المسلمون هذه الآيات ولم يعرفوها؟ ولماذا لم يسألوا رسولهم، الذى أنزل الله إليه الذكر ليبيّن للناس ما نزّل عليهم؟

وقبل ذلك نزلت في سورة آل عمران، بعد غزوة أحد بعد السنة الثالثة من الهجرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وكذلك نزل فى سورة النّساء عن اليهود: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ.. ﴾ [النّساء: ١٦١].

بل في سورة الروم فى العهد المكى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ.. ﴾ [الروم: ٣٩].

كيف لم يفهم الصحابة هذه الآيات، ولم يسألوا عنها؟!

أهذا معقول ؟!

ما معنى: ﴿ .. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ.. ﴾ [المائدة: ٣]؟

ما معنى: «تركتكم على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك»(١) ؟

---

(١) رواه ابن ماجه، عن العرباض بن سارية، وصحّحه الألبانى وسكت عنه البوصيرى.

نقول له : لا يارسول الله ما تركتنا على المحجّة البيضاء، تركتنا على طريق مظلمة، التبس فيها الحق بالباطل، واختلط فيها الحابل بالنابل، والحلال بالحرام، حتى أنّ هذه الكبيرة الموبقة لا نعرف ما هى ؟!أ

أهذا معقول يا عباد الله ؟!

ولكن وجدنا من يقول هذا الكلام الغريب .

وجدنا من يقول : إنّ الفقهاء اختلفوا فى علّة الربا، وقال ابن عقيل : إنّ كلام الفقهاء فيها كلام ضعيف .

وهؤلاء الناس يتكلمون فى أمر ليس هو موضع النزاع، الكلام هذا فى علّة ربا البيوع . . فى الأصناف الستة : « الذهب بالذهب، والفضّة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح : مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى . . . »[1]. هذا الكلام فى العلّة فى هذه الأصناف الستة، ونحن لا نبحث فى ربا البيوع، نبحث فى ربا النسيئة، وهذا لا كلام فيه، لا يدخل فى مسألة التعليل، هذا موجود بالنّص : « الذهب بالذهب، والفضة بالفضة . . . » لا يحتاج إلى تعليل ولا إلى قياس. الربا فى (النّقود) هذا أمر منصوصٌ عليه لسنا فى حاجة إلى علّة حتى نقيس الفرع على الأصل، وغير المنصوص على المنصوص، وقد أصبحت النقود الآن هى النقود الورقيّة، فهذا كلام لا معنى له .

وقال من قال من هؤلاء : إنّ تحديد الربح أمر جاء به الفقهاء، وليس عليه نصٌ ولا دليل . وأنا أقول : إنّ ما يجرى فى البنوك ليس من باب المضاربة حتى تدخل مسألة الربح . ما يجرى فى البنوك التقليديّة (إقراض)، ليس مضاربة بينك وبين البنك حتى نقول : إنّه يمكن تحديد الربح، الربح شيىء آخر . حتى علماء الاقتصاد أنفسهم يقولون : إنّ عوائد المشروع هى إمّا أجرة، أو فائدة، أو ريع، أو ربح . الفائدة لمن مدّك برأس المال حسب النظام الرأسمالى، إنّه يعطيك رأس المال

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، والنّسائى، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه (فيض القدير للمناوى : ٣ / ٥٧١ برقم ٤٣٥٥) .

أو جزءاً منه ويأخذ الفائدة المشروطة، سواء كسب المشروع أم خسر، والريع لأصحاب العقار أو المعدّات، والأجرة للعمّال الذين اشتغلوا، والربح لصاحب المشروع أو المنظّم، قد يبقى له ربح وقد لا يبقى، وقد يكون قليلاً، وقد يكون كثيرا، وقد يخسر بالمرّة.

هذا هو النظام الرأسمالى.

الربح لا يمكن أن يتحقق إلاّ بعد انتهاء العمليّة، لا يمكن أن يُحدّد مقدّما، الربح المتوقع شيىء، والربح المُحقق شيىء، المتوقع أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وقد يحدث عكسه تماماً، ختى الذين يقولون بالتضّخم وتعويض التضخم، لا نستطيع أن نعرف حقيقة التضخم إلاّ بعد مضىّ المدة، أمّا قبلها فهذا لا يمكن، لأنّه قد يحدث تضخم وقد لا يحدث، وقد يحدث قليلاً وقد يحدث كثيرا، وقد يحدث العكس.

لو أنّ النقود هبطت قيمتها وتغيرّت الأسعار إلى الانخفاض، هل يتغيرّ الأمر؟ من الذى يدفع فى هذه الحالة: الدائن أم المدين؟ البنك أم الذى أقرض البنك؟ لا يتغيرّ الأمر.

فنحن نؤكّد أنّ الربا المحرم شرعاً، والذى لا شك فيه هو: الزيادة المشروطة المسبّقة على رأس المال بغير مقابلة عوض إلاّ التأخير فقط، إلاّ تأخير المبلغ، إلاّ الزمن. بغير مقابلة أىّ شيىء، لا بيع ولا شراء، ولا شيىء من هذا.

بعض الإخوة العاملين فى البنوك هنا كتب فى صحف قطر، وأطال وأعاد، وكرّر وكرّر، وبعث إلىّ، وهو يقول كلاماً مضحكاً فى الحقيقة، يقول: الربا ليس معناه (الزيادة) ! ما معناه؟ يقول: معناه (المضاعفة) ! من أين أخذت هذا؟ قال: إنّ الإنسان إذا عمل حسنة يضاعفها الله !!!

أهذا منهج علمىّ ؟!

من أراد أن يعرف معانى الألفاظ، فليرجع إلى المعاجم. ليرجع إلى معاجم اللغة.. إلى لسان العرب.. إلى القاموس.. إلى شرح القاموس (تاج العروس)،

ارجع إلى مفردات القرآن للراغب الأصفهانى، ارجع إلى معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أصدره مجمع اللغة العربيّة فى مجلّدين، بل ارجع إلى مختار الصحاح، ستجد أنّ (الربا) معناه: الزيادة، يقول لك: (ربا) أى: زاد، ونما، وعلا، هذا ما تدلّ عليه مادّة (ربا)، ومنه (الربوة) لأنّها مرتفعة زائدة على ما يحيط بها، ومنه قوله تعالى: ﴿**فأخذهم أخذة رابية**﴾ [الحاقة: ١٠] أى زائدة فى الشدّة، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ**﴾ [النحل: ٩٢] أى أكثر فى الزيادة والقوّة، ومنه (ربا فلان فى حِجْر فلان) يعنى: زاد، ونما، وهكذا، المادّة كلّها تدلّ على النموّ والزيادة.

لكن هذا جاء بكلام عجيب، وخالف كلّ النّاس، وأتى بما لم تأت به الأوائل، بل اكتشف ما غاب عن الفقهاء والشرّاح والمفسرّين واللغويّين، وجاء بكلام من عنده، ليس عليه أثارة من علم ولا هدى ولا كتاب منير.

يقولون: إنّ الفوائد أصبحت ضرورة للأمّة أو مصلحة لها.

والله إن كانت هناك ضرورة فهذا أمر يقدّره أهل الرأى، والضرورات تقدر بقدرها. إذا كانت مصلحة فلا عبرة بالمصالح إذا صادمت النصوص القواطع، **المصلحة إنّما تعتبر إذا كانت مصلحة مرسلة، أى: لم يأت من الشرع دليل على** اعتبارها ولا دليل خاص على إلغائها. واشترطوا فى هذه المصلحة ألاّ تصادم نصّاً شرعيّاً ولا قاعدة شرعيّة، فكيف بما يصادم النصوص والقواعد والمقاصد؟

إنّى أهيب بالمسلمين جميعاً أن يقفوا عند حدود الله عزّ وجلّ. لقد أحقّ الله الحق، وأبطل الباطل، والحلال بيّن والحرام بيّن.

وإلاّ فإنّ معنى كلام هؤلاء، أنّه لا يوجد فى العالم الآن (ربا). لأنّ الربا الذى يقولونه: أن يذهب شخص إلى شخص آخر – على الطريقة القديمة – يريد أن يأكل أو يشرب، فيقول: اعطنى، فيقول: لا أعطيك إلاّ إذا دفعت لى كذا – بل بعضهم يقول لك: حتى هذا ليس حراماً، لأنّه يريد أنّ الحرام هو (ربا المضاعفة) يعنى: الربا (١٠٠٪)، وبعضهم يقول: الحرام ما كان (أضعافاً

مضاعفة) يعنى : (٦٠٠٪) – هذه الصورة من صور المعاملات الربويّة لم تعد موجودة، لم يعد هناك شخصٌ يذهب إلى شخص مرابٍ يقول له : اعطنى .

أصبح الربا فى صورة منظّمة، أصبح البنك هو المرابى الأكبر، هو الذى يمثّل المرابين القدامى . وبنوكنا صورة من البنوك الغربيّة، الموجودة فى العالم الرأسمالى كلّه، فإذا لم يكن عندنا ربا فليس عندهم ربا . مقتضى ما يقوله هؤلاء : إنّه لا يوجد ربا فى العالم، لا تقولوا عن اليهود أنّهم أكلة ربا، ولا أنّهم وراء المصارف الربويّة، لا تقولوا هذا، اليهود مبرّأون من هذا كلّه، لا تصدّقوا النبى – ﷺ – فيما رواه أحمد وأبو داود والنّسائى وابن ماجة عن أبى هريرة، أنّه قال : « يأتى على الناس زمان لا يبقى أحد إلاّ أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غُباره »[1] .

هؤلاء يقولون : لا، هذا كذب، الربا انتهى ! لأنّه لم يعد هناك من صور الربا القديم الذى يذكرونه، هذا هو الربا كما يفهمه الناس الآن، وهم لا يعتبرون التعامل مع البنوك من الربا المحرّم .

ماذا أقول لهؤلاء ؟

قالوا : تحديد الربح لم يرد عليه دليل . وأنا رددت على هذا من نحو أربعين سنة فى كتابى (الحلال والحرام فى الإسلام)، وقلت : هناك دليلان أساسيّان على هذا الأمر :

الدليل الأوّل : الإجماع . قال الإمام ابن المنذر : أجمع كلّ من نحفظ عنه العلم من أهل الفقه، أنّ اشتراط دراهم معلومة لأحد المتعاقدين فى المضاربة، لا يجوز، هو حرام . وذكر طوائف من العلماء حرّموا هذا الأمر . ونقل هذا عنه ابن قدامة، ونقل عنه ذلك النّووىّ، ونقل عنه ذلك آخرون .

---

(١) شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط (٨ / ٥٥ ، برقم ٢٠٥٥) . ورواه الحاكم أيضا وعلّق صحته على سماع الحسن من أبى هريرة رضى الله عنه، وكذا الذهبى، ورجحّ الشيخ شاكر سماعه منه فى تخريجه للحديث (٧١٣٨) من المسند (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٣٥ – ٥٣٦ برقم ١٠٦٤) .

فهذا هو الإجماع، والإجماع حجّة، ولم يُعرف خلاف هذا فى خلال القرون كلّها، ما عُرف عالمٌ خرج عن هذا الأمر.

الدليل الثانى: وهناك دليل آخر يُعتبر سند هذا الاجماع. هذا الدليل هو أنّ النبى ﷺ نهاهم فى المزارعة أن يُشترط لأحد الطرفين شيىء معيّن. كانوا يزارعون على أراضيهم، فيشترط صاحب الأرض قطعة معيّنة – على الجداول النهريّة أو على المكان الفلانى أو قناطير معينّة – يقول: هذه القطعة تكون ثمرتها لى، فجاء النبى ﷺ ونهاهم عن ذلك، فى أكثر من حديث نهاهم عن هذا الأمر، وقال: «فربما أخرجت ذه، ولم تخرج ذِه»[1]. ومعنى هذا أن يكون لأحد الطرفين غنم مؤكّد والآخر عليه غرم محتمل، والعدالة تقتضى أن يشترك الشريكان فى الغرم والغنم، هذه هى عدالة الإسلام المحكمة.

هذا هو ما جاء به الإسلام فى المزارعة، وقد قال العلامّة ابن قُدامة: المضاربة مزارعة فى المعنى. وهذا صحيح.

وأنا أقول: المزارعة أخت المضاربة، أو المضاربة أخت المزارعة. المزارعة مضاربة فى الأرض، والمضاربة مزارعة فى المال. كلّ منهما نوع من الاشتراك. فى **المزارعة يشترك صاحب الأرض والزارع، وفى المضاربة يشترك ربّ المال والعامل،** يتعاون صاحب المال مع صاحب الخبرة والجهد، ومن خلال هذا التعاون تُقتسم الثمرة بينهما، ربحاً أو خسارة، قليلاً أو كثيرا، فى الغرم والغنم، هذه هى العدالة، هذه مقتضى المشاركة، التضامن فى المسؤولية، لا أن يكون لك الغنم أبداً، وأن يكون علىّ الغرم وحدى.

هذا ما جاء به الإسلام: «المضارب أمين» فلا يمكن أن يكون الأمين ضامناً، أمين على هذا المال، يعمل فيه لحساب الطرفين، إلا إذا قصر أو تعدى.

---

(١) قطعة من حديث رافع بن خديج المتفق عليه، قال: كنّا أكثر أهل المدينة حقلاً، وكان أحدنا يُكرى أرضه، فيقول: هذه القطعة لى، وهذه لك، فربّما أخرجت ذه، ولم تخرج ذِه، فنهاهم النبى ﷺ (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٨/٢٥٤، برقم ٢١٧٨).

إذا ثبت عليه التقصير أو التعدى والخيانة، يتحمل المسؤولية، وما عدا ذلك فهو أمين على هذا المال، ولذلك لا يضمن هذا المال.

فهذا هو الذى جاء به هذا الدين، الذى أقام الموازين القسط بين الناس.

يا أيها الإخوة:

لا أستطيع أن أسترسل أكثر من ذلك، كل ما أقوله: أنى لم أجد شيئا مما قاله هؤلاء الناس يستحق الرد العلمى الصحيح، كلها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من الشرع ولا من العقل برهان.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينير بصائرنا، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يجعل لنا من عسرنا يسرا، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا.

اللهم اكفنا بجلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك، اللهم آمين، ادعو الله يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نحن الآن فى العشر الأوائل من ذى الحجة، وهى أيام مباركات، كما جاء عن ابن عباس: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام» يعنى العشر. قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشئ»[1] يبذل نفسه لله وماله لله.

ولذلك سن فى هذه الأيام التحميد والتهليل والتكبير[2] والذكر

(١) رواه البخارى، والترمذى، وأبو داود، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٥١ ، ٣٢، برقم ٦١٠).

(٢) روى الطبرانى فى الكبير بإسناد جيد: «ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إلى الله العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهن من التسبيح، والتحميد والتهليل، والتكبير» (المنتقى من كتاب الترغيب والترغيب: ١/ ٣٥٢ برقم ٦١٠).

والاستغفار والصدقة والصيام. وأوكد أيام الصيام فيها: اليوم التاسع من ذى الحجة (يوم عرفة)، فصيامه مؤكد - لغير الواقفين بعرفة - وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: «صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفّر السنة التى بعده، والسنة التى قبله» [1].

فاحرصوا على صيام هذه الأيام، وابدأوا تكبير العيد عقب كل صلاة من فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق (٢٣ صلاة) واستعدوا لهذا العيد بالأضحية لمن قدر عليها، ويستطيع الإنسان أن يضحى فى بلد آخر خصوصا فى البلاد الفقيرة، والأضاحى هناك أقل ثمنا من هنا. تستطيع بثمن الأضحية هنا أن تضحى بثلاث أو أربع فى بلد آخر، وتعين إخوانك المسلمين الفقراء.

وأنصحكم - أيها الإخوة - ألا تنسوا فى هذه الأيام إخوانكم الذين يعانون ما يعانون، من جراء الظلم والبطش، والاضطهاد فى فلسطين فى أرض النبوات، الذين يلاقون ما يلاقون، ويسقط منهم الشهداء والجرحى فى كل يوم، نتيجة: العنجهية الإسرائيلية، والتجبر الإسرائيلى، وهذا السكوت أو الصمت العربى أو العجز العربى، والغياب الإسلامى.

ينبغى ألا ننسى إخوتنا هؤلاء، مااستطعنا أن نعينهم فلنفعل ولا ننسى إخواننا فى السودان، وإخواننا فى كشمير، وإخواننا فى سائر البلاد. أقل ما يجب أن ندعو الله تعالى لهم، نهتم بأمورهم، نشغل أنفسنا بهمومهم وأحزانهم.

نحن الآن فى فترة عصيبة، فى زمن رهيب، زمن يهجم فيه على الإسلام من

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، والترمذى (وهذا لفظه) عن أبى قتادة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣١٦، برقم ٥٢٥).

يمين وشمال، تهاجم فيه الصحوة الإسلامية، والأمة الإسلامية من كل جانب، فليس أمامنا إلا الله، نلجأ إليه، ونلوذ بجنابه، ونعتصم بحبله، ونتضرع إليه، أن يكشف الغمة، ويفرج الكربة عن هذه الأمة، وأن يلتف بعضنا ببعض، ونقف متلاحمين، كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [الصف: ٤].

اللهم ولّ أمورنا خيارنا، ولا تول أمورنا شرارنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنا، سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾. [الحشر: ١٠] اللهم آمين.

﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾. [العنكبوت: ٤٥]

* * *

٨ - القرآن قدس الأقداس
الرد على المشككين فى القرآن

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كانت هناك موضوعات عدة تتنازعنى لأحدثكم عنها:

هناك قضية المسلمين الأولى: قضية فلسطين.. قضية القدس.. قضية المسجد الأقصى، ومايبيت له وما يدبر فى شأنه، كانت تستحق الحديث.

وهناك قضية اقتصادية كنا بدأناها: البنوك وفوائد البنوك، والربا الذى آذن الله فاعليه بحرب من الله ورسوله، ومحاولات بعض الناس أن يستحلوا ما حرم الله، وأن يبطلوا ما شرع الله، بجهل أو غباء أو اتباع هوى، أو تقليد أعمى.

هناك أكثر من قضية كانت تستحق الحديث.

ولكنى أرجأت الحديث عن هذه الموضوعات، لأحدثكم فى قضية خطيرة غاية الخطورة:

ذلك أن لكل أمة مقدساتها التى يجب أن تحفظها وترعاها، وتحميها من كل معتد عليها. ونحن عندنا مقدساتنا التى لا يجوز لأحد أن يعتدى عليها أو يعبث بها.

قدس الأقداس عندنا هو القرآن الكريم، عمدة الملة، وأساس العقيدة ومصدر الشريعة، وروح الوجود الإسلامى كله. فلا يجوز لمدّع أومغرور أن يتطاول على هذا القرآن، هذا القرآن الذى أعجز العرب أن يأتوا بحديث مثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، وغلبوا وانقطعوا. ولا زال الزمن يكشف لنا كل يوم عن معان جديدة فى إعجاز هذا القرآن، تزيدنا إيمانا به، وبسر الله فيه.

هذا القرآن الذى حفظه الله تعالى وتكفل بحفظه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩] هذا

القرآن وجدنا فى عصرنا هذا من يتطاولون عليه من رجال ونساء، أصبح القرآن كلا مباحا لكل من هب ودب من الناس، يريد أن يتطاول على هذا الكتاب الكريم.

● من قال: القرآن منتج ثقافى:

هناك من قال عن هذا القرآن - كلام الله عز وجل، كتاب الله المبين، الحكيم، العظيم، إنه مجرد منتج ثقافى، أنتجه الواقع وثقافة الواقع! فالواقع فاعل، والقرآن منفعل، هذا الواقع - أى واقع الجاهلية الذى بعث محمدﷺ ليخرج الناس منها - كان مؤثرا فى القرآن، والقرآن كان متأثرا به، القرآن مجرد منتج ثقافى، كأنما هو قصيدة من الشعر، أو قصة من النثر، أو مقالة لكاتب من الكتَّاب !

هذا ما قاله بعض الناس.

ورأينا هؤلاء وشاهدناهم وسمعناهم فى القنوات الفضائية، وقيل لبعضهم: هل عندك خطوط حمراء؟ قال: لا، ليس عندى أية خطوط حمراء، كل شئ قابل للنقاش، الألوهية.. النبوة.. قدسية القرآن.. إلهية القرآن، كل هذا عنده قابل للنقاش!

من ترفض شرع الله فى الميراث:

والعجيب أن القنوات الفضائية أصبحت تفتح صدورها وأبوابها لهؤلاء الناس، المتطاولين على كتاب الله، ووجدنا من النساء - فى إحدى القنوات الفضائية - امرأة.. دكتورة ترفض آيات الميراث، ترفض حكم الله فى قوله تعالى: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾ [النساء: ١١] وتقول: هذا حكم انتهى وقته، هذا كان عندما كانت المرأة تابعة للرجل، ولم يكن لها استقلالها الاقتصادى. أما المرأة الآن وقد تعلمت وعملت فما عاد هذا الحكم قائما!

الله تعالى يقول: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾ ويقول فى آخر الآية: ﴿ **فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء ١١] ولذلك يسمى علم الميراث: علم الفرائض.

ويقول فى الآية الثانية: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء:١٢].

ويقول فى الآية الثالثة: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء ١٣، ١٤].

ولكن تلك المرأة تقول: هذا حكم انتهى! يجب إذن أن نغير أحكام الشريعة، فليس الأمر كما قال الله: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤]!

الرجل مطالب أن ينفق على الأسرة، وأن يدفع مهراً للمرأة ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء: ٤] ليس الرجل إذن مطالبا أن يدفع صدقة أو مهراً للمرأة، وليس مطالبا أن يؤسس بيت الزوجية، وليس مطالبا أن ينفق على الأسرة، وليس مطالبا أن يكون مسؤولا عن الأسرة، يجب أن نلغى هذه الأحكام كلها!

تذويب الثوابت:

هؤلاء الناس يريدون أن لا يبقى شئ ثابتا، ولا تكون هناك (ثوابت) تستقر عليها الأمة، وتتحرك فى إطارها.

أمة بلا ثوابت معناها: (أن لا أمة): كل مجموعة لها أحكامها ولها أفهامها، كل بلد له أفهامه، كل عصر له أفهامه، كل فرد له فهمه!

لم يعد الدين جامعا إذن، وإنما أصبح لكل عصر دينه، ولكل بلد دينه، ولكل بيئة دينها، بل أصبح لكل فرد دينه!

هذا ما يريده هؤلاء.

لا توجد أمة بهذه الطريقة وبهذه الصورة.

إنهم يريدون التشكيك فى ثوابت الأمة .. فى القطعيات التى استقر عليها إجماع الأمة، وعلمت من الدين بالضرورة، وتوارثها الأبناء عن الآباء، والأحفاد عن الأجداد، والخلف عن السلف، جيلا بعد جيل، وأصبحت تجسد الوحدة العقدية، والفكرية والشعورية والسلوكية والعملية للأمة.

هؤلاء يريدون أن يشككوا فى هذا كله، وهذه قضية فى غاية الخطورة: أن تصبح القطعيات ظنيات، أن تتحول المحكمات إلى متشابهات .. أن تتحول مواضع الإجماع اليقينى إلى أشياء تناقش فى قنوات الفضاء وفى الإذاعات، وفى الصحف والمجلات.

إذاعة قطر لها حلقتان تناقش فيهما قضية الربا: هل هو حرام أو ليس حراما؟! وفوائد البنوك قضية انتهت منها المجامع، ومع هذا يريدون الكلام فيها مرة ومرة ومرة، ما المراد من هذا كله؟

تشكيك الناس فى المسلّمات وزعزعة الثقة بالقطعيات. المسلّمات القطعية يراد لها أن تكون موضع نقاش وجدال، وقيل وقال.

وإلا فما معنى هذا؟

ما معنى أن نناقش فوائد البنوك وقد اتفقت مجامع الأمة على أنها حرام؟! ما معنى أن نناقش تعدد الزوجات؟

● **ما شرعه القرآن حكم بطل زمانه:**

ما معنى أن تدعى امرأة سليطة اللسان، جريئة على أحكام الله وحرمات الله، وتقول فى قناة الجزيرة الفضائية القطرية: هذا حكم بطل زمانه؟!

الله تعالى يقول: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء:٣] تقول: هذا حكم بطل زمانه؟

من أنت أيتها الإنسانة حتى تحكمى على القرآن بأنه قد بطل زمانه؟! أجاء

القرآن لزمن دون زمن ولعصر دون عصر؟! ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥] ؟ (١).

إذا كان هوى الإنسان هو الذى يحكم على الله وعلى كتابه، انتهت الشريعة، وانتهت العقيدة، وانتهى الدين. الدين جاء حاكما لا محكوماً جاء يقودنا لنتبعه لا ليتبعنا هو. إذا أصبح الدين تابعا لنا.. لأهوائنا . لآرائنا، معناه أن الدين لم يعد حكما نرجع إليه إذا اختلفنا، ونعو د إليه إذا انحرفنا.

الله تعالى يقول: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [النساء :٥٩]، وهؤلاء لا يريدون أن يردوا الأمر إلى كتاب الله. إذا رددتهم إلى كتاب الله يقولون لك: هذا حكم زمانه مضى!

الخنزير الذى حرمه القرآن وقال: ﴿إِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام:١٤٥] (٢) يقولون: هذا خنزير الزمن الماضى، أما خنازير زماننا فهى خنازير حديثة (مودرن) لا تدخل تحت هذا الكلام!!

وهكذا يقولون فى كل شئ.

كيف نقول في قول الله تعالى:﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء:٣] أن هذا حكم بطل زمانه؟!

لقد جاء الإسلام بالحكم العدل.

التعدد بين الإسلام وغيره:

كانت هذه القضية موجودة فى الأمم: عند العرب فى الجاهلية، وعند الرومان، وعند سائر الأمم، حتى قالوا: أن داود عليه السلام كان عنده مائة امرأة

(١) وتتمتها: ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(٢) فى قوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾

ومائتا سرية وأن سليمان عليه السلام كان عنده ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية.

وكان العرب يعددون بغير قيد ولا شرط، فجاء القرآن ووضع قيداً وشرطا: القيد أنه لا زيادة على الأربع ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾.

والشرط هو العدل، أن يثق الإنسان من نفسه بالعدل ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ [مجرد الخوف] أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء:٣].

والعجيب أن هؤلاء يقولون: إن القرآن قال: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء:٣]، ثم قال في الآية الأخرى في نفس السورة ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء:١٢٩] فكأن القرآن حلل في الآية الأولى وحرم في الآية الأخرى!

أهذا يفعله عاقل؟ أيهدم القرآن ما بناه في سورة واحدة؟ هذا لا يفعله العاقل من الناس فكيف بأحكم الحاكمين؟!.

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾: أي أن العدل الكامل غير مستطاع. ولو أكملوا الآية لوجدوا تفسير هذا، لأن الآية تقول: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء:١٢٩] لن تستطيعوا، والإنسان لا يكلف بما لا يستطيع، لأن العدل الكامل أن تعدل في كل شئ: في الظاهر والباطن، في النفقة والكسوة والمبيت والسكن (وهذه هي الأشياء الظاهرة). وأن تعدل في الميول والعواطف فتحب هذه مثل ما تحب تلك (وهذه هي الأشياء الباطنة) وهذا لا يملكه الإنسان.

ولذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يقسم بين نسائه في الأمور الظاهرة: النفقة والكسوة، والمبيت، ولكنه يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1]، يعني بما لا يملكه: أمر القلب وأمور العواطف، فهذه لا يملكها الإنسان.

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وإسناده قوي، وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي، عن عائشة رضي الله عنها (شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٩/ ١٥١).

ولذلك نرى الآية تقول: ﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء:١٢٩] والمعلقة: التى لا هى مزوجة ولا مطلقة. ومعنى الآية ومفهومها : أن بعض الميل متسامح فيه، بعض الميل مغتفر، لأن الإنسان لا يستطيعه ولو حرص. ولا يكلف الإنسان بما لا يستطيع ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة٢٨٦]، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن :١٦] فهذا معنى الآية الكريمة.

أما أن يقول هؤلاء : إن القرآن اشترط شرطا وقال إنه مستحيل! فكيف يفعل هذا أحكم الحاكمين عز وجل؟! وكيف عدد النبى ﷺ؟وكيف عدد الصحابة؟ وكيف عدد التابعون؟ وكيف عدد المسلمون طوال أربعة عشر قرنا؟!

عجيب أن تقول هذه المرأة: هذا حكم بطل زمانه! كيف بطل زمانه والعالم يعدد إلى اليوم؟! كل العالم يعدد، ولكن هناك من يعددون فى الحلال ومن يعددون فى الحرام.

الغرب كله يعدد، هذا أمر لا شك فيه، ولكنه تعدد لا إنسانى ولا دينى ولا أخلاقى، هذه حقيقة معروفة. الإنسان الغربى يعاشر امرأة خليلة له.. رفيقة.. عشيقة، ولا يتزوجها، أما فى الإسلام فلا، الإسلام يعالج الأمور بصراحة، ويقول: إذا كنت محتاجا إليها فتزوجها، والتزم بما توجبه عليك الحقوق الزوجية، وإذا جاء منكما نسل فهو منكما، له حق الأبوة والأمومة. هذا ما جاء به الإسلام.

الغرب كله يعدد، ولكن تعدد الخليلات لا تعدد الحليلات، وهؤلاء يريدون أن نكون كالغربيين.

وعندما قال المذيع لهذه الإنسانة: ماذا تقولين فى ثمانية ملايين من النساء فى أمريكا أزيد من عدد الرجال؟ لم تجب عن هذا السؤال، وقالت: وإذا زاد عدد الرجال ماذا نفعل؟ ولكنها لم تجب عن الملايين الثمانية من النساء.

ماذا نفعل إذا زاد عدد النساء على الرجال؟ وكثيرا ما يحدث هذا، ثم هناك

قضية أخرى: كل امرأة بلغت قابلةلأن تتزوج ، وعدد الصالحات للزواج من النساء دائما أكثر من عدد القادرين على أعباء الزواج من الرجال. هذه قضية متفق عليها، لأنه ليس كل رجل قادرا على أن يتزوج، ستظل هناك أعداد من النساء فائضة، فماذا نفعل فى العدد الفائض؟

أمامنا واحدة من ثلاث:

- إما أن نترك هذه الأنثى مكبوتة ولا تحقق وجودها، ولا تحقق أنوثتها ولا تحقق الغريزة الفطرية فى الإشباع ولا الغريزة الفطرية فى الأمومة ولا تتمتع بحياة زوجية ولا بأمومة، ونحكم عليها بالكبت والحرمان، وهذا ليس عدلا.

- وإما أن ندع حبلها على غاربها فى التسول الجنسى، والتسكع، تفعل ما تشاء، وهذا ما فعله الغرب، وهو ما يرفضه الإسلام.

- وإما أن نبيح لها أن تتزوج برجل متزوج، قادر على أن ينفق عليها وقادر على أن يعدل بينها وبين ضرتها، وهذا هو العدل.

● **التعدد لصالح المرأة والمجتمع:**

يقولون: إن التعدد ضد المرأة! أى المرأتين؟ المرأة الأولى أو المرأة الثانية؟ المرأة الثانية هى امرأة أيضا، وقد رأت من الخير لها والنفع لها أن تتزوج برجل متزوج، وأن تكون نصف زوجة، فذلك خير لها من الحرمان.. خير لها من العنوسة.

هذه أمور شرعها الله عز وجل، ليحل بها عقداً فى الحياة ومشاكل فى الحياة. هؤلاء الذين يتعالمون على الله، ويستدركون على الله، ويزعمون أنهم أعلم من الله بمصالح خلقه، نقول لهم: ﴿ **أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ١٤٠] أأنتم أعلم من الله بخلقه؟ أأنتم أرحم من الله بعباده؟ والله تعالى يقول: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك: ١٤].

قالت هذه المرأة: إذا زاد عدد النساء وعرفنا أن هذه أنثى عن طريق الأشعة

التى تصور الأجنة فى بطون أمهاتها - نتخلص منها!!! أباحت إجهاض الأنثى، وهذه جريمة.

فى مؤتمر السكان الذى عقد بالقاهرة [1] : وقف الأزهر والكنيسة، وقف شيخ الأزهر[2] وبابا الفاتيكان، وقفت الأديان كها ضد الإجهاض وضد الاعتداء على الحياة.

هؤلاء يريدون أن يعيدوها جاهلية ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير:٨، ٩] كان أخونا وصديقنا الدكتور حسان حتحوت الطبيب والعالم الشهير - يسميها :(موءودة القرن العشرين).

(حينما يعرف أن الجنين أنثى يتخلص منه) !! كيف يسمح لامرأة أن تقول هذا الكلام الخطير؟ وهى تكرر وتكرر: أن هذا الأمر قد بطل زمانه، وتقول أيضا : هذا بطل زمانه مثلما أبطلنا قوله تعالى ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء:٣] !!

الإسلام استحدث العتق ولم يستحدث الرق:

نحن لم نبطل هذا، القرآن لم يستحدث (الرق) إنما استحدث (العتق) لم يقل: استرقوا، وما جاء فى القرآن (استرقوا) كل ما فى الأمر أن العالم كان يتعامل بهذه القضية، وكان هناك عبيد وجوار، فجاء القرآن فقرر لهؤلاء حقوقهم، وأبطل كل ما كان عليه أهل الجاهلية. سد الأبواب كلها، إلا بابا واحدا هو (الأسير) فى حرب شرعية، وهذا الأسير لنا معه عدة تصرفات منها تصرفان ذكرهما القرآن: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد :٤]

---

(١) فى الفترة من ٥ إلى ١٣ من سبتمبر ١٩٩٤م وللشيخ القرضاوى خطبة كاملة حول هذا المؤتمر ووثيقته التى أصدرها نشرت فى الجزء الثانى من هذه الخطب (ص٢٢٩ - ٢٤٢).

(٢) هو الشيخ (جاد الحق على جاد الحق) رحمه الله، الذى وقف موقفا صلبا من محاولات (مؤتمر السكان) فقد رفض باسم الأزهر ما فيه من اتجاه إلى شرعية الاجهاض، وإباحة الشذوذ للرجال والنساء، والإباحية الجنسية، وانتزاع حق الآباء فى الإشراف على تربية أولادهم... إلخ، فجزاه الله عن الأزهر والإسلام خير ما يجزى العلماء العاملين والرجال المصلحين.

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ أن نمن عليه لوجه الله ونطلق سراحه، لنحبب إليه الإسلام.

﴿ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ أن نفدى أسيراً بأسير، أو أسيراً بأسيرين أو أسيراً بمال، أو أسيراً بأى تعويض.

هذا ما نص عليه القرآن، وجاء فى السنة.

واسترق النبى ﷺ بعض السبايا من النساء والأطفال، ولم يسترق ذكراً بالغاً قط، كما قال الإمام ابن القيم. هؤلاء السبايا أصبحوا ضمن الأسرة المسلمة، تدخل المرأة ضمن الأسرة والأطفال ضمن الأسرة المسلمة، وكما جاء فى الحديث: «إخوانكم خولكم» (١).

الاسترقاق أمر لم يرغب الإسلام فيه، بالعكس، جاء الإسلام بأشياء كثيرة جدا لتحرير الرقيق، منها الكفارات: كفارة القتل الخطأ وكفارة الظهار، وكفارة اليمين، وكفارة الجماع فى نهار رمضان، وكفارة من ضرب عبده... إلخ.

فإذا جاء العالم وقالوا: لا عبيد ولا جوارى، فإن الإسلام يرحب بهذا، ولكن العالم لم يقل: لا تعدد.

إباحة الزنى وتحريم التعدد:

كما قلت لكم: التعدد موجود، ولكن الإسلام – لأنه دين واقعى – يعترف بالتعدد ويضبطه بشرائعه وقيمه وأخلاقه وقوانينه. أما أن نبيح للناس الزنى ونحرم عليهم التعدد، فهذه هى المصيبة، وهذا ما فعلته للأسف بعض البلاد الإسلامية العلمانية: تركيا وتونس فى شمال أفريقيا، حيث حرمت التعدد وأباحت الزنى!

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم عن أبى ذر رضى الله عنه (فيض القدير للمناوى: ١٠ / ٢٢١ برقم ٣٠٤) و(كشف الخفاء للعجلونى: ١ / ٦٩ برقم ١٦٣).

سمعت شيخنا الشيخ عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) يحكى – هنا فى قطر –أن رجلا فى إحدى البلاد العربية والإفريقية – التى تحرم تعدد الزوجات – تزوج من امرأة زواجا عرفيا، لأنه لا يستطيع أن يوثق هذا الزواج رسميًّا، فتزوجها بشهود ومهر، وكان يتردد عليها. قدمت شكوى فى حقه، فتربصت به المباحث، حتى قبضوا عليه عند هذه المرأة، وأخذ الرجل ليحقق معه، وقالوا له: ألا تعلم أن تعدد الزوجات ممنوع بالقانون؟ قال: بلى أعلم. قالوا: فكيف تزوجت هذه المرأة وهذا لا يبيحه لك القانون؟ قال لهم: ومن قال لكم إنها زوجتى؟ إنها عشيقتى.. رفيقتى. فقالوا له: آسفون كنا نحسبها زوجة لك!! وأمروا بتخلية سبيله وإطلاق سراحه!

أن تكون زوجة فهذا أمر يمنعه القانون، أما أن تكون رفيقة وعشيقة فهذا لا يمنعه القانون!

هذا ما يريده هؤلاء: أن يبيحوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، هذا أمر عجيب جدا.

● عمر لم يبطل نصًّا قرآنيا وحاشاه:

إن هؤلاء الذين يزعمون أن فى القرآن أحكاما بطل زمانها يتكئون على أمر يردد باستمرار، يقولون: إن عمر بن الخطاب عطل بعض نصوص القرآن لمصلحة رآها فى زمنه: عطل نص المؤلفة قلوبهم، ولم يعطهم من الزكاة، وعطل نص حد السرقة فى عام المجاعة. فإذا كان عمر وهو من الخلفاء الراشدين المهديين – الذين جاء فيهم حديث: «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ» [1] – فعل هذا، فنحن أولى به! قالوا: ودلنا هذا على أن هناك أحكاما مؤقتة فى القرآن.

وهؤلاء ظلموا عمر رضى الله عنه. ما ألغى عمر نصا فى كتاب الله، ولا

---

(١) قطعة من حديث العرباض بن سارية، الذى رواه أبو داود الترمذى وقال: حديث حسن صحيح، وهو الحديث الثامن والعشرون من أحاديث الأربعين النووية.

يملكٌ عمر ولا غير عمر أن يبدل نصا فى كتاب الله أو يجمده. الرسول – عليه الصلاة والسلام – نفسه لا يملك هذا، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس :١٥].

ولذلك ذهب الإمام الشافعى وعدد من الأئمة إلى أن القرآن لا ينسخ بسنة، وإنما ينسخ القرآن بالقرآن، اعتمادا على قول الله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة:١٠٦] والسنة ليست خيرا من القرآن ولا مثل القرآن.

فكيف يستطيع عمر أن ينسخ كتاب الله برأيه هو؟ وكيف يسكت عليه الصحابة الذين لا يخافون فى الله لومة لائم؟

ما فعل عمر شيئا من هذا.

كل ما فعله عمر أنه منع قوما كانوا يأخذون من سهم المؤلفة قلوبهم فى عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر.

ومن قال: إن إنسانا إذا كان مستحقا للزكاة، يظل مستحقاً أبد الدهر؟ قد يأخذ الإنسان من الزكاة لأنه فقير فى هذه السنة، ويغنيه الله فلا يأخذ فى العام القادم، بل يصبح فى العام القادم معطيا للزكاة لا آخذاً لها.

هناك أناس من زعماء القبائل العربية: الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى وأمثالهما، كان النبى ﷺ يتألفهم بلعاعة من الدنيا، يعطيهم إياها حتى يرسخ إسلامهم، وتثبت أقدامهم فيه، وتتبعهم قبائلهم.

ظل أبو بكر يفعل هذا معهم، وكذلك ظل عمر، حتى حسن إسلامهم وحسن إسلام قبائلهم معهم، فلم يعد الإمام فى حاجة إلى أن يتألف قلوبهم، ولذلك قال عمر بصريح العبارة: إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم.

الإسلام الذى انتصر على الفرس والروم يتألف مثل هؤلاء الزعماء

الأعراب؟! ما عاد الإسلام فى حاجة إلى أن يتألف هؤلاء، هناك مصارف للزكاة أولى بحصيلتها من هؤلاء.

فعمر لم يسقط السهم لكن لم يوجد المستحق.

نحن فى عصرنا لا يوجد سهم (فى الرقاب) لأنه لا يوجد عبيد ولا إماء، هل نقول إننا عطلنا هذا النص؟ لم نعطله، بل لم يوجد المستحق.

إذا كان هناك فى بلد لا تجمع الزكاة بواسطة (العاملين عليها) وإنما الأفراد هم الذين يعطون الزكاة، يكون سهم العاملين عليها موقوفا وليس معضلا، لأنه ليس موجودا.

جائزة الملك فيصل العالمية فيها خمس جوائز منها جائزة الطب وجائزة العلوم وجائزة الدراسات الإسلامية وجائزة الأدب.. إلخ فى بعض السنوات يقولون: حجبت الجائزة، إذ لم يوجد من يستحقها. لا يقال هنا: ألغيت الجائزة. الجائزة موجودة ولكن لم يوجد بحث يرقى بصاحبه إلى أن يستحق هذه الجائزة، صفة الاستحقاق هى التى امتنعت وانتهت.

فهنا ماذا فعل عمر؟ إنه لم يعد هناك من يستحق أن يكون مؤلفا قلبه، ولكن لم يلغ النص، ولذلك القول الصحيح الذى ذهب إليه المالكية والشافعية والحنابلة وغيرهم: أن سهم المؤلفة باق أبد الدهر، وهذا ما فصّلته وأيدته بالأدلة فى كتابى (فقه الزكاة).[1]

سهم المؤلفة باق، ونحن فى حاجة إليه فى عصرنا لنتألف الناس على الإسلام.

الذين يدخلون فى الإسلام، ويحاربون من أهليهم وذويهم ومن الجماعات التنصيرية فى حاجة إلى أن نتألف قلوبهم، حتى يرسخ إيمانهم.

نحن فى حاجة إلى أن نتألف بعض الزعماء فى بعض البلاد، وزعماء

---

(١) ينظر (فقه الزكاة) القرضاوى: ٢/ ٦٠١ - ٦٠٦.

القبائل، ليدخلوا فى الإسلام، ويدخل معهم من وراءهم، أو على الأقل لا يحاربون من دخل فى الإسلام من أتباعهم.

هذه سياسة شرعية.

فكيف يقال إن عمر أوقف نصا فى كتاب الله، وعطل حدا من حدود الله؟!

عمر كان وقافا عند كتاب الله:

عمر كان من أوصافه: أنه كان وقافا عند كتاب الله، لو ذكر له أحد آية أو حديثا، سرعان ما يرجع عن رأيه إلى النص، حتى إن امرأة ردته وهو على المنبر حينما أراد أن يضع حدا أعلى للمهور فقالت له: كيف تفعل هذا يا أمير المؤمنين والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** ﴾ [النساء: ٢٠] فأشارت الآية إلى أن المهر قد يبلغ قنطارا، فرجع عمر عن رأيه إلى رأيها وقال: (أصابت المرأة وأخطأ عمر). مع أن ما استدلت به المرأة يمكن أن يناقش ويقال: القرآن ذكر هذا على سبيل المبالغة، ولكن عمر عاد عن رأيه إلى رأى المرأة.

لا يمكن لعمر ولا لغير عمر أن يعطل نصا من كتاب الله.

وما فعله فى عام المجاعة من إسقاط حد السرقة، كان ذلك لأن شبهة قامت: أن الناس إذا اشتدت المجاعة وعمت لا يسرقون إلا من حاجة. لا يسرق السارق إلا لأنه جائع يريد أن يشبع بطنه وأن يملأ معدته، والجوع كافر، والجوع لا يرحم.

من أجل ذلك رأى عمر هذه شبهة عامة توجب إيقاف الحد. لم يجب الحد ثم أسقطه عمر، لا، الحد لم يجب أساسا، لم يستوف شروطه، لم تنتف الشبهة، وقد جاء فى الحديث: «أدرأوا الحدود بالشبهات» [1]، «ادرأوا الحدود

---

(١) رواه الحارثي في مسند أبي حنيفة عن ابن عباس مرفوعا وأخرجه ابن السمعاني عن عمر بن عبد العزيز مرسلا) وقال الحافظ ابن حجر: وفي سنده من لا يعرف، وقال أيضا: اشتهر علي الألسنة والمعروف في كتب الحديث أنه من قول عمر بن الخطاب (كشف الخفاء: /٧١ برقم=

عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة » . (١)

وهذا كان في الحجاز فقط، ولكن في مصر أو في الشام أو العراق لم يرد أن الحد أوقف، حيث وجدت المجاعة وجدت الشبهة .

فعمر لم يوقف حدا وجب، لا ، بل الحد لم يجب ولم يقم، لأنه لم يستوف شروطه، ولم تنتف موانعه .

هذا ما فعله عمر رضى الله عنه .

فكيف يأتينا هؤلاء في آخر الزمان، ويقولون : أن في القرآن أحكاما مؤقتة قد بطل زمانها؟ أين هذا الكلام أيها القوم؟

القرآن جاء حجة . الله على الناس، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أحكامه ثابتة، ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ و ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ تخاطب الناس وتخاطب المؤمنين في عهد النبوة، وفي عهد الصحابة، وفي الدولة الأموية، وفي الدولة العباسية، وفي الدولة العثمانية، وفي العصر الحاضر،وبعد العصر الحاضر وبعد عشرين قرناً ، وإلى أن يشاء الله .

أحكام القرآن ثابتة لأنها تمثل أمر الله تعالى ونهيه، ولا يستطيع أحد أن يرد أمر الله تعالى ونهيه . كيف يستطيع المخلوق الضعيف أن يجعل نفسه نداً للخالق

=١٦٦) وذكر البيهقي في المعرفة أنه جاء من حديث علي مرفوعا (فيض القدير للمناوي: ١ /٢٢٧ برقم ٣١٤) .

(١) أخرجه الترمذي في الحدود عن عائشة رضي الله عنها، وقال: حديث عائشة لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث محمد بن ربيعة عن يزيد بن زياد الدمشقي عن الزهري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ، ورواه وكيع عن يزيد بن زياد نحوه ولم يرفعه، ورواية وكيع أصح، وقد روي نحو هذا عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا مثل ذلك، ويزيد بن زياد الدمشقي ضعيف في الحديث ويزيد بن أبي زياد الكوفي أثبت من هذا وأقدم (عارضة الأجوذي: ٦ /١٩٨، ١٩٩) دار الكتب العلمية – بيروت .

وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٤ / ٣٨٤) وقال: صحيح الإسناد، وخالفة الذهبي بأن يزيد بن زياد قال فيه النسائي: شامي متروك .

القوى القادر العليم الحكيم؟ كيف يستطيع الإنسان الضعيف المحدود الإدراك أن يقول لله: أنا أعلم منك بمصالحي ومصالح عبادك؟ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

قدس الأقداس هو القرآن الكريم، ولا يجوز أبدا أن نسمح لأحد أن يتطاول على كتاب الله عز وجل، نحن نقول: إن علينا أن نطبق أحكام القرآن بضوابطها وشروطها.

لا شك أن هناك أناسا من المسلمين أساؤوا استخدام هذه الأحكام، ووضعوها في غير موضعها، وهؤلاء لاشك أن الإسلام حجة عليهم وليسوا هم حجة على الإسلام.

يجب أن ندعو الناس إلى أن يلتزموا أحكام الله بشروطها. إذا وجد من يظلم زوجته الأولى أو الثانية، ولا يرعى حق الله فيها، ولا يقيم العدل، ولا ينفق عليها بالمعروف، فهذا قد خرج على حدود الله، وخرج على أحكام كتاب الله، وكتاب الله حجة عليه.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لازالت الأيام تثبت ما قلناه: أن هذا السلام المزعوم سلام هش، سلام لا يقوم على أسس متينة، ولا على ركائز ركينة، إنما يقوم على ما تريده إسرائيل.

ما تريده إسرائيل هو الذى ينفذ وهو الذى يمضى، وما نريده، لا نعطى منه إلا من ثقب الإبرة. هكذا يقول (نتنياهو) نحن نقرر والفلسطينيون

ينفذون! يقول هذا بكل استعلاء ولا يبالى بأحد. لا يبالى بأمريكا، ولا بأوروبا، ولا بروسيا، ولا بالصين، ولا بالعرب، ولا بالعجم. إنه يقرر وينفذ ما يقرره بل يريد من الفلسطينيين أن ينفذوا ما يقرره هو.

ولذلك قرر أن يقيم مستوطنة فى القدس الشرقية فى جبل (أبو غنيم)، وبعد أيام قليلة سيبدأ التنفيذ، لأننا لا نملك إلا الصراخ.. إلا الاحتجاج، وهذا لا يغير من الواقع شيئا.

لا يمكن أن تخضع إسرائيل إلا لمنطق القوة، لا لقوة المنطق، منطق القوة هو الذى يجبرها على أن تتراجع.

الجهاد فى سبيل الله، الانتفاضة الجديدة، انتفاضة الشباب والأطفال والرجال والنساء، حماس والجهاد والإسلامى وحزب الله، كل هؤلاء هم الذين يجبرون إسرائيل على أن تتراجع.

وقد لا تتراجع اليوم، ولكن على الأقل تبقى الشعلة متقدة لا تنطفئ أبدا حتى نسترد حقوقنا، وحتى لا نسلم فى قدسنا ومسجدنا الأقصى.

هؤلاء لا يريدون أن يبقى لنا شئ، عشرات الآلاف يراد لهم أن يستوطنوا القدس الشرقية، وتبقى هذه الأقلية العربية المسلمة والمسيحية لا تساوى قطرة فى هذا البحر من الإسرائيليين، هذا ما يريده هؤلاء المستكبرون.

ماذا نستطيع أن نقول إلا أننا نرفض هذا، ولا نسلم به، ونقول: نحن أصحاب الحق، وسنظل ندافع عنه، ونقاتل فى سبيله ما دام فينا عرق ينبض ونفس يتردد.

ونحن نعتقد أن الحق منتصر فى النهاية، قد يكون لليهود جولة أو جولتان أو ثلاث، ولكن دولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ**

بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

اللهم انصرنا وانصر بنا، اللهم أعزنا وأعز بنا.

اللهم أعز الإسلام وأيد المسلمين. اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين الغادرين، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين الغادرين، اللهم انصرنا على اليهود المعتدين الغادرين. اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الدين، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأذل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، وأنزل عليهم بأسك الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

اللهم ول أمورنا خيارنا، ولا تول أمورنا شرارنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واجعل هذا البلد آمناً مطمئنا سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد و على آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين».

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

٩ - القمر الصناعى الإسرائيلى

● **الخطبة الأولى:**

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

قرأنا فى هذا الأسبوع نبأ أثار المواجع، وأحزن القلوب. ذلك النبأ الذى لا يزال صداه فى العالم كله، فاجأتنا إسرائيل وفاجأت العالم كله، بأن أطلقت قمرا صناعيا، دخلت عالم الفضاء، وأصبحت ضمن دول ثمانية فى العالم تملك هذا النوع من التكنولوجيا المتطورة.

وإسرائيل حينما تملك قمرا من هذا النوع، لا يمكن إلا أن يكون قمرا للتجسس علينا، سيكشف أرضنا شبرا شبرا، وفترا فترا، سيصور مواقعنا وسيصورأوضاعنا - دون أن تعتمد على أمريكا ولا على غيرها - وجها لوجه هذا ما صنعته إسرائيل.

تذكرت هذ الذى فعلته إسرائيل، وتذكرت أننا كنا فى ذلك الوقت قبل أن نقرأ هذا الخبر، فى الليلة السابقة، فى نقاش طويل وجدل حاد حول التصوير: أهو حلال أم حرام؟!

إسرائيل تصنع قمرا يصور أرضنا وديارنا وكل شئ عندنا، ونحن لا زلنا نتجادل: هل التصوير جائز أم ممنوع؟!

وذكرنى هذا بأمر آخر: العالم الآن انتقل من مرحلة صناعية إلى مرحلة أخرى، نحن فى أواخر عصر الصناعة الثانى. عصر الصناعة الأول هو الذى كانت الآلة فيه توفر الجهد البدنى للإنسان، بدل أن يعمل الإنسان بجسمه وبدنه، الآلة توفر عليه ذلك. بدل أن يمشى على رجليه، يركب السيارة. بدل أن ينسخ بيديه يجد المطبعة توفر له ذلك أضعاف الأضعاف وآلاف الأضعاف.

هذا عصر الصناعة الأول، الثورة الصناعية الأولى كانت مهمتها أن توفر الآلة طاقة الإنسان البدنية.

أما عصر الصناعة الثانى، فمهمة الآلة فيه أن توفر الجهد الذهنى للإنسان، عصر الكمبيوتر، الشئ الذى يمكن أن تعمله فى شهر أو فى سنة يمكن أن يفعله الكمبيوتر فى لحظة. بل إن قدرة هذا الجهاز العجيب (الكمبيوتر) تتضاعف يوما بعد يوم .

هكذا وصل القوم.

ونحن ما دورنا؟ نحن مختلفون : ماذا نسمى هذا الشئ الذى صنعه القوم؟ أهو العقل الالكترونى أم هو الدماغ الإلكترونى؟ أهو الحاسب الآلى؟ أم نسميه الحاسوب؟ أم نسميه المحساب؟أم الحسابة؟ أم نسميه الكمبيوتر؟ أم . . إلخ، هكذا نتجادل .

العالم صار شيئا آخر. ونحن لازلنا (محلك سر) كالثور فى الساقية أو الحمار فى الطاحون، يدور ويدور ويسير ويسير، والمكان الذى انتهى إليه هو الذى بدأ منه، حلقة مفرغة، دائرة لا نخرج منها، لازلنا فى سجن التخلف، لا زالوا يسموننا (البلاد النامية) والبلاد النامية كلمة مهذبة، تعبير ملطف، بدل أن يقولوا (البلاد المتخلفة) يقولون: (النامية) ، مراعاة لمشاعرنا أو لعله إيهام لنا أننا فى طريق النمو.

ونحن لا ننمو بالقدر الكافى، لأننا نحاول أن نلحق بالقوم فنلهث ونلهث، ونركض ونركض، ولكن نجد أن المسافة لا تضيق بمرور الزمن، بل تتسع وتتسع.

إننا نركب حمارا، وهم يركبون حصانا، فإذا ركبنا حصانا ركبوا قطارا أو سيارة، فإذا ركبنا السيارة وجدناهم ركبوا طائرة، فإذا ركبنا الطائرة وجدناهم ركبوا الصاروخ وركبوا مراكب الفضاء، ووصلوا إلى القمر، ثم نحن نقول: هل وصلوا إلى القمر؟ فينا من المشايخ من يقول: لا تصدقوا أنهم وصلوا إلى القمر، هذه خرافات!!

هذا ما لازلنا فيه.

ثم ماذا نصنع نحن؟ إذا ركبنا السيارة، هل نحن صنعنا السيارة؟ وإذا ركبنا الطائرة من أحدث طراز ، فهل نحن الذين صنعناها؟ نحن لم نصنع محركا قط، أى (موتور) نستورده. أعظم صناعة عندنا إذا ارتقت هى صناعة (التجميع) ، نجمع فى ديارنا، ولكن نبعد كل البعد عن (المحركات) وعن هذه الأشياء الأساسية فى الصناعة.

أنحن متقدمون؟

ليس المتقدم هو الذى يركب سيارة من أحدث طراز، إنما هو الذى يصنعها. أنت حينما تركب (المرسيدس) الخمسمائة أو الألف، وتفتخر وتُزهى وتنهب الأرض نهبا، ما قيمتك يا راكب الخمسمائة والألف وأنت لم تصنع فيها ترسا واحدا ؟!

يمكن لمصانع ألمانيا أن تنتج لك ما تريد، وتخرجها باسمك خاصة، وتضع فيها من الكماليات ما لم يوضع لغيرك، لأنها تأخذ نقودك، وتروج بضاعتها.

لسنا متقدمين إذن!

إذا كان غيرنا هو الذى يصنع لنا، لا تظنوا أننا دخلنا أبواب الحضارة ما دام هذا المكبر (المكيرفون) الذى أمامى ليس من صناعتنا، وما دامت هذه (الكاميرا) التى تصورنى أمامكم للتلفزيون ليست من صنع أيدينا والتلفزيون الذى ينقل هذا من المسجد ليس من صناعتنا فنحن لسنا متقدمين نحن مستهلكون لا منتجون، ومستوردون لا منشئون، ومقلدون لا مبتكرون.

فعلينا أن نحزن على أنفسنا، وأن نبكى على أنفسنا، إذا استطاعت إسرائيل أن تطلق قمرا صناعيا، ونحن لازلنا نتغنى بالقمر غناء الشعراء، ولازلنا نختلف فى حكم التصوير: هل يجوز لنا أن نطلق قمرا يصور أو طائرة استطلاع تصور، والتصوير حرام؟! هذه هى حالنا.

لازلنا فى دائرة التخلف ما دمنا لا نصنع بأيدينا ما نحتاج إليه، إنما يصنع ذلك غيرنا، هذا هو التخلف حقا. إذا كنا لا نزرع ما نأكله، ولا نصنع ما نستعمله، فهذا هو التخلف.

للأسف، بلاد المسلمين بلاد زراعية ولكنها تستورد نصف أقواتها من غير المسلمين! لو كفوا أيديهم عنا لمتنا جوعاً فى كثير من بلاد المسلمين. ثم (الماكينات) والأجهزة من صنع غيرنا، والسلاح الذى ندافع به عن أنفسنا من الذى يصنعه لنا؟! استطاعت القوات المسلحة المصرية أن تصنع بعض الأشياء، ولكن لازالت الصناعات الثقيلة فى أيدى غيرنا.

كيف استطاعت إسرائيل أن تفعل هذا كله ونحن لم نفعل شيئا؟ لسنا مستقلين حقيقة، ولاسادة أنفسنا حقيقة، إذا لم يكن سلاحنا من صنع أيدينا.

حكوا أن أحد ملوك المسلمين فى الهند من ملوك المغول، حينما ولى الملك بعد أن نصره الله على المشركين، أرادوا أن يحتفلوا بتتويجه، فكان من مراسم الحفل أن يركب فيلا ضخما مزينا. فجئ له بالفيل وقيل له: اركب هذا الفيل لتمر بالمدينة ويراك الناس. فقال لهم: هذا الفيل من الذى يقوده؟ قالوا له: له سائس هو الذى يقوده، هو الذى يدربه، هو الذى يأمره قال: إذن لا أستطيع أن أركبه. لا أركب مطية زمامها بيد رجل غيرى، هاتوا جوادى، وركب جواده لأنه هو الذى يستطيع أن يسوسه وأن يقوده وأن يحركه. أما أن يركب دابة لا يستطيع أن يوقفها فتقف، ولا أن يحركها فتتحرك ، فلا.

هذا مثال لوضعنا. نحن نستخدم التكنولوجيا التى يصنعها غيرنا، ولذلك لو خربت أو تعطلت ما استطعنا أن نفعل شيئا. فى بعض بلاد الخليج تعطلت محطة كهربائية كبيرة وكان خللاً غير عادى، فتوقفت الحياة فى نصف المدينة، لماذا؟ لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أمام هذا الخلل شيئا، لابد من خبير أجنبى من المصنع الذى صنعها.

تصوروا إذا توقفت الكهرباء فى بلد من بلاد الخليج ماذا يصنع الناس؟ لا تستطيع أن تشغل مكيفا، ولا مروحة، ولا أن تشرب شربة من ماء بارد، ولا أن تجد فى الليل ما يضيئ غرفتك. ولكن لابد من الخواجة، لابد من الخبير. نحن إذن عالة على غيرنا .

ومع هذا أقول لكم شيئا: كنت من عدة أشهر ألقى محاضرة دعيت إليها في جامعة الملك فيصل بالدمام، وكان من الأسئلة العجيبة التى وجهت إليَّ بعد المحاضرة - وكان موضوعها عن (موقفنا من الحضارة) - سؤال يقول: أنت تحدثنا عن الحضارة، وعن التقدم، على حين سمعنا خطبة لأحد الدعاة الدينيين يقول فيها: الحمد لله الذى سخر لنا الإفرنج الكفرة ليشتغلوا بالعلم، وفرغنا نحن لعبادة الله!!!

انظروا غباء هذا الذى زعموه داعية للدين، يحمد الله على أن ملك الأفرنج العلم، وفرغنا نحن للتعبد! اعتبر هذه نعمة، وهى مصيبة، الله يحمد، ولا يحمد على مكروه سواه، ولكن هذه بلية: أن نصبح عالة على غيرنا.

ربنا سبحانه وتعالي يقول: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] ويقول النبى ﷺ: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب فى صنعته الخير، والرامى به، ومنبله...» (١) منبله: الذى يضعه فى القوس أو النبل.

الصانع مثاب، لأنه يوفر للأمة ما تحتاج إليه، ولهذا قال فقهاء المسلمين: إنّ على المسلمين أن يكون لهم من العلوم والصناعات ما يغنيهم عن غيرهم. وهذا يعتبره العلماء من فروض الكفايات. لابدّ أن يكون فى الأمّة من الأطباء والمهندسين والكيماويين والفلكيين والجيولوجيين والفيزيائيين، وجميع أصناف العلوم، وجميع أصناف الصناعات الدنيويّة: المدنيّة والعسكريّة، ما يسدّ الثغرات، ويغطى كلّ الحاجات، ولا يحوج المسلمين إلى أن يمدّوا أيديهم لغيرهم، هذا فرض كفاية على الأمة.

---

(١) رواه أبو داود واللفظ له، والنسائى والحاكم، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، والبيهقى من طريق الحاكم وغيرها، عن عقبة بن عامر رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى: ١ / ٣٨٠، برقم ٦٨٦) قال الشيخ القرضاوى معلقا على الحديث: وفى هذا ترغيب للمسلمين فى إتقان الصناعات الحربية التى تمدهم بالسلاح والذخيرة، حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، وأن فعل هذا بنية الخير لون من العبادة والجهاد يستحق صاحبه الجنة.

ومعنى (فرض الكفاية) : أنّه إذا وُجد عدد كاف من العلماء والخبراء فى الأمّة الإسلاميّة سقط الإثم عنهم، وإذا لم يوجد هذا العدد أثم المسلمون عامّة، باؤوا بالإثم . . بالمعصية . . بالذنب، لأنهّم فرّطوا فى واجب عليهم بالتضامن،أثم المسلمون عامّة وأولو الأمر فيهم خاصّة، لأنهّم مسؤولون، وكلّ راع مسؤل عن رعيتّه « كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته . . »[1] .

نحن المسلمين علينا أن نحاول استدراك ما فاتنا ، وأن نلحق بالركب، لا ندع إسرائيل تتفوّق علينا . ولماذا تتفوّق إسرائيل علينا؟

نحن أكثر من : مائتى مليون من العرب، وألف مليون من المسلمين جميعا .

عندنا قدرة بشريّة هائلة نستطيع أن نفعل بها الكثير.

وعندنا القدرة المادية والاقتصادية، فبلادنا من أعظم بلاد الله من ناحية خصوبة التربة، ومن ناحية وجود البحار والأنهار، ومن ناحية وجود المعادن .

ونحن من الناحية الروحيّة نملك الرسالة العظيمة القادرة على أن تسعد العالم، وهى رسالة الإسلام .

عندنا من مقوّمات السيادة والقدرة، ما يجعلنا نتبوأ مكانتنا تحت الشمس، لو استفدنا ممّا أهّلنا الله له، وممّا وهبنا الله إيّاه . ولكننا لم نستفد، لم نحاول أن نتقدّم، لازلنا ندور حول أنفسنا، لا نراجع أنفسنا ونحاسبها كما هو شأن المؤمن، الذى يحاسب نفسه وينقدها، قبل أن يحاسبه ربه، وهو شأن الجماعات المتحضرة أيضا، وهو ما يسمونه (النقد الذاتى) : هل أثمر نظامنا التعليمى؟ هل أتى أكله؟ أو هو فى حاجة إلى مراجعة؟

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وتتمّته : « والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيّده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٣، برقم ١١٠٨) .

أمريكا تنقد نظامها التعليمى، وكتب أهل الفكر والإصلاح فيها كتاباً أو رسالة تقول: (أمريكا على حافّة الخطر) إذا لم تتدارك نظامها التعليمى. وجاءت بأناس من غيرها.. من اليابانيّين، وقالوا لهم: قولوا لنا رأيكم فى التعليم عندنا – التعليم بعيون غيرنا – ماذا تجدون فيه؟

انظروا: إلى هذا الحد ينقد القوم أنفسهم، ويراجعون سياساتهم.

نحن نخرّج موظفين يجلسون على المكاتب. هل نخرّج علماء وباحثين؟

نحن فى حاجة إلى مراجعة أنظمتنا التعليمية، وفلسفتنا التعليمية، نحن فى حاجة إلى تربية حقيقية.

نحن فى حاجة إلى تطوير أوضاعنا الاجتماعية والثقافية والأخلاقية، بحيث نتيح الفرصة فى أقطارنا للمواهب الشابّة.. للنوابغ من أبنائنا.

للأسف فى كثير من البلاد يُقدّم المنافق.. يُقدّم الثرثار.. يُقدّم المحسوب، ولا يقدم الكفء القادر. كثيراً ما لا يوضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب. الإنسان إذا لم يجد حقّه ولم يجد مكانه، ولم يوضع فى موضعه، كثيراً ما ييأس ويترك قومه ويهجر وطنه، أو ينكمش ويعتزل الحياة، وهو موهبة يمكن أن تنمو، وأن تُنبت، وأن تثمر.

قد حكوا فى أدبنا العربى أنّ عنترة بن شدّاد العبسى، كان أسود اللون، وكان أبوه يحقر شأنه ولا يكاد يعترف به، فكان متروكاً لرعاية الإبل كأنّه أحد العبيد. فلّما أغارت بعض القبائل على بنى عبس وقف عنترة يتفرّج وهو يرعى الجمال، وقد كاد المغيرون يقتحمون الحمى، وينتهكون الحرمات، ويسبون النّساء، ويأخذون الأموال، فقال له أبوه: مَالَك؟ كرْ. قال له: يا أبت، العبد لا يحسن الكرّ، وإنّما يحسن الحلاب والصرّ (أى: العبد ليست مهمّته أن يكرّ ويهجم ويقاتل، إنّما مهمته أن يحلب الإبل والغنم). قال: كرّ وأنت حرّ! فحمل سيفه وركب جواده وتصدّى للمغيرين، فردّهم، وأظهر بطولة أصبحت حديث القبيلة. ثم ظهرت بعد ذلك بطولاته فأصبح حديث العرب كلهم، وحديث الأجيال بعد ذلك، أصبح أسطورة من الأساطير.

ما الذى حدث؟

كان هذا الشاب مدفوناً حينما كان محقوراً، ولم يوضع فى مكانه، فلما اعترف له بحقه - كرّ وأنت حرّ - فعل الأفاعيل، وأظهر الأعاجيب.

أعط للإنسان حقّه، وأعط للنوابغ حقوقهم، هيّء لهم المناخ العلمى، دع الزهرات تتفتّح، افتح النوافذ لكى يستنشق الناس الهواء الطلق. هنا فى مثل هذا المناخ تنمو العقول الذكيّة النّابغة.

نحن للأسف فى بلادنا العربية والإسلاميّة لازلنا نقتل المواهب، ونئد النوابغ. ما أحوجنا إلى جوّ إيجابىّ صحيح يعين على تنشئة العقول النّابهة.

ثمّ إننا لا يمكن أن ندخل عصر التكنولوجيا المتطورّة فرادى، لا يستطيع بلد واحد من بلادنا أن يلحق بالقوم. إسرائيل بمساعدة الغرب - طبعاً - استطاعت أن تصل، ولكن هى التى فرضت على الغرب أن يساعدها، هى التى استطاعت أن تؤثّر فى سياسة أمريكا. ونحن منّا من له أصدقاء وحلفاء من الغرب وحلفاء من الشرق، ولم نستطع أن ننتفع بحلفاء الغرب ولا بحلفاء الشرق.

نستطيع أن نفعل شيئاً إذا تجمعنا، إذا تجمّع العرب وتجمّع المسلمون يستطيعون أن يفعلوا الكثير، إذا صمموّا وأرادوا.

تستطيع باكستان أن تصنع قنبلة. كان الرئيس (ضياء الحق) رحمه الله يسمّيها: القنبلة الإسلامية، يقول: نحن لا نريدها قنبلة باكستانيّة، ولكنّها القنبلة الإسلاميّة.

إذا كانت اليهوديّة قد ملكت القنبلة، والوثنيّة قد ملكت، فلماذا لا يملك الإسلام؟

تستطيع الدول الإسلاميّة أن تصل إلى ما تريد بالتخطيط، والاتحاد، والترابط. أمّا إذا اختلفنا وأراد كلّ منّا أن يدخل الميدان وحده، فهيهات أن يصنع شيئا.

ثمّ هناك أمر آخر: هذه الأمّة أمّة مؤمنة، أى لا يحركها إلاّ الإيمان، الدين هو العنصر الأوّل المؤثّر فيها، إذا قُدتها بـ(لا إله إلاّ الله والله أكبر) صنعت الروائع، صنعت المعجزات، أو ما يشبه المعجزات. انظر إلى ما فعله - من يسمّونهم - أطفال الحجارة، انظر إلى ما صنعه المجاهدون فى أفغانستان، انظر إلى ما صنعه الذين اقتحموا خطّ (بارليف) فى العاشر من رمضان (١٣٩٣ هـ).

الإيمان هو المحرك الأوّل لهذه الأمّة، الإيمان يستطيع أن يجعل من الإنسان طاقة غير عاديّة، وأن يعمل بأضعاف أضعاف طاقته. نحن لا نستطيع أن نلحق بالقوم، وبيننا وبينهم مسافات ومسافات إلاّ من خلال رسالة يؤمن بها الأفراد، فتفجرّ مكنون طاقاتهم.

نحن لسنا أقلّ من القوم، لقد بدأت مصر نهضتها مع (اليابان) أو قبل اليابان بقليل، فانظروا أين اليابان وأين نحن الآن؟! بل انظروا إلى (كوريا(التى بدأت بعد الحرب العالميّة الثانية، ومنتجاتها الآن تغزو أسواق العالم فى أوربا وأمريكا، وأصبحت المنافس الخطر لليابان. انظروا إلى هذه المصنوعات التى تأتينا من (تايوان) و (هونج كونج) وغيرها. ما بالنا نحن؟ أليس لنا عقول كعقول القوم؟ لنا والله، ولكن نحتاج إلى إيمان يحركنا للعمل. إننّا أقلّ بلاد الدنيا عملا، وما رأيت مثل أمتّنا فى تكاسلها عن العمل.

لو أدرك الناس أنّ العمل للدنيا عبادة وجهاد، وأنّ المرء مأجور على كلّ عمل يعمله، لو نفخنا هذه الروح فى الناس، لو قُدناهم فى طريق الإيمان الحق، لو رفعنا أمامهم المصاحف وقلنا: اعملوا لله، واجعلوا حياتكم ومماتكم وصلاتكم ونسككم لله تعالى رب العالمين لا شريك له، لو فعلنا هذا لاستطعنا أن نعوّض كثيراً ممّا فاتنا.

ولكن بعض الناس يظنّ أنّ الدين شىء والدنيا شىء آخر، ولا علاقة للدين بهذه الأمور. كأنّنا ندعو الناس إلى الدروشة، أو البطالة، أو إلى أن يجلسوا فى التكايا أو الزوايا متبطلين، لا، نحن نريد الدين محرّكاً، محرّكاً يستطيع أن يصنع من الإنسان شيئا جديدا وإذا هو انقاد باسم الله، وسار على طريق الله.

نحن قادرون على أن نعوّض ما فاتنا لو أنّ الأمّة سارت سير المؤمنين الصادقين، إنّ الله تعالى علّمنا شيئاً من ناحية القتال.. من الناحية العسكرية: **﴿ ... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾**[1]، بالإيمان والصبر يمكن أن يكون الإنسان قدر غيره بعشر مرآت، تتضاعف طاقته عشر مرات **﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ**

---

(١) الأنفال: ٦٥، وأولها **﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال... ﴾**

عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾، وكذلك فى معركة البناء والتقدم، نستطيع أن نفعل الكثير لو أنّنا استفدنا من هذا.

يا أيها الإخوة :

إنّنا أمام ما فعلته إسرائيل يجب أن نفكرّ ونفكرّ، ونعيد النظر فى حياتنا كلها. إسرائيل تخدم هدفاً، وتقوم على أساس دينىّ، ولا بدّ أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به، إذا حاربونا بالتوراة حاربناهم بالقرآن، إذا قالوا: الهيكل، قلنا: المسجد الأقصى، إذا قالوا التلمود قلنا: صحيح البخارى ومسلم. عندنا ما هو أقوى منهم، ولا يفلّ الحديد إلاّ الحديد وحديدنا أقوى من حديدهم.

اليهوديّة لن تقف أمام الإسلام إذا رُفِع شعاراً، وأصبح محوراً، وعاد محرّكاً، كما كان، للأمّة فى عصورها السابقة.

إنّ انتصار إسرائيل علينا ليس مجافاةً للسنن، لأنّه انتصار للعلم على الجهل، وللعمل على الكسل، وللنظام على الفوضى، وللترابط على التفسّخ، وللاتحاد على الاختلاف.

نحن إذا أردنا أن ننتصر عليهم، فلا بدّ أن نراعى سنن الله لترعانا سنن الله، لا بدّ أن ننصر الله لينصرنا الله، ونصر الله ليس بالكلام، ولا بمجرّد التسبيح والتهليل والتكبير، وإنّما نصره أن نعمل وفق أمر الله، ووفق سنن الله، وبذلك ننتظر النصر، وما ذلك على الله بعزيز **﴿.. وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الروم: ٤ – ٦].

أقول قولى هذا – أيّها الإخوة – وأستغفر الله تعالى لى ولكم فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية :

أمّا بعـد :

فقد جاءنى شاب يخبرنى عن مولود وُجد فى علبة.. فى كارتونة، ووضع أمام باب من أبواب أحد المساجد، ومعه خمسون ريالاً. مولود غضّ طرىّ خرج إلى الدنيا من وقت قريب، ثمّ وضع أمام أحد المساجد !

قال لى: من المسؤول؟ من المسؤول عن هذا الإنسان الذى سيعيش ما شاء الله له أن يعيش فى مرحلة الحياة بدون أب ولا أمّ؟

مولود مجهول النّسب، مقطوع الخيوط والروابط، لا أمّ.. لا أب.. لا إخوة.. لا أعمام.. لا عمّات.. لا خالات.. لا أخوال.

إنسان يعيش بغير أهل ولا رحم، من المسؤول عن هذا الطفل البرىء؟

الطفل لا ذنب له، والإسلام يحميه ويحمى حياته، ويقرّر له فى بيت المال نفقة. وفى كتب الفقه الإسلامى باب مشهور اسمه: باب (اللقيط)، الذى يُلتقط ولا أب له ولا أم. الإسلام يرعاه ويرحمه لأنّه لا ذنب له، بل يحفظ حياته بعد أن يولد وقبل أن يولد.

قد عرفنا المرأة التى زنت وهى حُبلى، وجاءت تسأل النبى ﷺ أن يقيم عليها الحد، فأجّلها، لأنّه إن كان له سبيل عليها فليس له سبيل على ما فى بطنها[1]. ما ذنب ما فى بطنها وإن جاء من حرام؟ ولكنّه مخلوق محترم.

الإسلام يرعى هذا الإنسان، لكن من المسؤول عن حياته؟ إنّها مسؤوليّة الأبوين: الأب الذى ألقى البذرة المحرّمة، قضى شهوته فى الحرام ثمّ لم يبال ما حدث بعد ذلك. والأمّ التى هان عليها أن تلقى وليدها وفلذة كبدها فى عرض الطريق، ولا تدرى ماذا يحدث له بعد ذلك؟ أين يذهب؟ وكيف يعيش؟ ولعلّها من أسرة، ولعلّ لها مالاً، ولعلّ عندها ثراء. ولكن خشية أن تقتل قتلاً مادياً من أهلها، أو تقتل قتلا معنوياً من المجتمع بالفضيحة على رؤوس الأشهاد، تخلّصت من هذا.

إنّها مسؤولية الرجل، ومسؤولية المرأة من غير شك.

ولكنّها مسؤولية المجتمع كذلك، المجتمع الذى يعوّق طريق الحلال، فلا بدّ أن ينحرف الناس إلى الحرام. طريقة الإسلام أن نفتح للحلال ألف باب وباب، وأن نسدّ إلى الحرام كلّ باب.

تيسير الزواج، تيسير الارتباط الحلال، التخلّى عن المظاهر الكاذبة، غلاء المهور، الحفلات، التأثيث الفاخر، هذه الأشياء التى لا معنى لها ولم يجىء بها الإسلام، وإنّما يسّر الإسلام ولم يعسّر. هذه كلّها تنتهى إلى مثل هذه النتيجة.

---

(١) انظر قصتها فى (صحيح مسلم) باب حد الزنا.

قرأت فى بعض كتب التاريخ أنّ رجلاً وجد فى الطريق غلاماً مثل هذا الذى حدثنى عنه الأخ، ومعه صرّة فيها ألف دينار، ومع الصرّة ورقة تقول: هذا جزاء من لا يعجّل بزواج ابنته إذا جاءها من يرضى دينه وخلقه. أبو البنت يبدو أنّه من الأثرياء، لأنّه وضع مع الطفل ألف دينار فى ذلك الوقت، وكأنّ الرجل يخاطب نفسه. لقد أراد أن يستر على ابنته، وتحمّل المسؤولية، وذهب بهذا الطفل إلى باب المسجد كما يفعل النّاس عادة.

هذه إحدى ثمرات البعد عن روح الإسلام، ومنهج الإسلام فى الزواج.

إذا عسّرنا طريق الزواج تكون النتيجة الانحراف، تكون النتيجة أن يعيش الشاب بغير زواج، أو تعيش الفتاة بغير زواج. يعيش الفتيات عوانس فى بيوتهنّ محرومات من الحياة الزوجيّة وهى حقّ لهنّ، محرومات من عاطفة الأمومة وهى حقّ لهنّ، وفطرة فطر الله الإناث عليها.

تكون النتيجة أن يذهب الإنسان ليتزوّج امرأة أجنبيّة من غير دينه ومن غير قومه. وهذه آفة من الآفات أيضا.

أنا – فى عصرنا – لا أجيز أن يتزوّج المسلم بغير مسلمة، لأنّ الإسلام حينما أجاز زواج غير المسلمات إنّما أجاز المحصنات، المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، والمحصنات هنّ العفيفات الشريفات النظيفات، وأين تجد هذه فى غير بلاد المسلمين ومن غير المسلمات ؟!

شرط (الإحصان) قلّما تجده فى بلاد تعيّر البنت بعذريّتها إذا بقيت عذراء، معناه: أنّه ليس لها صديق!

الزواج من أجنبيّة غير مسلمة اشترط له أن تكون محصنة وهيهات، وأن تكون كتابيّة حقّا، ومعظم هؤلاء لا دين لهنّ. إنّهنّ يتسمّين بأنّهنّ نصرانيات – أو غير ذلك – وهنّ فى الحقيقة ليس لهنّ دين، وأهلهنّ ليس لهم دين إلاّ ما ندر، فهى ليست كتابيّة على الحقيقة.

ثمّ يشترط أن لا يكون فى هذا الزواج ضرر على المسلمات. سيّدنا عمر بعث إلى حذيفة بن اليمان بالمدائن وقد تزوّج يهوديّة، قال له: عزمت عليك إلاّ طلّقتها. فبعث إليه يقول: أهو حرام يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن أخشى أن يكون فى ذلك فتنة على نساء المسلمين.

(أن تتزوّج من امرأة أخرى وتترك بنات المسلمين) معناه: أنّك حكمت على بنت مسلمة بالكساد. إذا كان لا بدّ أن تتزوّج، فتزوّج مسلمة، وما أكثر البنات المسلمات.

ثمّ من ناحية أخرى: زواج هذه يعرّض الشخص نفسه للخطر، لماذا؟ سيُنقص من دينه وهو لا يشعر، لأنّه لن يجد المرأة التي تقول له: قم فصلّ الفجر، قم فاقرأ كتاب الله، إيّاك وكسب الحرام. ستكون خطراً على زوجها، خطراً على أولادها لو أنجب منها، لأنّ الأولاد - وخاصّة البنات - يتأثّرون بأمّهم. فإذا كانت من دين غير الدين ولغة غير اللّغة وقوم غير القوم، أصبحت (ثالثة الأثافي)[1] !

إنّ كلّ هذا ناشيء من بُعدنا عن منهج الإسلام، فلنرجع إلى منهج الإسلام، ولنتق الله تبارك وتعالى، عسى الله أن يرحمنا.

اللّم ارحمنا رحمة واسعة. اللهمّ أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

عباد الله، يقول الله تبارك وتعالى: **﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾** [الأحزاب: ٥٦].

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على عبدك ونبيّك محمّد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

---

(١) انظر فتوى الشيخ القرضاوي المطولة حول (زواج المسلم لغير المسلمة) وما ذكره من شروط وضوابط، وذلك في كتابه (فتاوى معاصرة) الجزء الأول ص ٥٦٢ - ٥٧٦

١٠ - العدوان على الكويت [1]

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

أمّا بعد ، فقد حدث ما لم يكن في الحسبان، ووقع ما لم يتصوّره إنسان، وقعت الواقعة، وقع العدوان، على شعب آمن، نام مطمئنّاً ثمّ أصبح فإذا هو مغزوّ في عقر داره، معتدى عليه في وطنه.

ظلم ذوى القربى :

وممّن كان العدوان ؟

لو كان من إسرائيل . . من الصهاينة، لو كان من الشيوعيّين الحمر، لكن الأمر هيّنا، الاعتداء من أهله معقول وممكن، طالما اعتدت إسرائيل، وطالما اعتدى الشيوعيّون، وطالما اعتدى الصليبيّون، ولكن أن يقع العدوان من عربى على عربى ومن مسلم على مسلم، وأن يعتدى عليك بالسلاح الذى اشتراه بمالك، أن يعتدى عليك من أعنته فى وقت الشدّة ووقفت معه فى ساعة العسرة، فهذا هو الأمر الفظيع.

الشاعر العربى الجاهلى قديما (طرفة بن العبد) قال فى معلّقته :

وظلم ذوى القربى أشدّ مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهنّد

أن تُظلم من قريبك ومن أخيك ومن ابن عمّك، وأن يعتدى عليك وأنت لم تقدّم له إلاّ الخير والمعروف، هذه هى المصيبة.

قديماً قال الشاعر:

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له   كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإنّ ابن عمّ المرء - فاعلم - جناحه   وهل ينهض البازى بغير جناح؟!

ولكن الذى يُفترض أن يكون سلاحك، وأن يكون جناحك، هو الذى كان

---

(١) وقع العدوان فى ٢ /٨/ ١٩٩٠ م .

سلاحاً عليك، وكان سهماً فى صدرك، وهو الذى جاء ليهيض جناحك، وينتف ريشك، ويكسر عظامك، كما قال الشاعر قديماً:

وإخــوان حسبتهمو دروعــاً ... فكانوها، ولكن للأعـادى!
وخِلْتُهُمُو سـهاماً صائبات ... فكانوها، ولكن فى فؤادى!

هذا هو الذى وقع.

حينما وقع هذا الأمر كنت فى (لندن) قادماً من أمريكا لإجراء عمليّة جراحيّة، وما إن فتحت (التلفزيون) حتى لم أكد أصدّق، أهذا يحدث؟!

من قبلها فى الليلة السابقة - قال مندوب الجامعة العربيّة: إنّ مجرّد الاحتشاد هذا - أى احتشاد القوات العراقيّة على حدود الكويت - ليس معناه: الاعتداء، هذا لم يحدث فى تاريخ الجامعة العربية، ولم يحدث أن اعتدى بلد عربى على بلد عربى آخر، ومستحيل أن يقع!

ولكن المستحيل حدث ووقع.

لا يحل لمسلم أن يروع مسلما:

رُوِّع الآمنون فى بيوتهم، والنبى ﷺ يقول: «لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلما»[1]. عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال: كنّا مع رسول الله ﷺ فى مسير، فخفق رجل على راحلته [أى نعس] فأخذ رجل سهماً من كنانته [يمازحه]، فانتبه الرجل، ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ لرجل أن يروّع مسلماً»[2]، أى ولو كان ذلك على سبيل المداعبة والمزاح.

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب، وأحمد، من حديث ابن نمير، عن الأعمش عن عبد الله ابن يسار الجهنى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: حدثنا أصحاب رسول الله ﷺ أنّهم كانوا يسيرون مع النبى ﷺ، فنام رجل منهم، وانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه، ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلما»، وإسناده صحيح، وحسّنه الحافظ العراقى (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٠/٢٦٣ - ٢٦٤ برقم ٢٥٧١).

(٢) قال الهيثمى: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، ورجال الكبير ثقات (بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد: برقم ١٠٥٢٩). وانظر تعليق الشيخ القرضاوى على الحديث فى كتاب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٧٣٦ برقم ١٦٨٩).

« لا يحلّ لرجل أن يروّع مسلماً » فكيف بالآلاف، وعشرات الآلاف، ومئات الآلاف، الذين رُوّعوا فى بيوتهم، باتوا آمنين، وأصبحوا خائفين؟!

وروى البزار والطبرانىّ عن عامر بن ربيعة أنّ رجلاً فقد نعله – غيبّها رجل عنه – فصار يبحث عنها، وارتاع لهذا الأمر الصغير، فقال النبى ﷺ : « لا تروّعوا المسلم، فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم » [1] .

ماذا نقول عن هذا الذى حدث؟ والنساء فى بيوتهنّ يخفن أن يأتى آت فيعتدى على أعراضهنّ، والأطفال يختبئون، والناس لا تدرى ماذا يحدث لهم؟

ما الذى جرى؟ ما الذى وقع؟ ما سبب هذا كلّه؟

عدوان لا مبرر له :

ما السبب فى أن يُعتدى على بلد آمن؟

خلافات؟ كلّ الخلافات يمكن أن تُسوّى.

حدود؟ كم طلبت الكويت أن تُسوّى مسألة الحدود، ولكن الآخرين هم الذين يسوّفون.

أموال؟ ديون؟ لم تطالب الكويت بديونها قط.

وكلّ شىء قابل للحلّ.

أمّا أن تبيّت العدوان على أخيك، ويبدو أنّ الأمر مبيّت بليل، من أشهر طويلة، ومن مُدَد طويلة، كما تدلّ على ذلك الشواهد والوقائع.

كنّا نظنّ أن تتجه هذه القوة – التى كان يعتبرها الكثيرون رصيداً للعرب والمسلمين – إلى إسرائيل، وطالما سمعنا التهديدات لإسرائيل، ولكن إسرائيل لم تُضرب إلاّ بالكلام، أمّا الكويت فضربت بالمدافع. كنّا نظنّ أنّ هذه القوة تتجه إلى أعداء الإسلام، وأنّ البندقية العراقيّة تتجه هناك إلى صدر إسرائيل، لا إلى صدور أبناء الكويت.

---

(١) قال الهيثمى : رواه الطبرانى والبزّار وفيه (عاصم بن عبيد الله) وهو ضعيف (بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد : برقم ١٠٥٢٥).

رجعة إلى الجاهلية:

ما الذى حدث ؟

هذا شيء عجيب حقّاً: أن يحدث بين أبناء العرب والمسلمين، هذه هى الجاهليّة الأولى، حينما كان يغير بعضهم على بعض، وكما يقول الشاعر:

وأحياناً على بكرٍ أخينا　　　إذا ما لم نجد إلاّ أخانا

ولكن النبى ﷺ حذّر من فعل الجاهلية وقال:

« لا ترجعوا بعدى كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »(١). « كفّاراً » لأنّ هذا من عمل الكفار ومن عمل الجاهلية. وقال: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر »(٢). هذا ما حذّر منه النبى ﷺ.

بل حذّر ممّا هو أكثر من ذلك، حذّر من مجرّد أن تشهر السلاح على أخيك، وقال: « من سلّ علينا السيف فليس منّا »(٣). ويقول فيما رواه أبو هريرة: « لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنّه لا يدرى لعلّ الشيطان ينزع فى يده، فيقع فى حفرة من النار »(٤)، وفى رواية قال أبو هريرة: قال أبو القاسم ﷺ: « من أشار إلى أخيه بحديدة، فإنّ الملائكة تلعنه حتى ينتهى، وإن كان أخاه لأبيه وأمّه »(٥)، الملائكة تلعنك بمجرّد الإشارة إلى أخيك بالسلاح، فكيف إذا دخلت عليه واحتللت أرضه، وغزوته فى عقر داره؟!

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنّسائى وابن ماجة عن جرير، ورواه أحمد والبخارى وأبو داود والنّسائى وابن ماجة عن ابن عمر، ورواه البخارى والنسائى عن أبى بكرة، ورواه البخارى والترمذى عن ابن عباس (فيض القدير للمناوى: ٦ / ٣٩٤ برقم ٩٧٦٧).

(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنّسائى وابن ماجة عن ابن مسعود، ورواه ابن ماجة عن أبى هريرة وعن سعد، والطبرانى عن عبد الله بن مغفّل وعن عمرو بن النعمان بن مقرن، والدارقطنى فى الأفراد عن جابر (فيض القدير للمناوى: ٤ / ٨٤ برقم ٤٦٣٣).

(٣) رواه أحمد ومسلم، عن سلمة بن الأكوع (فيض القدير للمناوى: ٦ / ١٥٤ برقم ٨٧٥٥).

(٤) رواه البخارى ومسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ / ٧٣٧ برقم ١٦٩١). ومعنى ينزع: أى يرمى ويفسد.

(٥) رواه مسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ / ٧٣٧ برقم ١٦٩٢).

إنّ هذا أمر يرفضه الإسلام، وترفضه الشرائع الدوليّة، وترفضه الأخلاق، وترفضه قيم العرب وأعرافهم من قديم، حتى فى الجاهليّة. لقد كان العربى يتعفّف عن قتل أخيه، حتى ولو كان عنده ثأر، يقول شاعرهم:

قومى همو قتلوا أُميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

فلئن عفوت لأعفُونْ جللا ولئن رميت لأوهِّنْ عظمى

هكذا كان العرب قديماً، رغم ما كانوا فيه من الجاهلية، ولكن كان فيهم مروءات وشيم، وكان فيهم مكارم يعرفونها ويتباهون بها. نجىء نحن فى عصر الإسلام ويعتدى بعضنا على بعض، وتتفرّق الأمّة شيعا، ويذوق بعضها بأس بعض، هذا شرّ ما تُبلَى به أمّة.

من المستفيد من هذه الكارثة؟ :

من المستفيد من هذه المحنة.. الأزمة.. المصيبة.. الكارثة؟ سمّوها ما تسمّونها.

من المستفيد ؟

والله لن يستفد من وراء هذا إلاّ إسرائيل.. الصهاينة.. اليهود.. الصليبيّون.. الشيوعيّون، كلّ أعداء الأمّة العربية والإسلاميّة.

إسرائيل تعربد هناك الآن فى الضفّة الغربيّة وفى لبنان، ولا أحد يردّها، تصول وتجول فى أفريقيا، وليس هناك من يسأل عنها، الكلّ مشغول عنها.

إسرائيل هى المستفيدة. والغرب هو المستفيد أيضاً، هو الذى جمّد الأرصدة (مئات المليارات) لحسابه، هو الذى يبيع لنا أسلحته القديمة، ويجرّب فينا أسلحته الجديدة.

هم المستفيدون. أمّا نحن، فنحن الخاسرون على كلّ صعيد، الخاسرون على كلّ مستوى، نتيجة هذا العدوان الأحمق.. الفاجر.. الذى مزّق الأمّة إرْباً إرْباً.

خسائرنا كثيرة :

١ - التمزّق :

تمزّقت وحدتنا: كنّا نقول أمّة العرب دخلت الآن في عصر التضامن، ودخلت في عصر التلاحم، بعد القمّة التي حدثت في بغداد، ودخول مصر الجامعة العربيّة، بعد أن جمدت عضويتها بعد كامب ديفيد، وقلنا: نحن في عصر جديد.

لم نكد نفرح حتى انقلب العُرس مأتماً.

عادت أغاني العرس رجع نُواح ونعيت بين معالم الأفراح

كُفّنتِ في يوم الزِفاف بثوبه ودفنت عند تبلجّ الإصباح

كما قال شوقي يرثي الخلافة التي ألغاها كمال أتاتورك.

كمال أتاتورك فعل مثل ذلك، بعد أن ظن الناس في يوم من الأيام أنّه خالد التُرك، ولم يدروا أنّ وراءه مؤامرة ملعونة خبيثة لضرب الإسلام والمسلمين، حتى أنّ شوقي رحمه الله قال له في قصيدة :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب !

ظنّ أنّه خالد الترك، وهيهات هيهات.

وهذا في يوم من الأيام زعموا أنّ له قادسيّة كقادسيّة سعد بن أبي وقاص! يا سبحان الله كم تُظلم الحقائق، وتظلم الألفاظ، ويُظلم التاريخ؟! القادسيّة التي كان الهدف منها تحرير الفرس من نير الأكاسرة، ومن عبادة النار، وكما قال أحد الصحابة من المسلمين لقائد قوّات الفرس (رستم) – وقد سأله: ماذا جاء بكم؟ ومن أنتم؟ فقال في عبارات وجيزة لخّص فيها أهدافهم بل أهداف الإسلام الكبرى – : نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام !

هذه هي قادسيّة سعد، فأين القادسيّات المزعومة التي جاءت تفرّق الأمّة، ليحارب بعضها بعضا، ويمزّق بعضها بعضا ؟!

ما معنى أن يحارب العرب الفرس أو يحارب العراق إيران؟ زعموها أحياناً حرباً قوميّة، فقالوا: إنها حرب العرب ضد الفرس، وأحيانا زعموها حرباً مذهبية، فقالوا: إنّها حرب السّنّة ضد الشيعة. وزعموها أحياناً حرباً دينيّة، فقالوا: إنّها حرب المسلمين ضد المجوس.

تصوّروا: جعلوا الإيرانييّن المسلمين مجوساً! وهم الآن يقولون لهم: أنتم المسلمون، وأنت الجارة المسلَمة، وأنت الأخ والشقيق.

أين كان هذا كلّه؟

وللأسف حطب الكثيرون فى هذا الحبل، وساروا فى هذا الركاب، وأعانوا الظالم على ظلمه.

الحمد لله، أنّى لم أتورّط فى شىء من هذا قط، ولا بموقف واحد، ولا بكلمة واحدة.

كنت أدعو من فوق هذا المنبر – طوال شهر رمضان – أن ينصر الله المجاهدين فى فلسطين، والمجاهدين فى أفغانستان، والمجاهدين فى السودان والمجاهدين فى إريتريا، والمجاهدين فى الفلبين، والمجاهدين فى كشمير، وقال لى سفير العراق هنا فى الدوحة – وبينى وبينه مجاملة ومودّة – : تدعو للناس فى كل مكان إلاّ العراق؟ قلت له: أنا أدعو أن ينصر الله الفلسطينييّن على اليهود، وأدعو أن ينصر الأفغان على الشيوعييّن الملحدين الحمر، وأدعو أن ينصر الله الفلبينييّن والسودانيين والإريترييّن على الصليبييّن الحاقدين المتعصبين، فكيف أدعو للعراق؟ أن ينصر الله المسلمين على المسلمين؟! ولماذا كان العراق أحقّ من إيران؟

الذى كسبناه اليوم من هذا العدوان: تمزيق الأمّة العربية، التى انقسمت إلى محاور مختلفة: هذا يؤيّد، وهذا يعارض، وهذا بين بين. هناك من يفعل ذلك خوفاً، وهناك من يفعل ذلك طمعاً فى الغنائم، وهناك من التبس عليه الأمر. هناك من سكت عن الحق، وهناك من نطق بالباطل. هناك الشياطين الخرس، وهناك الشياطين المتكلّمون. اختلط الحابل بالنّابل، هذا ما حدث.

الأمّة تمزّقت، وشرّ ما تُبتلى به الأمّة أن تتمزّق، إن الله تعالى جعل ذلك

عقوبة كالعقوبات السماويّة كالخسف والمسخ: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ [قصف بحجارة من سجّيل] أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ [يخسف بكم الأرض كما خسف بقارون] أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

أوّل خسائرنا هذا التمزّق، بعد أن كنّا نقول: دخلنا عصر التضامن، والتلاحم.

٢ - الأحقاد:

وأكثر من هذا: الأحقاد التى غرست فى النفوس الآن، ولا ندرى إلى متى ستظل فى الجيل الحالى والأجيال القادمة؟ متى تُزال هذه الرواسب التى بُذرت بذورها وزُرعت؟ الشاعر العربى يقول:

إنّ القلوب إذا تنافر ودّها ... مثل الزجاجة كسرها لا يُشعب

الحقد « .. والبغضاء، والبغضاء هى الحالقة، أما إنّى لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين »(١).

٣ - تدمير الثروة:

الثروة التى كان ينبغى أن تتوجه إلى تنمية هذه الأمّة وتعمير خرابها، وإخراجها من دائرة التخلّف. المليارات وعشرات المليارات كان ينبغى أن توجّه لتنمية هذه المنطقة كلّها، وتنمية الأمّة العربية والمسلمة، فالمال لها جميعاً، والثروة إليها، والناس مستخلفون فى هذا المال، ولكن يبدو أنّ هناك مؤامرة ماكرة خبيثة، تريد لهذا المال أن لا ينفق إلاّ فيما لا فائدة فيه ولا نفع منه، بل فيما يضرها يقينا.

اخترعت حرب العراق وإيران، فالتهمت مئات المليارات، فوق ما التهمت

---

(١) رواه البزّار بإسناد جيّد، والبيهقى، ورواه الترمذى، عن الزبير رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٧٥٣ برقم ١٧٤٦) وأوّله: « دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد ...» وانظر (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٣/١١٧ برقم ٣٥٣٨).

من أجساد البشر. ثمّ ها هى تخترع الآن هـذه القصّـة الجـديدة، لتدمرّ ثروة هـذه الأمّة.

ماذا سينفق فى هذه الحرب الخاسرة بكلّ المقاييس؟

نحن الخاسرون فيـها، الأسلحة ستضرب بعضنا ببعض، سواء ضربت صواريخ أم أسلحة كيماويّة، من هذا الطرف أم من ذاك، كلّها فى الأرض العربية الإسلاميّة.

من المسؤول عن هذا كلّه ؟

ثروتنا تُدمرّ، وكان الأولى بها أن تنفق فى الخير. وأنا أشهد والله للكويت أنّها لم تبخل على مشروع من مشروعات الخير: الهيئة الخيريّة الإسلاميّة العالميّة أسّسناها فى الكويت، لجنة مسلمى افريقيا التى أقامت إذاعة إسلاميّة فى (سيراليون)، يسمعها عشرات ومئات الملايين فى أفريقيا، وقامت بنشر الدعوة الإسلاميّة، ومقاومة حملات التنصير، لجنة الدعوة والإصلاح التى تدعم الجهاد الأفغانى، جمعيّة عبد الله النّورى الخيريّة، جمعيّة إحياء التراث الإسلامى التى بنت عشرات المساجد، جمعيّة الإصلاح الاجتماعى، بيت الزكاة، الهيئة العالميّة لقضايا الزكاة، المنظمة الإسلاميّة للعلوم الطبيّة التى تجمع بين الفقهاء والأطباء، وأصدرت منشورات عديدة وكتبا ومجلّدات فى غاية من القيمة، وزارة الأوقاف وما أصدرته من الموسوعة الفقهيّة التى صدر منها أكثر من أربعة وعشرين مجلّداً، وأصدرت عدداً طيباً من كتب التراث الأصيلة.

ماذا أقول وماذا أحكى ؟ أشياء كثيرة.

من ذهب إلى آسيا وأفريقيا وجد أثر الكويت هناك، ويمكن أن تبذل أكثر وأكثر، إضافة إلى ما تبذله أيضاً من سلاسل ثقافيّة وفكريّة: مجلّة العربى، ومجلة الوعى الإسلامى، وغير ذلك.

إذا نظرنا إلى الكويت من ناحية الشورى والحرية، فهى من أكثر بلاد العرب والمسلمين حرية، أقول لكم الحق فى هذا، الصحافة الكويتية صحافة حرّة،

البرلمان الكويتى، والديوانيات الكويتية تعتبر كأنها برلمانات صغيرة. الكويت من أحسن البلاد فى هذا، لم تصل إلى القمة كدول أوربّا الغربية، ولكن بالنسّبة لما يجرى فى بلادنا العربية هى أفضل من غيرها بلا نزاع.

لماذا إذن العدوان على الكويت ؟

إنّ نتيجة هذا كلّه : تدمير الثروة.

٤ – تدمير القيم :

وأشدّ من تدمير الثروة: تدمير القيم، القيم المعنويّة، قيم الأخوّة والرحم والجوار والوفاء. ماذا نقول لأبنائنا وأحفادنا حينما نتكلّم عن حقوق الرحم، أو حقوق الجوار، أو حقوق العروبة، أو حقوق الإسلام؟ ماذا نقول لهم، وهذا كلّه قد مُسخ؟ ماذا نحدثّهم عن الوفاء؟ أين الوفاء إذا غدرت بمن وفى لك، واعتديت على من وقف معك ساعة الشدّة؟ أين الأخوّة؟ وأين الرحم؟ وأين الجوار؟ وأين العروبة؟ وأين الإسلام؟ مادام أخى هو الذى يقاتلنى ويغير علىّ، وليس عدوّى؟

٥ – اليأس :

اليأس وخيبة الأمل التى أصابت هذه الأمّة، والكفر بالعرب والعروبة. أصبح السائد على كلّ لسان: انّ العرب لا يصلحون لشىء، إنّهم يضرب بعضهم بعضا، ويقتل بعضهم بعضا، والعرب مظلومون، والشعوب مظلومة، المسؤوليّة مسؤوليّة الحكّام.

أنا لا أحمّل الشعب العراقى كلّه مسؤوليّة ما حدث، وإن كان كثيرون منه قد غُسلت أمخاخهم، وضلّلت عقولهم، كما رأينا فى بلاد أخرى من قبل، وعهود أخرى من قبل. لا أحمّل الشعب العراقى نتيجة ما فعل حكّامه، ولا أحمّل الشعب الفلسطينى نتيجة تصرّفات بعض قادته، لا أحمّل الشعوب نتيجة أخطاء ساستها، الشعوب فيها خير كثير، ولهذا رأينا هذه الصحوة الإسلاميّة فى كلّ مكان، وكأنّ هذه العمليّات يُراد بها إجهاض هذه الصحوة وإيقافها. وقد حدثنى بعض الإخوة فى أمريكا: أنّ واحداً من قادة الحزب الجمهورى – فى

جلسة خاصّة - قال له : إذا كان لهذا العدوان فضل، فإنّه أراحنا من الأصوليّين الذين اتخذوا الكويت وكْراً لهم !

إنّها أحقاد صليبيّة تظهر على صفحات الوجوه وفلتات الألسن ، ﴿ .. وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. ﴾ [محمّد: ٣٠].

٦ - شماتة الأعداء :

الشاعر العربى يقول :

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى   وتهون غير شماتة الأعداء

والنبى ﷺ ممّا أثر من أدعيته : «اللهمّ إنّى أعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء» (١).

إنّ إسرائيل تتشفّى وتشمت بنا اليوم، لقد رأيت أحد المسؤولين الإسرائيليّين فى تلفزيون بريطانيا وهو يقول: هذا ما قلناه من قديم، إنّ مشكلة الشرق الأوسط ليست الصراع العربى الإسرائيلى، ولكن المشكلة تكمن فى الصراع العربى العربى !

ليتشفّوا بنا، ليشمتوا بنا، نحن الذين مكّنّاهم.

٧ - الانشغال عن قضايانا الكبرى :

كنّا نتحدث عن الانتفاضة الفلسطينيّة، وعن ثورة المساجد، وعن أشبال الحجارة، وعن الأطفال الذين يقاتلون الصهيونيّة. وكنّا نتحدث عن الهجرة اليهوديّة، وعن هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين، وعن هذه المؤامرة المبيّتة التى تريد أن تخرج الناس من ديارهم وتحلّ غيرهم مكانهم. كنّا نقيم الدنيا من أجل هذا.

انتهى هذا، وشُغلنا عنه بهذه المصيبة، وغطّت على قضايا الجهاد كلّها.

---

(١) قال الزين العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: متفق عليه من حديث أبى هريرة (١/٣٢٢).

٨ - وجود القوات الأجنبيّة :

من المتسبّب فى هذا؟ كانت المنطقة كلّها ترفض أن تكون هناك قواعد للجنود الأجانب، طُلب منها ذلك فى بعض الأحيان، رفضت الكويت، ورفضت المملكة العربية السعودية، ورفضت قطر، ورفضت البحرين، ورفضت الإمارات. والآن حانت الفرصة لذلك، ووُجد المبرّر، وجاءت هذه الأساطيل البريّة والبحريّة والجويّة، لتحتل المنطقه وتتحكم فيها.

من المسؤول عن هذا الاحتلال الجديد، الذى أعاد القوات العسكرية الأجنبية إلى المنطقة بعد أن تحررت منها، والذى جعل حكام المنطقة يطلبونه بأنفسهم؟ من المسئول عن هذا كله؟ من المسئول عن هذه الخسائر؟ ماذا أعدّد من خسائر، ومن كوارث، ومن مصائب، حلّت بنا نتيجة هذا العدوان؟

إنّها خسائر كثيرة وكبيرة، مادية ومعنوية، آنية ومستقبلية، وما خفى أعظم، وما ينتظرنا لا يعلمه إلاّ الله.

لو انفجر الموقف، لو انطلقت الشرارة، لو استعرت النّار، من سيصطلى بها؟ سنصطلى بها كلّنا. وإسرائيل تتفرّج علينا ضاحكة السن، تضحك ملء سنّها، وتنام ملء جفنها، لا تبالى، مبسوطة مسرورة.

يقولون: إنّ إسرائيل ستتدخّل. وما الذى يدعوها لأن تتدخل؟ لا، هى لن تتدخل، يكفيها أن تتفرّج علينا.

خسائرنا كبيرة، وكبيرة جداً.

مسؤولية الساكتين عن الظلم :

يا أيّها الإخوة: مصيبة حلّت بهذه الأمّة، نتيجة لسكوتنا عن ظلم سابق: ضُرب إخواننا الأكراد بالأسلحة الكيماويّة، أبيدت - كما حدثنى أحد علماء الأكراد - أكثر من عشرة آلاف قرية فى منطقة حلبجة، قُتل من أهلها من قُتل، وهاجر منها من هاجر. أكثر من عشرة آلاف قرية فيها أكثر من عشرين ألف مسجد دُمّرت، وقتل خمسة وعشرون عالماً رفضوا أن يتركوا المساجد، واستشهدوا فى داخلها.

هذا ما حدث. هل تحدّث أحد؟ الأفلام تحدثت عنها، وتلفزيونات العالم، إلاّ العرب لم يتحدّثوا عنها.

لو أنّنا كنّا كما علّمنا النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يارسول الله، نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إيّاه»(١). ولكنّنا ركنّا إلى الذين ظلموا فمسّتنا النّار، سكتنا عن الظلم وساندناه. والنبي ﷺ يقول: «إنّ النّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده»(٢)، ويقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، لأنّ الرحمة تخص والنّقمة تعمّ، العقاب ينزل على من ظلم وعلى من تغاضى عن الظلم وسكت عنه.

من المسؤول؟:

من المسؤول عن كلّ هذا الذى أصاب هذه الأمّة؟ من المسؤول عن الآمنين الذين روّعوا؟ من المسؤول عن الأموال التى نهبت؟ من المسؤول عن النّساء اللاّتى اغتُصبت؟ من المسؤول عن الحرمات التى انتكهت؟ من المسؤول عن الأعراض التى هتكت؟ من المسؤول عن الشاردين التائهين الذين ماتوا فى الصحراء، نفد الوقود من سيّاراتهم، ونفد الزاد من أيديهم ونفد الماء من قربهم؟ من المسؤول عن الأطفال الصغار فى تلك الطرق الصحراويّة الذين كانوا يلهثون من العطش، يبكون أمام الآباء والأمهات، من أجل جرعة ترويهم فلا يجدونها؟ من المسؤول عن عشرات الآلاف، ومئات الآلاف الذين خرجوا من الكويت، وقد تركوا (تحويشة العمر)، تركوا مدّخراتهم، تركوا أثاثهم، تركوا متاعهم، وخرجوا بملابسهم، وليتهم يصلون إلى أوطانهم سالمين؟ من المسؤول عن هذا كلّه، وعن أكثر من هذا كلّه ؟

---

(١) متفق على صحته من حديث أنس رضى الله عنه (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٣ /٩٧ برقم ٣٥١٦).

(٢) رواه أبو داود، والترمذى عن أبى بكر وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، والنّسائى، وابن حبان فى صحيحه، ورواه أحمد فى مسنده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ /٦٤٣ برقم ١٣٧٥).

إنّ المسؤول هو من قام بالعدوان .

وإذا كان هناك أناس يركّزون على التدخل الأجنبى فى المنطقة وعلى الوجود العسكرى، فالمسؤول عن هذا أيضا هو من قام بالعدوان ومن بدأ الشرّ، والشر بالشر يُحسم، والبادىء أظلم .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والشرّ إن تلقه بالخير ضقت به   ذرعاً ، وإن تلقه بالشرّ ينحسم

المسؤول عن هذا هو من قام بالعدوان، التاريخ يحمّلة المسؤوليّة عمّا حدث، لولا هذا ما دخل عسكرىّ واحد إلى هذه المنطقة .

هل فات الأوان ؟

هل فات الأوان ؟ لم يفت الأوان بعد .

لو أنّ الناس استمعوا لصوت العقل، وصوت الضمير، وصوت الإسلام، وصوت العروبة، لو أنّنا ناشدناهم الله فاستمعوا . كما روى النّسائى أنّ رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله، أرأيت إن عُدى على مالى، قال : « فانشدْ بالله » قال : فإن أبوا علىّ؟ قال : « فانشُدْ بالله » قال : فإن أبوا علىّ؟ قال : « فانشُدْ بالله » قال : فإن أبوا علىّ؟ قال : « فقاتل، فإن قُتلت ففى الجنّة، وإن قَتلت ففى النّار »[1] .

وفى رواية أخرى : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال : « فلا تعطه مالك » قال : أرأيت إن قاتلنى؟ قال : « قاتله »، قال : أرأيت إن قتلنى؟ قال : « فأنت شهيد »، قا : أرأيت إن قتلته؟ قال : « هو فى النّار » [2] .

---

(١) رواه النّسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه، وانظر تعليق الشيخ القرضاوى عليه فى كتابه : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ /٤١٣ برقم ٧٧١) .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٤١٣/١ برقم ٧٧١) .

وروى سعيد بن زيد عن النبى ﷺ : « من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[1] . الإنسان مطالب أن يدافع عن عرضه وماله ودمه ودينه، ولا يستسلم للبغاة والمعَتدين، وإن أدّى ذلك إلى قتالهم، فإن قُتل فهو شهيد وإن قتلهم فهم فى النّار. ولكن بعد أن ينشد بالله، يقول: أنشدك الله.

ولا زلنا نقول لحاكم العراق ولنظام العراق ونكرر القول: ننشدكم الله، ثم ننشدكم الله! ننشدكم الله فى هذه الأمّة، قبل أن تندلع الحرب المدمّرة، فتأكل الأخضر واليابس. وما ذنب الآمنين؟ ما ذنب الشعوب؟ ما ذنب النّلس؟ ماذا ستجنى هذه الأمّة من وراء ذلك؟

ننشد الله حكام العراق أن يستجيبوا لصوت العروبة والإسلام، والخلق والدين، والرحم والجوار، والقوانين الدوليّة، وينسحبوا من الكويت.

لقد كان حاكم العراق جريئاً حينما فجرّ الأزمة، فليكن شجاعاً فينهيها. لقد قدر على إشعال النّار، فليكن قادراً على إطفائها، وسيسجّل ذلك التاريخ له بإكبار. لقد وجد من الجرأة أن ينهى آثار حرب استمرت ثمانى سنوات، ثمّ تنازل فيها عن كل شيء، وأعلن أنّها لم تكن حرباً عادلة. إذا واتته الجرأة لذلك فليفعل ذلك بالنسبة لبلد عربى مسلم جار.

يقول: إن الكويت جزء منه، حتى لو كان جزءاً منه، هذه (تايوان) جزء من الصين - التى عددها أكثر من ألف مليون - ولا يعترف بها أحد، ومع هذا نرى الصين لم تفكّر فى أخذها بالقوّة. (هونج كونج) جزء من الصين، ومع هذا لم تفكر فى أخذها بالقوة، وتحترم المعاهدات التي بينها وبين بريطانيا حتى تنتهى.

---

(١) رواه أحمد (١ / ١٩٠) والنّسائى (٧ / ١١٦) والترمذى (١٤٥٥) كلهم من حديث سعيد بن زيد.

وقال شعيب الأرناؤوط فى تعليقه على مسند أحمد: إسناده قوى وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود برقم (٤٧٧٢).

القول بالضمّ بالقوّة هذا يعطي حجّة لإسرائيل، هى المستفيد الوحيد الذى يرى أنّ الضمّ بالقوّة لما تزعمه حقاً لها من الحقوق التاريخيّة.

الشام كانت بلداً واحداً طوال التاريخ، لم يكن هناك سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، هل معنى هذا أن نمكّن سوريّا لتأخذ لبنان وتأخذ الأردن؟ هل نتيح للقوى أن يبتلع الضعيف، ولكل بلد أن يأخذ الأصغر منه؟ مصر تأخذ ليبيا، والمغرب تأخذ موريتانيا، والجزائر تأخذ تونس، وهكذا، هل هذا منطق؟ هذا منطق الغاب، وقانون المخلب والناب.

نحن نناشد هؤلاء الحكام أن يتقوا الله فى هذه الأمّة، إنّنا نخاف من المصير الأسود الذى لا نكسب منه إلاّ الدمار والخراب. نناشد هؤلاء أن يراجعوا أنفسهم، وأن يكونوا شجعاناً ويعلنوها صريحة، هذه هى الشجاعة الحقّة، الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل. الشجاعة حقا أن يعترف الإنسان بخطئه، والاعتراف يهدم الاقتراف.

إنّ الذى أصابنا – أيها الإخوة – إنما كان من جرّاء شىء واحد، هو: بعدنا عن الإسلام. بعُدنا عن الإسلام، فأصابنا ما أصابنا. لو أنّ العرب من يوم أن حدث هذا العدوان رجعوا إلى الإسلام وإلى القرآن الذى يقول: ﴿ .. **فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (١) – هذا فى حالة اقتتال طائفتين نصلح بينهما حتى يكفّ كل منهما عن صاحبه، ويغمد سيفه، لأنه لا يجوز لمسلم أن يسفك دم مسلم آخر، فإذا حدث هذا لابدّ أن نحاجز بين الفريقين ونصلح بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى بعد هذه المحاجزة، وهذا الإصلاح، نقاتل الفئة الباغية المعتدية الظالمة. ومن باب أولى إذا لم يحدث اقتتال، وحدث بغى من أول الأمر، بغت الطائفة القويّة على الضعيفة، فالمفروض فى المسلمين أن يقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله، لابّد أن يقف الناس بقوّة أمام العدوان – لو أنهّم فعلوا ذلك، لو أنّ الشارع العربى المسلم قام عن بكرة أبيه من المحيط إلى الخليج، أو من المحيط إلى المحيط، ونادى بصوت واحد، وبصوت

---

(١) الحجرات: ٩، وأوّلها: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ... ﴾.

جهير يبلغ عنان السماء: ارجعوا أيّها المغيرون.. أيّها المعتدون على إخوانكم، لو وقف النّاس وقفة رجل واحد، لكانوا قد راجعوا أنفسهم، ولكن حدث ما حدث، حدث هذا الانقسام المريب.. الانقسام المؤسف والمؤلم.

على كلّ حال سيبقى الإسلام هو طوق النجّاة، وسفينته الإنقاذ لهذه الأمّة، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمة ينبغى أن نعيها ونرويها للأجيال دائماً، قال: نحن قوم أعزنّا الله بالإسلام، فمهما نلتمس العزّة بغيره أذلنّا الله.

أقول قولى هذا - أيها الإخوة - وأستغفر الله تعالى لى ولكم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

وبعد ، أيّها الإخوة :

من سنّة رسول الله ﷺ أنّه كان يقنت فى النّوازل، ويدعو الله تبارك وتعالى فى صلواته للمسلمين المستضعفين فى مكّة أن ينقذهم الله من محنتهم، وكان يدعو على من ظلمهم وعلى من أذلّهم من المشركين. ولذلك ذهب الكثيرون من الفقهاء إلى استحباب القنوت فى ساعات النّوازل.

ونحن فى نازلة كبيرة لم تر الأمّة مثلها، نحن فى كارثة لم تصب أمتنا بمثلها من عهد بعيد، ولهذا نقنت إن شاء الله بعد القيام من الركوع فى الركعة الثانية، وندعو الله سبحانه وتعالى، عسى أن يكون فينا رجل صالح يستجيب الله تعالى له .إنّنا فى محنة، نسأل الله تبارك وتعالى أن يخرج المسلمين منها، ومن هذا المـأزق الصعب، ومن هذه الكارثة التى حلت بهم، وأن يجمع الكلمة على الهدى والقلوب على التقى والعزائم على عمل الخير وخير العمل.

إنّى أطلب من المسلمين أن يدعوا الله بأن يفرج الكربة، وأن يكشف الغمّة، وأطلب من الأئمة والخطباء أن يقنتوا قنوت النّوازل، فإن الله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل لنا من همّنا فرجا، ومن ضيقنا مخرجا، ومن عسرنا يسرا، ومن محنتنا منحة، وأن يجزى الذين تسببوا فى هذا، وأن يهّيء لنا من أمرنا رشدا.

* * *

١١ - حقائق حول أزمة الخليج

● **الخطبة الأولى:**

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

فتن يرقق بعضها بعضا :

نعيش هذه الأيام مآسى فى حياة المسلمين، مآسى وفتناً تدع الحليم حيران، إنها فتن – كما ذكر النبى ﷺ(١) – يرقق بعضها بعضا، أى أنّ الفتنة تأتى ويقول المؤمن: هذه مهلكتى، فتأتى فتنة أشدّ منها، بحيث تبدو السابقة رقيقة وهيّنة بالنّسبة لما بعدها.

نحن فى عصر فتن تذر الحليم حيران، هذه الفتن جعلتنا اليوم ننظر إلى هذه المآسى وقلوبنا تتقطّع حسرات، وأعيننا تذرف العبرات:

المسجد الأقصى يُعتدى عليه وتقوم فيه مذبحة تُراق فيها الدماء، وتنتهك فيها الحرمات، ويمنع المصلّون المسلمون من أداء الصلوات داخل المسجد. ومع هذا لا يتحرّك المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها.

اليهود يعملون لهدم المسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث المسجدين العظيمين، يعملون لهدمه وبناء الهيكل المزعوم على أنقاضه، فأين المسلمون؟ وأين العرب؟ إنّهم مشغولون بأنفسهم، بأسهم بينهم شديد.

لم أعجب إذا كان هناك من يريد أن يهدم مسجداً فى الهند، ليبنى على أنقاضه معبداً للإله عندهم. إذا كان المسجد الأقصى نفسه مهدّداً، فكيف لا تهدّد بقيّة مساجد المسلمين؟!

عشرات الآلاف من المسلمين فى (سيرلانكا) يغادرون بيوتهم مهاجرين،

---

(١) رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (١٨٤٤)، ورواه أحمد من حديثه أيضاً (٢/١٦١).

لأنّ هناك من المتعصبين (التاميل) من يريدون أن تخلو المنطقة لهم، ولا يبقى فيها مسلم. هل احتجّ على هذا أحد؟

أرخص دم فى الأرض هو الدم المسلم!

أهون المعابد هى المعابد المسلمة!

ذاق بعضنا بأس بعض :

لماذا؟ لأننا مشغولون بأنفسنا. بدل أن كنا نتجه بمدافعناوبنادقنا وأسلحتنا إلى عدّونا الحقيقى، وجّهناها بعضنا إلى بعض. أصبح البأس بيننا شديدا، الله تعالى جعل من العقوبات القدريّة للأمّة أن يكون بأسها بينها: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ** [كما بعث على قوم لوط حجارة من سجّيل] **أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** [أى يخسف بكم الأرض كما خسف بقارون وغيره] **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ...** ﴾ [الأنعام: ٦٥]، يجعلكم شيعاً متفرّقة، يكيد بعضها لبعض، ويذوق بعضها بأس بعض،، وهذا ما نعيش فيه.

صلّى رسول الله ﷺ صلاة فأطالها، قالوا: يارسول الله صلّيت صلاة لم تكن تصلّيها، قال: «أجل، إنّها صلاة رغبة ورهبة، إنّى سألت الله فيها ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة: سألته أن لا يهلك أمتّى بسنة [أى بالمجاعات] فأعطانيها، وسألته أن لا يسلّط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها»[1].

وفى رواية: «.. وإنّ ربى قال: يامحمّد إنّى إذا قضيت قضاء فإنّه لا يرد، وإنّى أعطيتك لأمّتك ألاّ أهلكهم بسنة عامّة، ولا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها، أو قال: من بين

---

(١) رواه الترمذى عن خبّاب بن الأرت، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. انظر (عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى: أبواب الفتن، سؤال النبى ثلاثاً فى أمته).

أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبى بعضهم بعضا»[1]، هكذا تُسلّط الأمّة على أنفسها. وهذا ما نراه: أمّة يُسلّط بعضها على بعض، الأسلحة التى ظنّها بعض الناس أنها رصيد للأمّة أصبحت موجهة إلى صدور بعض أبنائها.

لن أكون عوناً لظالم :

قال لى واحد من النّاس: لقد خطبت خطبة منذ شهرين، وتحيّزت فيها للخليج ضدّ العراق. قلت: معاذ الله، ما كنت متحيّزاً ولن أكون متحيّزاً. أنا لا أعرف خليجاً ولا عراقاً، إنّما أعرف ظالماً ومظلوما، أعرف معتدياً ومعتدى عليه. أنا ضدّ الظالم أيّاً كان هذا الظالم، وأنا مع المظلوم أيّاً كان هذا المظلوم. علّمنى ذلك الإسلام وعلّمتنى الحياة، أكتويت بنار الطغاة والظالمين، ولذلك أقول ما قال كليم الله موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧].

لن أكون يوماً ظالماً ولا عوناً لظالم، فإنّ أعوان الظلمة كلاب النّار، لا ينبغى للمسلم أن يظلم ولا ينبغى له أن يكون سوطاً فى يد ظالم أو أداة لخدمة ظالم.

حملة الإسلام على الظلم والظالمين :

إنّ الله حرّم الظلم على نفسه وحرّمه على عباده، وقال فى الحديث القدسى: «يا عبادى إنّى حرّمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا...»[2]. إنّ الله لا يحب الظالمين، ولا يهدى القوم الظالمين، ﴿ .. إِنَّهُ لا

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجة، وأحمد، عن ثوبان رضى الله عنه، وأوّله: «إنّ الله زوى لى الأرض [أى جمعها وقبضها]، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتّى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإنّى سألت ربى لأمّتى ألاّ يهلكها بسنة عامّة، وألاّ يسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم...».
(شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٤/٢١٥ - ٢١٦ برقم ٤٠١٥).

(٢) قطعة من الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر الغفارىّ رضى الله عنه، وهو الحديث الرابع والعشرون من الأربعين النّووية.

يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥ ، يوسف: ٢٣]، ﴿.. وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ [طه: ١١١].

ليس هناك دين كالإسلام حمل على الظلم والظالمين، كما حمل القرآن الكريم والسّنّة النبويّة المطهّرة. «إنّ الله يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته»(١) هكذا قال النبي ﷺ ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

من سنن الله تعالى:

أن بعض المعاصي تُعجل عقوبتها فى الدنيا قبل الآخرة، ومن ذلك الظلم والبغى، فإنّ البغى مرتعه وخيم، وعلى الباغى تدور الدوائر، ﴿.. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

الظلم مرتعه وخيم، فلا ينبغى أن نقف مع الظالم يوما.

شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنّ الله يبقى الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ويزيل الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة!

فالعدل إن دام عمرّ، والظلم إن دام دمرّ. الظلم سبب خراب البيوت العامرة، وسبب سقوط الدول الشامخة، اقرأوا قول الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا..﴾ [النمل: ٥٢] ، واقرأوا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤] يمهل ولا يهمل، لا يغفل ولا ينام.

الظلم مرتعه وخيم، فلا ينبغى أن نظلم، ولا ينبغى أن نعين ظالما. يؤثّم الإسلام الظالم ويؤثّم من أعانه، أو سكت عليه، أو رضى عنه، أو مال أو ركن إليه

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، والترمذى، عن أبى موسى رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦١٩ برقم ١٣٠٣).

مجرّد الميل أو الركون، فالله تعالى يقول: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]. ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ لا تعينوا الظالمين، بل لا تميلوا إليهم مجرد الميل.

الظلم مرتعه وخيم مهما يكن قليلاً، فكيف بظلم شعب بأكمله. إنّ القرآن الكريم يقرّر في قتل نفس واحدة ﴿ .. أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا .. ﴾ [المائدة: ٣٢]. والنبي ﷺ يقول: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»(١)، ويقول: «لو أنّ أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله في النّار»(٢).

لا يجوز التهاون في عرض يُهتك أو دم يُسفك أو مال يُنهب. بل لا يجوز التهاون في ظلم حيوان أعجم، وإن كان كلبا أو هرّة.

«دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»(٣).

الظلم ينبغي أن يُقاوم، ولا ينبغي أن يُسكت عليه، والنبي ﷺ يقول: «إذا رأيت أمّتي تهابُ أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودّع منهم»(٤). أمة تفقد

---

(١) رواه النّسائي، والترمذي مرفوعاً وموقوفاً ورجّح الموقوف، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وروى ابن ماجة بإسناد حسن عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق» قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله موثقون، وحسنها الحافظ في التلخيص (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٦٥ برقم ١٤٤٦).

(٢) رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، وقال: حديث حسن غريب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٦٥ برقم ١٤٤٧).

(٣) رواه البخاري وغيره، عن ابن عمر رضي الله عنهما. ومعنى «خشاش الأرض»: حشرات الأرض ونحوها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٢٨ برقم ١٣٣٣).

(٤) رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وقوله «فقد تودّع منهم» يعني: استوى وجودهم وعدمهم، أو تركوا وخذلوا وخلي بينهم وبين ما يرتكبون من المعاصي ليعاقبوا عليها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: =

مبرّر بقائها إذا لم تأخذ على يد الظالم ولم تمنعه من الظلم. ويقول ﷺ: «إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده»[1].

الأخوة الإسلامية تفرض على كل مسلم أن ينصر أخاه، ظالما أو مظلوما. هكذا قال النبى ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوماً»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ [كان أهل الجاهلية يقولون هذه الكلمة على معنى انصر ابن قبيلتك سواء كان على الحق أم على الباطل، ولكن حينما قال النبى ﷺ استغرب الصحابة أن ينطق بها النبى ﷺ وأن يكون هذا هو المراد عند أهل الجاهلية] قال: «تحجزه - أو تمنعه - عن الظلم، فإنّ ذلك نصره»[2] نصرته على نفسه، نصرته على شيطانه، منعته من الوبال الذى ينزل عليه فى الدنيا والآخرة.

لو أنّ المسلمين فى أزمة الخليج نصروا الظالم بأن منعوه من الظلم، ونصروا المظلوم بأن وقفوا إلى جانبه، ما تطوّرت الأزمة إلى ما تطوّرت إليه.

نحن ينبغى أن نقف ضدّ الظلم وضد الطغيان.

كنّا ونحن طلاب نعيب على الاستعمار الذى يستنكر بعض الجرائم الفرديّة، ولكنّه يسحق شعوباً بكاملها، وكنا نتمثّل بقول الشاعر:

قتل امرىء فى غابة ... جريمة لا تغتفر

وسحق شعب كامل ... مسألة فيها نظر!

= ٢ / ٦٤٤ برقم ١٣٧٨) و (فيض القدير للمناوى: ١ / ٣٥٤ برقم ٦٢٧). وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد (برقم ١٢١١٠) وقال: رواه أحمد والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادى البزار رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد.

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة، والنسائى، وابن حبان فى صحيحه، ونقل عن النووى فى الأذكار والرياض: أنّ أسانيده صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ / ٦٤٣ برقم ١٣٧٥).

(٢) رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ / ٦٢١ برقم ١٣١٠).

هكذا كنّا نعيب على الاستعمار، فإذا بنا نجد من العرب من يفعل فعل الاستعمار، ويسحق شعباً بكامله، يسحق إرادته وكرامته، ويفرض عليه ما يريد.

يجب أن نقف ضدّ الظلم والطغيان والاستبداد أيّاً كان مصدره. هذه حقيقة لا لبس فيها.

الكويت وعمل الخير :

الحقيقة الثانية التى أريد أن أذكرها وأذكّر بها هى: ليس معنى هذا أنّ أهل الكويت المغزوييّن المعتدى عليهم ملائكة مقربّون، أو أنبياء معصومون، أو أنّهم من أولياء الله الصالحين وليس لديهم معصية ارتكبت . لا.

إنّ أهل الكويت كغيرهم، فيهم الصالح والطالح، فيهم الطيبّ والخبيث، ولكن نشهد أنّ فى الكويت - كما رأينا - تياراً إسلاميّاً قويّاً عالى الصوت، يدعو إلى الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويجمع الشباب على الإسلام، ويربى الشباب على الإسلام.

رأينا آلاف الشباب الذى يعمل فى جبهات متعدّدة فى سبيل الخيرات، يناصر فلسطين، ويجاهد مع الأفغان، ويجمع التبرعات للبلاد الإسلاميّة وللمنكوبين فى الزلازل والمجاعات. رأينا العمل الخبرى هنا وهناك، رأينا جمعيّات إسلاميّة تعمل: الهيئة الخيريّة الإسلامية العالميّة، لجنة مسلمى أفريقيا، بيت الزكاة، وغيرها، الكويت كان فيها خير وكان فيها عمل إسلامى، ولا زال مستمراً.

ممّا يذكر لأهل الكويت بالخير أنّهم حتى اليوم يحاولون أن يستمر عملهم الخيرى، وطلبت الجمعيّات الخيريّة الإسلاميّة من البنك الإسلامى للتنمية أن يمنحهم سلفاً حتى يهيىء الله لهم أسباب العودة، ليعملوا فى مشروعاتهم التى توقفت - بعد الغزو - فى آسيا وأفريقيا، فكم من مستشفيات توقفت، وكم من مدارس وكم من مراكز وكم.. وكم..؟

لازالت هذه الهيئات تعمل، ولا زالت الهيئة الخيريّة الإسلاميّة العالميّة – التي ساهم فيها كثير منكم بجهده وماله – تعمل، ولها مكتب هناك في رابطة العالم الإسلامي، ولا زال حسابها مفتوحاً،ويستطيع منكم أن يدفع لها من زكاته ومن غير زكاته.

هذا الخير يجب أن يذكر لأهله.

فإذا كان هناك شرّ، فهناك خير وأظنّه أكثر منه وأعلى صوتا. فلماذا نذكر الشر وننسى الخير. وهل دخل العراق الكويت ليقول لأهلها: توبوا إلى الله من المعاصي؟ هل دخل ليطهرهّم من شرهم؟ ما فعل هذا قط.

مصيبة القوات الأجنبية :

هناك حقيقة ثالثة ينبغي أن نذكرها هنا، وهي ما يتشبثّ به الكثيرون من وجود القوات الأجنبيّة على أرض الخليج. وهذه لا شك مصيبة كلّنا ننكرها، ولا نرحب بوجودها ولا بقائها، وقد أصدرت بياناً منذ الأيّام الأولى – مع إخوة لي في مصر – نستنكر فيها الأمرين جميعا: العدوان على الكويت، ووجود القوات الأجنبيّة في أرض المسلمين.

ولكن من الإنصاف أن نقول: من الذي يتحمّل وزر هذه القوات التي جددت احتلال المنطقة بعد أن كانت قد خرجت منها؟ من الذي أعطاها المبرر للعودة؟ الذي يتحمّل وزر هذه القوات البغيضة من كان السبب في وجودها.

ينبغي أن نفرق بين السبب والنتيجة، بين الفرع والأصل. هذا فرع عن أصل، فإذا أردنا أن نعالج الفرع فلا بدّ أن نعالج أصله، لا بدّ أن نعالج السبب، أيّ مرض يُعالج لا بدّ أن يعرف سببه. السبب ينبغي أن نعرفه، إنّه: الغزو العراقي للكويت.

ولهذا نقول للنظام العراقي وللرئيس العراقي: لكي لا يكون لهذه القوات

مبرّر ولا حجّة لوجودها على أرض المسلمين، ينبغي أن تنسحب، لتسقط حجتهم، وفى هذه الحالة لن نرضى ببقائها. وقد قلت هناك فى رابطة العالم الإسلامى بأعلى صوتى: يوم ينسحب العراق فلا بدّ أن تنسجب هذه القوآت فى اليوم التالى، وإلاّ قاتلناها ودعونا الشعوب المسلمة فى مشارق الأرض ومغاربها إلى قتالها، وقمنا نحن العلماء بحمل السلاح فى المقدمّة لنقاتل هذه القوآت.

فلا ينبغى أن تُترك لها فرصة، أو ندع لها مبرّراً، حتى تبقى على أرض المسلمين.

من المستفيد من الحرب غير إسرائيل والغرب ؟

حقيقة رابعة هى: من المستفيد من الحرب إذا وقعت ومن الخاسر؟

الحرب إذا وقعت فسيقع فيها الدمار والخراب للمنطقة كلّها، ولا نريد أن تخرب هذه المنطقة، نحن أحرص ما نكون على الشعب العراقى والوطن العراقى والجيش العراقى، لأنّنا نعتبره قوّة ورصيداً لأمّة العرب والإسلام، لا نريد أن يذهب هذا كلّه سدى. ومن هنا لا نريد الحرب، لأنّها ستدمّر هذا كلّه، لمصلحة من؟ لمصلحة الغرب، ولمصلحة أمريكا، ولمصلحة إسرائيل، إسرائيل هى المستفيدة الأولى بلا ريب.

ومن هنا ينبغى أن نجنّب المنطقة ويلات الحرب ما استطعنا.

النبى ﷺ وهو الذى عاش مجاهداً فى سبيل الله ويتمنّي أن لا يتخلّى عن غزوة ويقول: « .. والذى نفسى بيده لوددت أنّى أغزو فى سبيل الله فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل »[1]، ومع هذا كان يكره الحرب، وإذا وجد فرصة للسلام لم يضيّعها، ولذلك صالح صلح الحديبية على ما كان فيه من شروط ظنّها بعض المسلمين إجحافا، وسمّي الله هذا الصلح فتحاً مبينا، ونزلت فيه سورة (الفتح): ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، وجاء فيها قول الله تعالى:

---

(١) رواه البخارى ومسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه (كتاب السنن الكبرى للبيهقى: ٩/١٥٧) ط. دار المعرفة – بيروت.

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم.... ﴾ [الفتح: ٢٤]، قال ذلك في معرض الامتنان.

﴿ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ معقول هذا.

﴿ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ حتى كفّ أيدى المسلمين عن المشركين اعتبره منّة ونعمة.

وفى غزوة الخندق التى أرادت قريش وغطفان ومن معهما أن يبيدوا المسلمين - وحاصروهم من كلّ الجهات، وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم وبلغت القلوب الحناجر وظنّ الناس بالله الظنون، وابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً - أراد الله سبحانه وتعالى أن ينهى هذه المعركة بجنود لم يرها المسلمون، وبريح من عنده، أكفأت قدورهم وآنيتهم، وقلعت خيامهم، وعادما مدحورين ولم يحقّقوا أملاً، يقول القرآن في ذلك: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

انظروا إلى هذه الكلمة: ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾: الله لا يريد للنّاس أن تراق دماؤهم، إذا انتهت معركة بغير دماء فهى نعمة.

النبى ﷺ كان يكره مجرّد كلمة (حرب)، يقول: «أحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرّة»(١)، الاسم نفسه لا يحبه، اسم مستقبح.

هكذا كان ﷺ. وليس كما يصوّره الأفّاكون من المبشرين والمستشرقين: أنّه كان ميّالاً لسفك الدماء، لا، ثم لا.

سيدنا عمر رضى الله عنه حينما عُرض عليه غزو الروم، كان متردّداً غاية

---

(١) أخرجه أبو داود والنّسائى والبخارى فى «الأدب المفرد» من حديث أبى وهب الجشمى، وفى سنده عقيل بن شبيب وهو مجهول، وباقى رجاله ثقات (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق آل الأرناؤوط: ٢/٣٣٤).

التردد، ولما قيل له: إنّ النصر مضمون، وإنّها كذا وأنّها كذا، كان يقول لهم: «والله لمسلم واحد أحبّ إليّ من الروم وما حوت». لا يريد أن يغامر بأرواح المسلمين.

هكذا شأن الإنسان الذى ينظر إلى أنّه مسؤول عن رعيّته، وأنّ كلّ روح من الأرواح أمانة فى يده.

الحرب ليست لعبة وليست عبثا، فكيف بحرب اليوم وأسلحة الدمار تفعل ما تفعل، وستقوم على أرضنا وليست على أرض الأمريكان ولا على أرض البريطان، هى على الأرض العربية الإسلامية، فنحن الخاسرون فيها أيّاً كان المنتصر.

نحن لا نريد لهذه الحرب أن تقوم، ولذلك كلّ من يحب العرب والمسلمين، وكلّ من يحب العراق وشعب العراق وجيش العراق، عليه أن يضغط على المسؤولين فى هذا البلد العربى المسلم لينسحب، ولا يدع الفرصة للحرب، وكلّ شىء قابل لأن يُسوّى.

أمّا الذين يقفون مع الظلم والعدوان مؤيدين، فمعناه أنّهم يغرونه بالاستمرار، ومعنى الاستمرار هو الدمار. لا يمكن أن ينتصر العراق على العالم كلّه، لا يمكن، فمعنى هذا أنّه سيدخل معركة تضيع فيها قوّاته ومعداته، ويخسر فيها شعبه، وتخسر المنطقة كلّها.

نحن حراص على أىّ قطرة دم من إنسان مسلم أن تُسفك، ولا نريد لهذه الحرب أن تقوم، ولهذا ينبغى أن يسعى الساعون فى كلّ مكان إلى إيقاف هذا الأمر، والضغط على من بيده مفتاح الحل، ومفتاح الحل فى يد رجل واحد، هو الذى يستطيع أن ينهى هذا، هو الذى بدأ المعركة ويستطيع أن ينهيها، هو الذى أشعل النّار ويستطيع أن يطفئها.

ولهذا ندعوه باسم الله، نناشده باسم الله، وباسم الإسلام، وباسم الرحم، وباسم الجوار، وكلّ المقدسات والقيم، أن يطفىء هذه النّار التى نخشى أن تحرق الأخضر واليابس، وتحرق المنطقة كلّها.

هذه هى الحقيقة الرابعة .

مسؤولية الحكام لا الشعوب :

وحقيقة خامسة – أيها الإخوة – أريد أن أذكرها وأذكّر بها :

أنّنا لا ينبغى أن نخلط بين الحكام والشعوب، لا ينبغى أن نظلم الشعوب بظلم حكامها، ليس كلّ عراقى مسؤولاً عمّا يجرى فى العراق وما اتخذه حاكم العراق، وليس كل فلسطينى مسؤولاً عمّا اتخذه رئيس فلسطين، وليس كلّ يمنىّ مسؤولاً عمّا اتخذه رئيس اليمن، وليس كلّ تونسىّ مسؤولاً عمّا اتخذه رئيس تونس.

لا، ﴿ .. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. ﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧] ، كلّ إنسان مسؤول عن نفسه، من أيدّ وأظهر تأييده يتحمّل المسؤوليّة، وإلاّ فالحكام هؤلاء مسؤولون عن أنفسهم، ولا ينبغى أن نحمل شعوبهم آثامهم، فكثير من الناس ليس لهم ذنب.

للأسف نرى الآن بعض البلاد الأوربية تعامل العراقيّين فى الخارج باعتبارهم خصوماً وأعداء، وكثير منهم فرّ من العراق مضطهداً مظلوما من سنوات . فإذا ألغيت بعثته أو فصل من دراسته أو فصل من عمله، ضاقت الدنيا عليه بما رحبت .

الحجاج بن يوسف الثقفى وقد كان معروفاً بالظلم والطغيان، أخذ رجلاً من إحدى القبائل، لأنّه بحث عن قريب له ارتكب جريمة فلم يجده فأخذ ابن عمه، فلّما وقف أمام الحجاج قال له : ما قضيّتك؟ قال : جنى جان من عُرض العشيرة فبحث عنه جنودك فلم يجدوه، فأُخذت بسببه . قال : أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجنى عليك وقد ... تُعدى الصحاحَ مباركُ الجرب

ولربّ مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المقارف صاحب الذنب

إنّ الأجرب قد يُعدى السليم، وإنّ البرىء قد يؤخذ بذنب المسىء. فقال له: إذا كان الشاعر قال ذلك، فإنّى سمعت الله تعالى قال غير ذلك، قال: ويحك وماذا قال الله؟ قال: قال الله تعالى على لسان يوسف – وقد طلب منه إخوته أن يأخذ أحدهم مكان من وُجد فى رحله صواع الملك –: ﴿ **قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ [يوسف: ٧٩].

هنالك بُهت الحجاج وقال: صدق الله وكذب الشاعر، خلّوا سبيله.

هذا هو العدل، العدل أن يؤخذ كلّ إنسان بجريرته.

ولا نريد لهذه الفتنة ولا لهذه الأزمة أن تترك مرارة بين الشعوب بعضها وبعض. نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الفتن والأحقاد.

خلل فى الوجود الإسلامى لغياب الخلافة:

وحقيقة سادسة: هى أنّ ما جرى اليوم نتيجة لسبب، نتيجة لخلل فى الحياة الإسلاميّة ينبغى أن يُسد، نتيجة لفراغ ينبغى أن يملأ. الذى حدث أنّ المسلمين كانت لهم رابطة تربطهم. كانت لهم وحدة تجمعهم، كانت لهم قيادة مركزيّة تجسّد وحدتهم، كان هناك شىء اسمه الخلافة. الخلافة معناها: وحدة إسلاميّة لها قيادة مركزيّة.

ولكن هذه الرابطة فُصمت، هذه القلعة هُدمت، هذه المظلّة هُتكت، هذا الحصن حُطّم، لم يعد للمسلمين شىء يجمعهم، لم يعد لهم قيادة تستطيع أن تستنفرهم فى الأزمات وتقول لهم: انفروا فى سبيل الله. لم يعد هناك شىء يمكن أن يحكم بينهم فى النزّاعات، ويرد إليه الأمور المتنازع فيها.

ولهذا ليس عندنا محكمة عدل إسلاميّة تفصل فى النّزاع، ليس عندنا قوّة ردع إسلاميّة تقاتل الباغى كما قال الله تعالى: ﴿ .. **فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** .. ﴾ [الحجرات: ٩]. ليس

عندنا هذا، فكانت النتيجة أن استنصرنا بغيرنا واستعنّا بغيرنا. لا يمكن أن تكون للمسلمين حياة مستقلة يسودون فيها أنفسهم ما لم يراجعوا أنفسهم من جديد.

ذهبت الخلافة ولم يوجد بديل عنها، فما الذى يوحّد المسلمين؟ ما الذى يجعلهم أمّة كما قال الله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ [آل عمران: ١١٠] ؟ ما الذى يجعلهم أمّة كما أراد لهم الله وليسوا أمماً كما أراد لهم الاستعمار؟

الأصل فى الحياة الإسلاميّة أن يكون هناك دار واحدة، اسمها: دار الإسلام. توجد أقاليم وولايات داخل دار الإسلام، ولكن كلّها دار واحدة، ونظام الخلافة يحكمها.

العالم الآن يتوحد إلاّ المسلمين، أوربّا تتوحّد على ما كان منها من صراعات رخلافات وثارات خلال قرون، وهم فى الطريق الآن إلى «الولايات المتحدة الأوربّيّة»! ونحن للأسف نختلف ونفترق إلى حدّ أن يقاتل بعضنا بعضا.

لا بدّ أن نتعلّم من هذه الأزمة، ليسعى أهل الإصلاح وأهل الرأى فى الأمّة الإسلاميّة إلى أن يبحثوا من جديد: كيف تعود لهذه الأمّة وحدتها؟ كيف تعود لها قيادتها الموحّدة؟ وهذا ليس بالشىء الكبير، وليس بالشىء الغريب ولا بالعجيب.

المسلمون فى العالم حوالى ألف مليون أو يزيدون، وهم داخل العالم الإسلامى نحو ثمانمائة مليون. الصين وحدها تزيد عن ألف ومائة مليون نسمة، الهند وحدها أكثر من تسعمائة مليون، أوربّا الآن تتوحّد. فلماذا يُستبعد أن يكون للمسلمين وحدة؟

ليس الأمر ببعيد إذا صدقت النيات وصحّت العزائم.

الرجوع إلى الله فى الشدة :

والحقيقة الأخيرة أيّها الإخوة: أنّ الناس فى الأزمات ينبغى أن يعودوا إلى الله، ينبغى أن يرجعوا إلى الله، أن يتذكروا أنّ ما نزل بالناس لا بدّ أن يكون وراءه معصية. مهما قلنا أنّ أهل الكويت كذا وكذا، ليس معنى هذا أنّنا نبرىء أهل الكويت أو أن نبرّىء أهل قطر أو نبرّىء أهل الخليج .... الكلّ مقصّر.

فى الأزمات ينبغى للإنسان أن يراجع سجلاّته، أن يحاسب نفسه، أن يعرف ماذا بينه وبين الله؟ إذا لم يعرف الناس ربّهم فى وقت المحنة فمتى يعرفون ربهم؟

النّاس ثلاثة :

هناك من يعرف الله فى وقت الرخاء ليعرفه الله فى وقت الشدّة، كما قال النبى ﷺ لابن عباس: « ... احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة.. » [(١)].

هذا صنف من النّاس .

الصنف الثانى : ينسى الله فى ساعة الرخاء والعافية، حتى إذا دهمته الشدّة استيقظ ضميره، وصحا قلبه، ورجع إلى ربه منيباً إليه، كالذين حدّث الله تعالى عنهم: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ..** ﴾ [الروم: ٣٣]، وكأهل السفينة الذين إذا ركبوا السفينة ﴿ **.. وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾[(٢)].

صحيح أنّ كثيراً منهم بعد أن تنتهى الأزمة يعود سيرته، الأولى، ولكن

---

(١) رواه أحمد من حديث ابن عباس (١/ ٣٠٧) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح.

(٢) يونس: ٢٢ ، وأولها: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ... ﴾.

على الأقل فى ساعة الأزمة يقول : يارب يارب، يبسط يده إلى الله، ويقول ما قال أبوه آدم وأمّه حوّاء: ﴿ .. رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهناك صنف ثالث: لا يتحرك قلبه لا فى رخاء ولا فى شدّة، لا فى عافية ولا فى بلاء. تمرّ عليه السرّاء والضرّاء والنعّماء والبأساء، وهو غافل عن الله، تنزل به المحن القاصمة فلا يرجع إلى ربه، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٢ – ٤٥].

ينبغى أن نرجع إلى الله فى وقت الأزمات، وأن نتوب إلى الله توبة جماعيّة، وكلّ إنسان أعرف بنفسه وبما بينه وبين ربه.

ينبغى أن نتطهر، ينبغى أن نخلص الدعاء فى هذه المرحلة، ليجنبّ الله هذه الأمّة المصائب المترقّبة، أن يجنّبها الحرب وويلاتها.

ولكن الله لا يستجيب لنا إذا ظلّت القلوب مظلمة بالمعصية، وظلّت الأنفس بعيدة عن الله، تجرى وراء الشهوات. إنّما يستجيب الله لنا إذا دعوناه مخلصين له الدين، وهذه هى الفرصة لنتطهر ونتوب ونرجع إلى الله عزّ وجلّ، وننظر فى أمورنا كلّها، لنقوّمها بمقياس الإسلام، فما كان منها صواباً حمدنا الله عليه وسألناه الثبات عليه والمزيد منه، وما كان خطأ أو خطيئة استغفرنا الله منه، وعملنا على أن يكون يومنا خيراً من أمسنا، وغدنا خيراً من يومنا.

ينبغى أن يفعل ذلك الحاكم والمحكوم، والراعى والرعيّة، والغنى والفقير.

ينبغى لمن منع الزكاة أن يؤدى الزكاة.. لمن أهمل الصلاة أن يقيم الصلاة..

لمن ظلم الضعفاء أن يعدل مع الضعفاء.. لمن ينفق ماله فى المعاصى أن يمسكه فلا ينفقه إلاّ فى الحق.

ينبغى لكلّ إنسان عرف من نفسه انحرافاً عن صراط الله أن يرجع إلى الله، ويتوب إليه، ويقول: يارب يارب، فإنّ الله أهل لأن يجيب الدعاء ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. ﴾(١).

اللهمّ إنّا نسألك أن تكشف الغمّة عن هذه الأمّة، وأن تخرجنا من هذه الفتنة منصورين بالحق. اللهم انصرنا بالحق وانصر الحق بنا.

أقول قولى هذا، وأستغفر الله تعالى لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

ورد أنّ فى يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له، ولعلّها تكون هذه الساعة.

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية، فى ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا. اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

* * *

(١) البقرة: ١٨٦ ، وتتمّتها: ﴿ .. فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾.

١٢ - مأساة المسلمين فى البوسنة والهرسك

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كنت أودّ أن أبدأ معكم فى سلسلة نتحدث فيها عن الإسلام وتعاليمه، عن الإسلام عقيدة، والإسلام شريعة، والإسلام أخلاقاً، نتعلّم الإسلام ومبادئه وأحكامه، ونتواصى به.

ولكن مآسى المسلمين التى تصابحنا وتماسينا، وتراوحنا أنباؤها وتغادينا، وتصكّ أسماعنا كلّما اقتربنا من أجهزة الإعلام مرئيّة أو مسموعة أو مقروءة، مآسى المسلمين فى كلّ مكان تجعلنا لا نستطيع أن نتحدث عن الأمور النظرية.

لا زلنا فى مآسى بعد مآسى، فتن كما جاء فى الحديث: «يرقّق بعضها بعضا»[1]، أى كلما جاءت فتنة غطّت على التى قبلها، حتى اعتبر ما قبلها شيئاً هيّناً رقيقاً بالنّسبة لما يحدث، وكأنّ الأمر كما يقول الشاعر أبو الطيّب المتنبى :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى   فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام   تكسّرت النّصالُ على النّصال

هذه هى أحوالنا، وهذه هى أحداثنا ومآسينا.

منذ أسبوعين صلّيت الجمعة فى مدينه (زغرب) عاصمة (كرواتيا) . هذه العاصمة هى المنفذ الوحيد لإخوتنا المسلمين فى البوسنة والهرسك.

صلّينا الجمعة فى مسجد المركز الإسلامى هناك، وهو المسجد الوحيد فى هذه البلدة، بعد أن حُوّل مسجدها الجامع - الذى رأيناه فى وسط البلدة، وفى سُرّة المدينة وفى ميدان من أعظم ميادينها - إلى متحف فى عهد الشيوعيّة، هدم (المارشال تيتو) مآذنه الأربع واستبقى المسجد متحفاً، ولا زال الميدان يُسمّى (ميدان الجامع) .

---

(١) سبق تخريجه فى ص (١٥٩) .

المسلمون في تلك البلاد منذ قرن وربع قرن من الزمان يلاقون المصائب تلو المصائب، والمذابح إثر المذابح، منذ عهد المملكة اليوغسلافيّة القديمة، ومنذ عهد الشيوعيّة. وبعد زوال الشيوعيّة اليوم أصبح هؤلاء لحمهم مباحا، يُقطّع بالسكاكين ما بين الحين والحين، هكذا رخصت دماء المسلمين، وهانت حرمات المسلمين.

لقد زرنا الإخوة من البوسنة والهرسك في مدينة (زغرب)، أو زُرنا المهاجرين منهم أو المُهجَّرين أو الفارّين بأنفسهم، واستمعنا إليهم، وحضرنا مؤتمراً عالميّاً لرعاية حقوق الإنسان في البوسنة والهرسك[1]، حضره ممثلون من أكثر من ثلاثين دولة، وللأسف لم نر له أثراً في الإعلام العالمي ولا الإسلامي ولا العربي، لأنّ الذي يسيطر على الإعلام في العالم – للأسف – هم اليهود وأشباه اليهود، والصليبيون، فلم يُسمع عن هذا المؤتمر إلاّ بعض تعليقات في إذاعة (لندن).

تنادى الغيورون من المسلمين بحضور هذا المؤتمر ليؤدّوا عدّة رسائل:

الرسالة الأولى: إلى المسلمين في البوسنة والهرسك: أنهمّ ليسوا وحدهم، وأنّ إخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليسوا غافلين عنهم، ولا ناسين لقضيّتهم، حتى نشدّ أزرهم ونقوّى عضدهم وننفخ في روحهم. هذه هي الرسالة الأولى.

والرسالة الثانية: إلى الغرب.. إلى العالم الغربي الذي يتباهى ويتعالم بأنّه عالم حقوق الإنسان، عالم النور والحرية. أردنا أن نبلّغه رسالة تقول: أين أنت أيّها العالم الغربي؟ أين أنت يا أوربّا ويا أمريكا وهؤلاء يُذبحّون ويُقتّلون، وتُفعل بهم الأفاعيل، في داخل أوربا، قارّة النور والعلم والحرية؟! أين العالم الغربي؟ أين هذا العالم الذي خفّ سريعاً أيّام أزمة الكويت، وجاء تحالف من ثلاثين دولة لتحرير الكويت كما زعموا؟ هل كان تحريراً للكويت حقّاً؟ لماذا لا يحرّرون هؤلاء إذن؟

للأسف أنّ مجلس الأمن قد أصدر قراراً بحظر توريد الأسلحة إلى تلك

---

(١) انعقد هذا المؤتمر في مدينة زغرب عاصمة كرواتيا في ١٨ و ١٩ سبتمبر سنة ١٩٩٢م.

المنطقة، لأنّها منطقة حرب أهليّة !! يا عجباً كيف يُسوّى بين المعتدى والمُعتدى عليه؟! كيف يُسوّى بين الجانى والضحيّة المجنى عليها ؟! ومعنى حظر توريد الأسلحة إلى المسلمين: تسليمهم للسكاكين لتقطع رقابهم وأعناقهم. هذا ما يصنعه العالم الغربى المتحضّر.

أردنا أن نبلّغ هؤلاء رسالة عسى أن يتنبّهوا ويستيقظوا.

ورسالة ثالثة: إلى المسلمين فى العالم، وللأسف لم تصل إليهم، لأنّ أجهزة الإعلام لم توصّل هذه الرسالة كما ينبغى.

أردنا أن نُسمع المسلمين فى العالم ما يتعرّض له إخوتنا هناك من خطر. خطر عليهم فى كلّ ناحية: خطر فى دنياهم وفى دينهم، فى أنفسهم وفى أعراضهم، فى أطفالهم وفى نسائهم، فى حاضرهم وفى مستقبلهم.

شعب يُباد إبادة كاملة، يُصفّى جسديّاً، تُهدم مساجده (أكثر من سبعمائة مسجد هُدمت)، تُهدم المستشفيات على من فيها، تهدم المدارس، تُحرق المزارع، تُدمْر المصانع، تُهدم البيوت، إنّهم لا يريدون أن يبقى من هذا الشعب شىء.

فى الحرب العالميّة هُدمت منازل وهُدمت مستشفيات وهُدمت مدارس، ولكنّها هُدمت خطأ لا قصدا، كان الذين يرمون القنابل يقصدون الأهداف العسكريّة فتصيب أهدافاً مدنيّة. أمّا هؤلاء فهم يقصدون قصدا ويعمدون عمداً إلى تدمير البيوت والمدارس والمساجد والمستشفيات، إنهمّ يريدون أن لا يبقى لهذا الشعب شىء.

أكثر من مائة ألف قُتّلوا حتى الآن، يريدون أن يُفنوا الرجال، ويستبقوا النّساء، لا للخدمة كما كان يفعل فرعون قديماً - لقد ذكر القرآن عن فرعون المتألّه الجبار: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: ٤] - ولكن يستبقوهنّ للاغتصاب وللمتعة. أصبحت أعراض المسلمين لعبة، أصبحت المرأة تتعرّض للهتك والانتهاك، ولا تجد من يحميها.

ذهبنا إلى أحد المعسكرات - أنا وفضيلة الشيخ الغزالى وبعض الإخوة من

الدعاة - واستمعنا إلى بعض القصص، ورأينا الدموع على الخدود، ورأينا المآسي. وقال لنا بعض الإخوة المرافقين: تريدون أن تروا بعض المعسكرات الأخرى؟ قلنا: ومن عنده قلب يستطيع أن يرى أكثر ممّا رأى؟ لم نستطع أن نبقى طويلاً، مع أنّنا لا نسمع إلاّ بواسطة مترجم، ولكن الدموع كانت تعبرّ.

معسكر فيه ألفان وخمسمائة، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، لأنّ الرجال إمّا يُقتلون وإمّا يُعتقلون فى معسكرات الاعتقال، وكذلك الكثير من الشابّات.

هؤلاء الصرب الحاقدون المتوحّشون يزعمون أنهمّ لا بدّ أن يطهروا المنطقة من البوسنويّين المسلمين، لا يريدون أن يكون هناك عرق آخر، إنّها عمليّة تطهير عنصرى عرقى، هذه فكرة جاهليّة.. فكرة وحشيّة، فالله خلق النّاس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، لا ليقتل بعضهم بعضا.

ولماذا كان عرقٌ أفضل من عرق؟

وهى ليست مسألة عرقيّة فقط، ولكن مع هذه العصبيّة العرقيّة: عصبيّة جاهليّة.. عصبيّة صليبية، ولا أقول عصبيّة دينيّة، فهؤلاء ليسوا من الدين فى شىء. فرق بين الصليبيّة وبين التديّن المسيحى، هؤلاء ليسوا مسيحيّين، هم صليبيّون، لا يعرفون من المسيحيّة إلاّ شعار الصليب، هم حاقدون، وبهذه العنصريّة الحاقدة يتعاملون مع المسلمين، يقتلون الرجل - أو المرأة - ويرسمون الصليب عليه، هذا ما يعرفونه من المسيحيّة. أين المسيحيّة التى تقول: من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له خدّك الأيسر؟!

هؤلاء لا يعرفون إلاّ الدماء، مجازر وراء مجازر، ومذابح وراء مذابح، ويكتشف العالم يوماً بعد يوم مقابر فيها مئات وآلاف، ولا بدّ أن يأتى يوم يحُاكم فيه هؤلاء باعتبارهم مجرمى حرب، لابد أن يأتى يوم يُحاكمون فيه على مرأى ومسمع من العالم.

لقد رأينا تقريراً عجباً نشر فى مجلة (الدرع) العسكريّة لقوات البوسنة: لقد قبضوا على بعض الصربيّين من الجنود الذين كانوا يتولوّن التعذيب والحراسة فى معسكرات الاعتقال، وحقّقوا معهم، واعترفوا اعترافات يشيب من هولها الولدان، وتقشعّر من فظاعتها الأبدان. هؤلاء الجنود تبع لذلك الزعيم الصربى

المتوحش الذى يعرف بـ (أركان)، وجنوده كانوا يُدرّبون فى إسرائيل ثمّ يعودون، وهم غلاة متوحشون قساة غلاظ.

إنّهم يتولّون حراسة المعتقلين والأسرى من المسلمين، ويُكلّفون بذبح عدد لا بدّ منه كلّ يوم. وطريقة القتل المفضّلة عند الصربييّن هى قطع الرقبة كما تُذبح الأغنام. ذكر أحدهم أنّه كُلّف مع فريق أن يعملوا جزّارين للمسلمين، بيد كلّ منهم سكين - كسكّين الجزّار أو القصّاب تماماً - يذبحون بها المسلمين. قال: ذبحت فى يومين ثمانين مسلماً ! كيف يذبحه؟ يضربه بمطرقة فوق رأسه أو فى مؤخرة رأسه فيغمى عليه، ثمّ يأتى بالسكين فيذبح رقبته ويحزّ رأسه، ويقدّم هذه الرؤوس بعد ذلك لرؤسائه ليريهم أنّه عمل فأجاد وأحسن، فيكافأ على ذلك بمجموعة من فتيات المسلمين يغتصبهنّ.

قال أحدهم: اغتصبتُ ثلاث عشرة امرأة، أوّل من صادفنى منهنّ عجوز فى سن الستين فاغتصبتها ! هؤلاء إذن لا يغتصبون للمتعة فقط، إنّهم يغتصبون لإذلال المسلمين والمسلمات. قال: واغتصبت أربع فتيات ما بين العاشرة والثانية عشرة - طفلات - وبعد ذلك مجموعة أخرى فى العشرينات من العمر.

وواحد منهم اعترف أنّه ذبح ثمانين، واغتصب ثلاث عشرة امرأة.

عندما كنّا فى ذلك المخيّم - فى أطراف المدينة - رأينا العجائز من النساء، والشيوخ من الرجال، والأطفال، وقد جاءوا لأنّ بعض إخواننا جاء معه بالحلوى يوزّعها عليهم، ولم نر كثيراً من الفتيات، لماذا؟ لقد اختبأ الفتيات وراء الجدر حياءً وخجلاً، إنّ كثيراً منهنّ حملن نتيجة الاغتصاب.

وعندما كنّا فى المؤتمر قال الدكتور مصطفى استربتش: لقد عرف الإخوان والأخوات هنا بمجيئك أنت والشيخ الغزالى، ولذلك يقدّمون إليكما استفتاء: ما العمل فى هذا الحمل الذى جاء نتيجة الاغتصاب؟ ماذا تفعل هؤلاء الأخوات والبنات والفتيات العذارى والأبكار اللاّتى حملن اغتصاباً؟ ماذا يعملن فى هذه الأرحام وهذه الأجنّة فى بطونهنّ؟

وهو استفتاء ليس بجديد، سمعناه من قبل، عرض علينا من إخواننا فى إريتريا، حيث الجنود الصليبيّون كانوا يفعلون ذلك بفتيات المسلمين، وعرض

علينا قبل ذلك من سجون إحدى الدول العربيّة، التى لا ترقب فى مؤمن إلاّ ولا ذمة [١].

إنّها مصائب – أيّها الإخوة – تحلّ بنا نحن المسلمين، الذين انفرط عقدنا، ولم نجد أحداً يدافع عنّا. كان لنا خلافة قبل ذلك، وكان الخليفة يستطيع أن يقول: يا مسلمون هبّوا لنجدة إخوانكم. بحسبه أن ينادى نداء، فيهبُّ المسلمون من أقطار الأرض للإغاثة والنجّدة. ثمّ هدمت أو هتكت الخلافة، هتكت هذه المظلّة التاريخية.

ليس عندنا سلطة دينيّة كما عند النصارى، عندهم (بابا) يقول: افعلوا وسوّوا، ليس عندنا هذه السلطة. كان فى وقت من الأوقات يوجد من يسمّى (شيخ الإسلام) أكبر شيخ عند المسلمين، ولكنّ السياسة ضيّعت علماء الإسلام، فلم يعد هناك أحد يمكن أن يسمّى (شيخ الإسلام) الذى يسمع له الناس فى كلّ مكان.

ضعنا نحن المسلمين، واجترأ علينا من اجترأ، وأصبحت مآسينا فى شمال الأرض وجنوبها. ما خلصنا من مأساة فلسطين، المأساة القديمة الجديدة المتجدّدة، حتى فوجئنا بفلسطين أخرى. صربيا الكبرى أشبه بإسرائيل الكبرى، وهؤلاء الصربيّون أشبه باليهود، حذوك النّعل بالنّعل ﴿ **أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذّاريات: ٥٣]، **تشابهت قلوبهم فتشابهت مواقفهم وتصرّفاتهم**.

إنّها المآسى – أيّها الإخوة المسلمون – تلاحقنا فى كلّ وقت من الأوقات.

إخواننا هناك الآن يحتاجون إلى المعونة، المعونة بالسلاح والمعونة بالمال، والمال هو قبل كلّ شيء، به يستطيعون أن يشتروا السلاح. صحيح أنّهم سدّوا عليهم الطريق بقرار الحظر، ولكن الذين يعرفون الدنيا يعلمون أنّ السلاح يُشترى من السوق السوداء، مادام معك مال تستطيع أن تشترى السلاح من هنا وهناك.

الجهاد بالمال هو المطلوب الآن ليشتروا به السلاح، إنّهم فى حاجة إلى

---

(١) أجاب الشيخ القرضاوى عن استفتاء المسلمات فى البوسنة والهرسك بفتوى نشرت فى كتابه (فتاوى معاصرة) الجزء الثانى (ص ٦٠٩ – ٦١٢)، تحت عنوان: إجهاض الحمل الناشىء عن اغتصاب.

السلاح ليدافعوا عن أنفسهم. والآن قد ارتفعت معنويّاتهم وأصبحوا يصمدون، وأصبحوا يكبّدون الصربيين خسائر فى الأرواح، رغم عدم التكافؤ، فالصربيّون ورثوا جيش يوغسلافيا الذى كان رابع جيش فى أوربّا، ورثوا أسلحته الثقيلة من الدبابات والطائرات والصواريخ والمدرّعات والمصفّحات، أصبحت كلها بأيديهم، والمسلمون ليس معهم إلاّ مدافع خفيفة أو بنادق، إنّهم الآن فى حاجة إلى الدعم حتى يستطيعوا أن يواجهوا هؤلاء.

حينما قلنا للإخوة هناك: إذا كان هناك أطفال أيتام، فإنّ بلاد المسلمين مستعدّة لاستضافتهم، هناك بلاد كثيرة: مصر. المملكة العربية السعودية.. باكستان، أبدت استعداداً لاستضافة الآلاف من هؤلاء. ولكنهّم قالوا: إنّ سياستنا الآن أن يبقى المسلمون ولا يهاجروا، وأن يقاوموا ولو انهدمت عليهم بيوتهم أو تحولت مساكنهم إلى مقابر، لا نريد أن تتكرّر مأساة فلسطين، لقد فعلها (بيجن) وأمثاله وأقاموا المذابح فى دير ياسين وغيرها، كى يملأوا القلوب رعبا، ويجعلوها تهجر منازلها، وتصبح المشكلة مشكلة لاجئين. قالوا: يكفى من هاجر من الأطفال إلى أوربّا، نريد أن نبقى فى أماكننا، نصبر ونصابر ونقاوم ونقاتل ولو فنينا.

وهذا موقف يُحمد لهم، وينبغى أن يُعانوا عليه، وينبغى أن يؤيدّوا فيه، وهناك محاولات لاسترداد الأطفال الذين ذهبوا إلى ألمانيا أو إيطاليا أو غيرها من البلاد الأوربية، والاتجاه الآن أن يكونوا فى (استانبول) ليكونوا فى بيئة قريبة من بيئتهم، بيئة أوربيّة، المناخ قريب، والحياة قريبة ممّا هم فيه. فإنّهم لو جاءوا إلى مثل ديارنا لكان الموقف مختلفاً تماماً، وفى هذا صدمة نفسيّة لأولئك الأطفال، وهذا اتجاه طيبّ.

إنّ فى المسلمين خيراً كثيراً، وهذا الخير يجب أن نستثمره لصالح إخواننا هؤلاء، إنّه امتحان للضمير الإسلامى، ونرجو أن ينجح المسلمون فى هذا الامتحان.

إنّهم الآن على أبواب محنة كبيرة، ففصل الشتاء - أيّها الإخوة - هناك تنزل درجة الحرارة فيه إلى ثلاثين درجة تحت الصفر، أو أكثر، درجة التجمدّ،

الثلوج ترتفع إلى ثلاثة أمتار أو أربعة أو خمسة، الطرقات تتوقف، لا تستطيع الشاحنات التى تحمل الغذاء أو الدواء أو الوقود أن تتحرك وتنتقل إليهم، ولذلك هم فى حاجة إلى مخزون من الأغذية والأدوية والوقود يكفيهم لعدّة أشهر، حتى يتجاوزوا فصل الشتاء، وإلاّ هلكوا برداً وهلكوا جوعاً.

حدثنا الإخوة هناك أنّه لا بدّ من إمداد هؤلاء قبل أن يأتى فصل الشتاء، وإلاّ وقعوا فى هلاك مبين.

وقال لنا الإخوة البوسنيوّن: إنّ الهيئات الفعّالة هى هيئات الإغاثة العربية والإسلاميّة فى تلك المناطق، ومعظم ما يأتى عن طريق الأمم المتحدة لا يصل إليهم.

فلا بدّ أن نمدّ اليد إليهم، لا بدّ أن يتحرك الضمير المسلم.

إنّ الصربيّين يزعمون أنّهم يدافعون عن أوربّا، وأنهمّ يقومون بخدمة وبمهمّة جليلة تاريخية لأوربّا كلّها. ما هى هذه المهمّة؟ إنّهم يدفعون عن أوربا خطر الإسلام!

كذبوا والله، الإسلام ليس خطراً، الإسلام رحمة الله للعالمين. والله لن ينقذهم ممّا هم فيه إلاّ الإسلام. الإسلام ليس دماء تُسفك، ولا أعراضاً تُهتك كما يفعلون، الإسلام حتى فى حروبه كان يحرّم أن يُقتل الشيخ أو المرأة أو الطفل، أو يُهدم البناء، أو يُقطع الشجر، أو يُمثّل بجثّة. ولهذا قال المؤرخ الفرنسى المعروف (غوستاف لوبون): «ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب». يعنى: المسلمين.

هل هؤلاء الملايين المعدودة فى البوسنة والهرسك يخوّفون أوربا؟! هؤلاء يريدون أن يقيموا لهم دولة بين الكروات الكاثوليك وبين الصرب الأرثوذكس، وهم ليسوا أصوليّين كما يزعمون، إنّهم أناس عاشوا نحو نصف قرن تحت وطأة الحكم الشيوعى المستبد، الذى جهّلهم بالإسلام وفرّغهم من معانى الإسلام إلاّ قليلاً منهم، فلا يكادون يعرفون عن الإسلام شيئاً، لا يعرفون من الإسلام إلاّ اسمه ولا من القرآن إلاّ رسمه، إنّهم بقايا إسلام، ما يبقيهم ويمسّكهم على الإسلام هو (شهادة أن لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله).

ولذلك قـال لى الوزير الذى زارنا هنا فى قطر حـينمـا زرته فى فندق (شيراتون) : إنّ ما أصابنا كان تأديباً من الله لنا، فقد تركنا الإسلام وجهلناه، فأراد الله تعالى أن يردنا إليه وأن يلقننا درساً قاسياً، حتى نعود إلى ديننا الذى به عزّتنا فى الدنيا وسعادتنا فى الآخرة.

هؤلاء بعدوا عن الإسلام طوال الحكم الشيوعى، الذى لم يعلّمهم لا فى مدرسة ولا فى مسجد ولا فى أىّ شىء. ولذلك كيف يقيم هؤلاء دولة أصوليّة، وهم بحاجة إلى أن يتعلّموا (ألف باء) الإسلام؟! وهم فعلاً بدأوا بهذا.

حينما علموا أنّهم يُقتلّون ويُذبّحون من أجل الإسلام، بدأوا يسألون عن هذا الإسلام، وبدأوا يستجيبون، وبدأوا يصلّون، وبدأت بعض الفتيات تتغطّى.

ذهب أحد الدعاة إلى أحد المخيمّات هناك فألقى عليهم درساً، ثمّ قال لهم: فى يوم الخميس القادم سآتى لألقى عليكم درساً آخر، وكم أتمنّى لو كنتم صائمين، فإنّ يوم الخميس ويوم الاثنين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى، فنحبّ أن ندعو الله معاً ونحن صيّام. يقول: وحينما عدت إليهم فى الدرس التالى وجدت أكثر من أربعمائة من الرجال والنساء صائمين وصائمات.

فهذا من فضل الله، ربّ ضارة نافعة، وربّ منحة فى طى محنة.

لقد قدّموا الكثير، ولكن هذا لن يضيع إن شاء الله.

إنّ الإسلام باقٍ وإن أراد أهل الكفر أن يمحوه من الأرض، ولكن هيهات: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]، هل يستطيع أحد أن يطفىء الشمس بنفخة من فمه؟ لا.

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

يا أيها الإخوة المؤمنون :

أنتم مدعوّون لمعاونة إخوانكم فى البوسنة والهرسك، وإخوانكم فى الصومال، وإخوانكم فى فلسطين، وإخوانكم فى جامو وكشمير، وإخوانكم فى كل مكان، و «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه [لا يتركه ولا يسلّمه لأعدائه بل يقف بجانبه ولو كلّفه ذلك نفسه وماله] من كان فى حاجة أخيه كان

الله فى حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة..»[1].

﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [محمّد: ٣٨].

نستطيع أن نعين هؤلاء من مال الزكاة، فهم من مصارف الزكاة بأكثر من وجه: هم فقراء، ومساكين، وأبناء سبيل، وهم فى سبيل الله. ونستطيع أن نعينهم من الصدقات بعد الزكاة، ومن الوصايا التى تُترك من أموال المتوفّين. ونستطيع أن نعينهم بالجهاد بالمال.

إنّ بعض الشباب يريد أن يذهب إلى هناك ليجاهد ، ولكنّهم حقيقة ليسوا فى حاجة إلى الرجال – وإن كان يوجد هناك بعض الإخوة من العرب والمسلمين، وهم يقومون بتقوية الروح المعنويّة لهؤلاء الإخوة من البوسنيّين – ولكن حاجتهم إلى المال، فالجهاد بالمال هو المطلوب الآن: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..** ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..** ﴾ [التوبة: ٤١]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** [هذه هى التجارة الرابحة، ما ربحها؟] **يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا** [أى أنّ الربح ليس فى الآخرة فقط ولكن أيضا فى الدنيا] **نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصف: ١٠ – ١٣].

أقول قولى هذا – أيها الإخوة – واستغفر الله تعالى، لى ولكم، فاستغفروه من كل ذنب، إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم .

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٤٧ برقم ١٣٨٦، ٢/٧٠٣ برقم ١٥٦٩).

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيّها الإخوة :

ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير، إلاّ استجاب له، ولعلّها تكون هذه الساعة.

اللهم انصر الإسلام وأعزّ المسلمين. اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى.

اللهم أيدّ إخواننا المسلمين فى البوسنة والهرسك، وإخواننا المسلمين فى فلسطين، وإخواننا المسلمين فى جامو وكشمير، وإخواننا المسلمين فى الفلبين، وإخواننا المسلمين فى بورما، وإخواننا المسلمين فى كل مكان. اللهم أيدّهم بملأ من جندك، واحرسهم بعينك التى لا تنام، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام، وأيدّم بروح من لدنك، ولا تجعل لأعدائهم عليهم سبيلا.

الّلهمّ عليك بالصربييّن المتوحشين، اللهم عليك باليهود الغادرين، اللهم عليك بأعداء الإسلام والمسلمين. اللهم ردّ عنّا كيدهم، وفلّ حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، وخذهم ومن ناصرهم أو وادّهم أخذ عزيز مقتدر.

اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه فى قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهّم اجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، ونفوسهم على المحبة، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل، ونيأتهم على الجهاد فى سبيلك.

﴿ .. **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٧].

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ [الأحزاب : ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ .. **وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥].

١٣ - الصحوة الإسلاميّة بين المتشائمين والمتفائلين
(لا يأس .. الفجر قريب)

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

في بعض المراحل من تاريخ الأمم، تسود بعض موجات التشاؤم واليأس، حتى تغلب على بعض النفوس، فتظنّ أنّ اللّيل مستمر، وأنّ الظلام لا ينتهى، وأن الفجر لن يطلع. وهذا لا ينبغى أن يكون من شيم المؤمنين، فإنّ اليأس من لوازم الكفر عند المسلمين، والقنوط من مظاهر الضلال، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ .. إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ، ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦] .

فى العام الماضى كنت فى الجزائر، فجاءنى بعض الشباب المسلم المتحمّس وقال: هل تظنّ أن تقوم لهذه الأمّة قائمة، وأن ترتفع للإسلام راية؟ وها هى الأمّة يعتدى بعضها على بعض، كالأسماك يلتهم الكبير الصغير، وكالسباع فى الغابة يفترس القوى الضعيف، يعتدى الجار على جاره، فلا تستطيع الأمّة أن تحرّك ساكناً، ولا تستطيع الأمّة أن تحلّ مشكلاتها بنفسها، فليس عندها قوّة ردع تردع الباغى، وليس عندها محكمة عدل تفصل فى الخلاف فيما بينها، وأصبح الأمر كما قال الشاعر من قبل :

فى كلّ محكمة قضيّة مسلم ... يشكو بليّته لغير المسلم

ولهذا استعنّا بغيرنا حتى يحلّ لنا مشكلاتنا، وضرب بعضنا بعضا، وقضى بعضنا على بعض، أيّاً كان الجانى والمجنى عليه، فالضحيّة هى الأمّة فى مجموعها، والمُضَيَّعُ هو اقتصاد الأمّة ومقدّراتها وأبناؤها.

هكذا كان بعض الشباب ينظرون إلى هذا الأمر.

وفى أوائل هـذا العام جاءنى بعض الشباب هنا فى الدوحة وقالوا: ألا ترى ما يحدث؟ هذا مؤتمر السلام كما يدّعونه، إسرائيل تتعجرف وتتحكّم وتشترط، والجميع يحنون لها الرؤوس، ويقبلون الشروط، تنهى الاجتماع عندما تريد، وتحضر عندما تريد، وتحدّد ما ترى، ولا يستطيع أحد أن يردّ لها قولاً، أو ينقض لها شرطا، أليس هذا هو الوهن الذى قال الله تعالى فيه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمّد: ٣٥].

أصرّ (شامير) على أن ينهى المؤتمر فى (مدريد) ويعود ليقوم بشعائر السبت، وقال له بعض الحاضرين من وزراء الخارجيّة المسلمين: ها نحن يوم الجمعة ومع هذا لم نبال بيوم الجمعة! فلماذا إصرارك على الرجوع إلى إسرائيل يوم السبت؟!

هذا هو كلّ ما عندنا: أنّ اليهود يحترمون يوم السبت، ونحن لا نحترم يوم الجمعة!

رأى البعض فى هذا المؤتمر(1) أنّه إجهاضة للانتفاضة، وقضاء على الجهاد.. الجهاد الذى رُفض أن يذكر مجرد عنوان أو لفظة فى بيان مؤتمر القمّة الإسلامى فى السنغال.

وجاء آخرون - وأنا ذاهب إلى أمريكا وبريطانيا - من الشباب المصرى المسلم يقولون لى: ألا ترى ما يحدث؟ ألا ترى هذه الكوارث؟ ألا ترى هذه الحوادث؟ الناس يموتون بالمئات من أجل أناس أخذوا رشوة، وسمحوا بعبّارة لا تصلح للعبور، أليس هذا دليلاً على التسيّب؟ ألا ترى هذا الفساد؟ ألا ترى الوزير الذى اشترى لنفسه، وباع لنفسه، وجمع مئات الملايين؟

وهكذا فى كلّ مكان أرى المتشائمين واليائسين.

وحينما اختلف المجاهدون الأفغان بعضهم مع بعض، وقُتل أحدُ القادة نتيجة فتنة، جاءنى بعض الناس وقال: انظر إلى هذا الجهاد الأفغانى الذى طالما تحدثتم عنه ودعوتم إلى تأييده، قتل بعضهم بعضا، وفعلوا وفعلوا.

(١) أى: (مؤتمر السلام) فى مدريد كما يزعمونه

يريدون أن يشوّهوا الصورة المضيئة المشرقة التى بيّضت وجه الإسلام وشرّفت المسلمين.

وآخرون يقولون: انظر كيف انتهى الجهاد الإريترى إلى أن يُسلّم الحكم إلى جبهة يساريّة علمانيّة غير إسلاميّة. أهذا هو الجهاد الذى طالما دعوتم لأصحابه بالنّصر؟ أهذه هى القضيّة؟

هكذا، المتشائمون يرون الصورة من وجه واحد، لا يرون إلاّ الفساد، ولا يرون إلاّ الانحراف، ولا يرون إلاّ الظلام. ينظرون إلى الأمور بمنظار أسود قاتم، ولكن الواقع أنّ الصورة ليست كلّها كذلك.

ولكن هل هذه الصورة السوداء هى الحقيقة كلها؟ وهل صحيح أنّ الأمّة كلها غارقة فى ظلام دامس، وأنها لا تسير من سيء إلاّ إلى أسوأ، ولا من الأسوأ إلاّ إلى الأشد سوءا؟

نحن نظلم أنفسنا، ونظلم أمتّنا، ونظلم ديننا، إذا نظرنا إلى الأمور بهذه الطريقة، إذا شوّهنا الصورة إلى هذا الحد، إذا سكتنا عن المحاسن، وجسّمنا المساوىء، إذا أغفلنا المزايا، وضخّمنا الأخطاء والعيوب، إذا نظرنا إلى جانب واحد فقط من الصورة، وأعرضنا عن الجانب الآخر.

نظلم أنفسنا إذا نظرنا إلى الأمر كذلك، ناسين أنّ مع العسر يسرا، وأنّ بعد الليل فجرا، وأنّ بعد الظلام نورا، وأنّ الأمور لا تدوم هكذا، وأنّ فى الصورة جوانب ينبغى أن ننظر إليها وينبغى أن نهتمّ بها، وينبغى أن نضعها أمام أعيننا.

لماذا لا ننظر إلى هذا الجهاد المقدّس فى فلسطين.. إلى أطفال الحجارة.. إلى هذا الشباب الذى انطلق من المساجد يرفع شعار (لا إله إلاّ الله والله أكبر)، يتحمّل ما يتحمّل من كسر العظام، ومن دقّ الأجسام، ومن التعذيب فى المعتقلات، ومن القتل، ومن.. ومن.. ومن؟؟

لماذا لا ننظر إلى هؤلاء الصامدين؟

لماذا لا ننظر إلى الجهاد الأفغانى الذى ظلّ سنين طويلة يقاتل أعتى قوّة

ملحدة في الأرض.. وأعتى دولة ملحدة في التاريخ: دولة الاتحاد السوفيتي؟ قاتلها بأسلحته البسيطة التي قام بها في أوّل الأمر (بعض بنادق وبعض مسدّسات)، ثمّ ظل ينتزع أسلحته بعد ذلك من عدوّه، حتى اعترف الناس به، وأيّده من أيّده، وظلّ هذه السنين صامداً شامخاً راسخاً كالجبل الأشم، حتى كان سبباً من الأسباب التي أدّت إلى التغيير ثمّ الانهيار في الاتحاد السوفيتي.

لماذا لا نذكر هذا أيها الإخوة؟

لماذا لا نذكر الجزائر؟ الجزائر التي ظلّت مائة وثلاثين عاماً تحت الحكم الفرنسي.. تحت الاستعمار الاستيطاني المتعصّب، الذى أرادأن يلغي هُوِية الجزائر، فحارب الإسلام ديناً، وحارب العربية لغة، وفرنس التعليم، وحوّل كثيراً من المساجد إلى مستشفيات أو ثكنات أو كنائس أو نحو ذلك.

وظنّ الناس الظنون بأنّ شعب الجزائر قد انتهى من الخريطة العربية والإسلاميّة. ولكنّ الله هيّأ له أمثال: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، وإخوانهما من العلماء الصامدين الراسخين، الذين أبوا إلاّ أن يحفظوا على هذا الشعب شخصيتّه الإسلاميّة وهُويّته التاريخيّة، وحفّظوه في المدارس الإسلاميّة التي أنشأوها:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عنَ اصله أو قال مات فقد كذب

وظلّت هذه التربية تعمل عملها حتى كانت ثورة الجزائر، أو الجهاد الجزائري، أو حرب التحرير الجزائري، بين المسلمين والفرنسيّين - كما كان يقال في إذاعات العالم في ذلك الوقت - وقدّمت الجزائر مليوناً ونصف المليون من الشهداء، وتحرّرت، وخرج الناس في الشوارع يهتفون:

يا محمّد[1] مبروك عليك الجزائر رجعت إليك

---

(١) أي: رسول الله ﷺ.

صحيح أنّها لم ترجع كاملة إلى محمد ﷺ – وإنّما اختطفها كارل ماركس، على عادة ما يحدث فى كثير من بلاد الإسلام: الإسلام يزرع والعلمانيّة تحصد – ولكن حينما أتيحت الفرصة للشعب الجزائرى ليعبّر عن نفسه، لم يجد إلاّ الإسلام ملاذاً وملجئاً، وكانت الصحوة الإسلاميّة الهائلة التى رأيتها بعينى وعايشتها تلك السنين التى مضت خلال عقد الثمانينات.

لقد كنت أخطب الجمعة فى بعض الأحيان، فيحضر مائة وخمسون ألفاً أو مائتا ألف من الفتيان والفتيات، يستمعون إلى الخطبة!

البنات اللاّتى تربين على مناهج فرنسا قديماً، وكنّ لا يعرفن إلاّ العرى، التزمن الحجاب طواعية واختيارا، وأصبحت تمرّ فى الشوارع فلا تكاد تجد امرأة عير محجبة إلاّ القليل.

وكانت النتيجة ما رأيناه وقرأناه وسمعناه من نجاح التيار الإسلامى فى الجزائر. وليس هذا بغريب، والمسلمون جرّبوا اليمين، وجرّبوا اليسار، جرّبوا الليبراليّة، وجربوا الاشتراكيّة، فلم يجنوا من وراء ذلك إلاّ الضياع والخراب على كلّ صعيد، فلماذا لا يجرّبون الإسلام؟

على أنّ الإسلام ليس مجرد تجربة، الإسلام – بحكم العقد الذى بيننا وبين الله – ليس لنا خيار فى قبوله أو رفضه، بل لا بدّ أن نختاره، ووراءه الخير كلّ الخير إذا أحسنّا فهمه وأحسنّا تطبيقه.

وللأسف وجدنا الغرب كلّه بقضّه وقضيضه، يخاف من انتصار التيّار الإسلامى فى الجزائر، ويخوّف المسلمين من وراء ذلك. لم هذا كلّه؟ شعب اختار لنفسه الطريق.

ألستم أنتم أيّها الغربيون تدعون إلى الديمقراطيّة، وتدعون الشعوب لتختار لنفسها؟! فإذا اختار الشعب الإسلام، كانت الديمقراطيّة شيئاً يُخاف ويجب أن يُمحق ويُسحق؟! ويدعو من يدعو إلى تدخل الجيش الجزائرى وإلى.. وإلى..، لم هذا كلّه؟

لماذا يُخاف الإسلام ؟

إسرائيل تقيم دولة على أساس التوراة، فإذا جاء من يريدون أن يقيموا دولة على أساس القرآن، كان هذا هو الشيء المرفوض؟! الإسلام وحده هو الذى يحارب فى العالم؟! لماذا لا يحترم الناس رغبة الشعب الجزائرى؟

كلّ ما نريده من الذين نجحوا هناك : أن يلتزموا بالإسلام الصحيح، وأن يلتزموا الحكمة، وأن يعرفوا موقعهم من العالم، وأن يدعوا بالحكمة والموعظة الحسنة، وألاّ يتهوّروا ولا يرتكبوا الحماقات .

أليست هذه - أيّها الإخوة - نقطة تُحسب للإسلام ولأمته بدل هذا التشاؤم واليأس الذى عمّ الكثيرين؟

لا ينبغى أن نيأس، فالإسلام قوى، ويوم تتاح له الفرصة سيظهر ويبرز إلى الوجود .

أما الخائفون من الإسلام فماذا نصنع لهم ؟

كانوا من قبل يقولون : احذروا المتشددين المسلمين، احذروا المتطرفين . أتدرون ماذا يقولون اليوم؟ يقولون : احذروا المعتدلين المسلمين، احذروا الإسلام المعتدل، إنّ هؤلاء المعتدلين أشدّ خطراً، إنّ المتطرفين لا يدومون طويلا، إنّ عمر المتطرف قصير، أمّا الذين يستمرّون ويدومون، فهم المعتدلون الذين يدعون إلى التوازن والوسطيّة والاعتدال، اخشوا من هولاء !!

لماذا لا يتركنا هؤلاء وشأننا؟ لماذا يريدون أن يقفوا لنا بالمرصاد؟ لماذا هم خائفون من أىّ حركة للإسلام إلى الأمام؟ حتى إنّ بعضهم حينما قال : حلّوا حلف الأطلنطى، فلم يعد له مكان بعد أن حُلّ حلف وارسو، وأصبح هناك قطب واحد . فقالت رئيسة وزراء بريطانيا : إنّ بقاء الحلف ضرورى لمواجهة (التطرّف) فى الشرق الأوسط ! ولهذا انتقل مقرّ الحلف من شمال أوربا إلى جنوبها فى إيطاليا، ليكون بقرب هذه المنطقة، وما التطرف المقصود فى الشرق الأوسط؟ إنّه الإسلام، والإسلام وحده .

إنّ الإسلام – أيها الإخوة – بخير .

كنت فى أمريكا وفى أوربا، وحضرت مؤتمرات الشباب الإسلامى هناك. الناس فى تلك الأيام يحتفلون – فى إجازاتهم – بما يُسمّى (الكرسمس)، أى: أعياد الميلاد. تُقضى الإجازات فى شرب المسكرات، وتناول المخدّرات، والعبّ من كؤوس اللذات. ولكنّ هذا الشباب انتهز الفرصة ليقيم معسكرات إسلاميّة.

هذه المعسكرات أو المخيمات تقوم على العبادة والثقافة والرياضة.. على قيام الليل، وصلاة الفجر، وحلقات الدروس، والمحاضرات والندوات والأناشيد الإسلاميّة.

فى قلب أمريكا وأوربّا آلاف من الشباب المسلم. رأيتهم هناك فى أمريكا، ورأيتهم فى بريطانيا ورأيتهم فى فرنسا، ورأيتهم فى غيرها من البلاد.

من كان يظنّ أن يذهب الشاب إلى تلك البلاد ليزداد تديّناً، أو ليعرف الدين هناك من إخوانه الشباب ! يذهب الشباب – من الخليج ومن الشام ومن مصر ومن المغرب، ومن بلاد كثيرة – غير متديّن، لا يكاد يعرف الصلاة، أو لا يصلّى أبداً، فيلتقى بإخوته من الشباب المسلم هناك، فيعود شاباً مسلماً ملتزماً متحمساً غيوراً على دينه !

كانوا قديماً يرون أنّ إنضاج الشاب إنضاجاً كاملاً ليعود إلى بلده بعقل غير عقل المسلم، وقلب غير قلب المسلم: أن يبعث فى بعثة إلى بلاد الغرب.

عندما احتلت انجلترا مصر وغيرها من البلاد، كان سبيل التغيير الأوّل هو: التعليم والتربية، عن طريق المدارس التبشيريّة والأجنبيّة فى البلاد، ثمّ عن طريق الإشراف على التعليم الوطنىّ نفسه – فى مصر كان هناك قسّيس اسمه (دنلوب)، هو الذى يضع المناهج والبرامج وفلسفة التعليم، ويشرف عليها فى وزارة المعارف حينذاك – ثمّ من أرادوا أن ينضجوه إلى النهاية بعثوا به إلى أوربّا، ليعود (خواجة) تماماً، اسمه اسم المسلمين، وعقله لا يعرف عن الإسلام إلاّ صورة شائهة .

تغيرّ الوضع الآن والحمد لله .

أليس هذا ممّا يبشّر بخير ؟

حدثني بعض الإخوة القادمين من العراق : أنّه بعد أن تراخت قبضة الحكومة القائمة، عاد الناس إلى الإسلام . . إلى المساجد، بعد أن كانوا يخافون من الذهاب إلى المساجد، وبعد أن كانوا يخافون من قراءة كتاب إسلامى أو يضبط مع أحدهم كتاب إسلامى .

عاد الناس إلى الدين، لأنّه الفطرة التى فطر الله الناس عليها، ولأنّه حقيقة هذه الأمّة .

الحقيقة المعبرّة عن هذه الأمّة وعن شعوبها جميعاً هى : الإسلام .

ورأيت بعض الإخوة من اليمن الجنوبيّة . اليمن الجنوبيّة كانت تحكمها الماركسيّة الشيوعيّة، والذين كانوا يحكمونها كانوا أشدّ تعصّباً من أهل روسيا أمّ الاشتراكيّة، كانوا ماركسيّين أكثر من ماركس نفسه، كانوا يعيبون على الشيوعيّين الآخرين – ومنهم الروس – تهاونهم فى الشيوعيّة، والآن بعد عهد الوحدة، وبعد أن أتيح للناس إن يتنفّسوا الصعداء، عاد الناس إلى الإسلام، وأقبلوا زرافات ووحداناً إلى هذا الدين .

الإسلام ينتصر فى كلّ مكان .

لماذا لا نذكر هذا؟ إذا كنّا نذكر دائماً السلبيّات، لماذا لا نذكر الايجابيّات؟ لماذا لا نذكر الوجه المشرق؟ لماذا لا نذكر شباب الصحوة الذى نراه فى كلّ مكان داخل بلاد الإسلام وخارجها؟ لماذا لا نذكر الفتيات المحجبات، اللاّتى لم يلزمهنّ أب ولا زوج بالحجاب، ولكن هنّ ألزمن أنفسهن بهذا الحجاب استجابة لأمر الله تبارك وتعالى . لا شىء غير ذلك؟ لماذا لا نذكر هذا كله حتى تمتلىء قلوبنا بالأمل؟

بعض النّاس يذكرون أحاديث الفتن وأشراط الساعة وما ورد فى آخر الزمان، أحاديث يفهمونها على غير وجهها، توحى بكل يأس وبكلّ قنوط، وهذا غير صحيح . لا يمكن أن يذكر النبى ﷺ هذه الأحاديث ليملأ قلوب الأمّة باليأس .

من هذه الأحاديث: « بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء » [1]، و « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض ظلما وجوراً وعدوانا . . » [2]، و« . . لا يأتى عليكم زمان إلاّ والذى بعده أشرّ منه . . » [3].

وتذكر هذه الأحاديث لتوحى للمسلم العادى أنّ الكفر فى إقبال، والإسلام فى إدبار، وأنّه سيظلّ مدبراً حتى تقوم الساعة على لكع بن لكع، أى: كافر بن كافر.

هل هذه هى الحقيقة؟ وهل أراد النبى ﷺ بهذه الأحاديث أن يوئسنا ويقنّطنا؟ كيف وهو الذى يقول فى أمر الدنيا: «إنْ قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة [نخلة صغيرة. . شتلة] فإن استطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فليغرسها» [4] لو أنّ إسرافيل ممسك بالصُّوْر لينفخ وينهى هذه الحياة، وفى يدك نخلة صغيرة، فإن استطعت أن لا تنتهى الحياة حتى تغرسها فاغرسها، لماذا ولن تأكل منها، ولن يأكل منها أحد بعدك، ولن ينتفع بها مخلوق؟ إنها إشارة إلى أنّ المسلم يظلّ عاملاً منتجاً معطاء حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، ولو لم ينتفع بهذا العمل أحد، لأنّ العمل فى حدّ ذاته عبادة لله عزّ وجلّ.

هذا فى أمر الدنيا، فما بالكم فى أمر الدين ؟! أمعقول أن يقول الإسلام

---

(1) رواه مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة، والترمذى وابن ماجة عن ابن مسعود، وابن ماجة عن أنس، والطبرانى عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس، رضى الله عنهم جميعا (المبشرات بانتصار الإسلام للقرضاوى: ص ١٠٧).

(2) رواه الحاكم وصححّه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى (المبشرات بانتصار الإسلام: ص ٤٠). وتتمّته: « ثمّ يخرج رجل من أهل بيتى يملؤها قسطاً وعدلا، كما ملئت ظلماً وجوراً وعدواناً».

(3) رواه البخارى فى كتاب الفتن من صحيحه، بسنده إلى الزبير بن عدى قال: «أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجّاج، فقال: اصبروا، فإنّه لا يأتى عليكم زمان إلاّ والذى بعده أشرّ منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ» انظر: (فتح البارى: ١٣ / ٢٢). ط . دار الريان بالقاهرة.

(4) رواه أحمد فى مسنده، والبخارى فى الأدب المفرد عن أنس، وكذا الطيالسى والبزار، وقال الهيثمى: رواته ثقات أثبات. (المبشرات بانتصار الإسلام للقرضاوى: ص ١٠٨).

للمسلم : اترك الدعوة إلى الله، اترك الأمر بالمعروف، اترك النّهى عن المنكر، اترك العمل لإصلاح الفساد، لأنّنا فى آخر زمن ولا فائدة؟

مستحيل، مهما فسدت الأحوال، فقد جاءت الآيات والأحاديث تبشّرنا أنّ الأمّة لا تجتمع على ضلالة، وأنّه إن ضلّ قوم فسيظلّ هناك مهتدون هادون :

﴿ .. فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾

[الأنعام: ٨٩].

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴾

[التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]. ليظهر الإسلام ويغلب على كلّ الأديان، وقد ظهر على اليهوديّة والنصرانيّة والمجوسية، ولكن بقيت البوذيّة والهندوسيّة والوثنيات المختلفة، ولا بدّ أن يظهر مرّة أخرى على كلّ دين، وهذه آية ذُكرت فى القرآن ثلاث مرّات[1].

﴿ .. وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [2].

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. ﴾ [3].

بشائر القرآن كثيرة، وبشائر السنة أكثر:

« لا تزال طائفة من أمتى قائمين على الحق لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك »، فعليك إذن أن تنضمّ إلى هذه القافلة .. أن تنضمّ إلى هذه الطائفة المنصورة، القائمة على الحق، الثابتة عليه إلى يوم القيامة.

(١) فى (التوبة) و (الصف) : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾. فى (الفتح) : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

(٢) التوبة: ٣٢، وأولها: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ .. ﴾.

(٣) النّور: ٥٥، وتتمّتها: ﴿ يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: «ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنّهار [ينتشر في المشرق والمغرب وفى كل مكان ظهر فيه ليل أو نهار، أى فى العالم كلّه وفى الكرة الأرضيّة كلّها] ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر [بيت من حجر أو من شعر أى فى الحضر أو فى البوادى] إلاّ أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزّاً يعزّ الله به الإسلام وأهله وذلاً يذلّ الله به الكفر» (١)، هكذا بشّرنا عليه الصلاة والسلام بانتشار (الدعوة).

وبشّرنا كذلك باتساع (الدولة) فقال: «إنّ الله زوى لى الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمّتى سيبلغ ملكها ما روى لى منها..»(٢) . وقد حدث فيما سبق أن انتشرت الدولة الإسلاميّة من أطراف الصين إلى الأندلس، ولكنّها لم تبلغ كلّ المشارق وكلّ المغارب، كما بشرنا الحديث الشريف.

وحدّثنا عليه الصلاة والسلام أنّه بعد الخلافة الراشدة سيكون هناك ملك عضوض، ثم ملك جبرى، ثمّ تكون خلافة على منهاج النبوّة(٣) . هذه بشرى من بشريات رسول الله ﷺ.

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص: أىّ المدينتين تفتح أوّلاً: القسطنطنيّة أو روميّة؟ - روميّة كما يقول ياقوت فى (معجم البلدان) هى (روما) عاصمة إيطاليا الآن، وقسطنطنيّة هى استانبول - فأخرج صحيفة من صندوق عنده، وقال: سئل النبى ﷺ هذا السؤال - وكأن الصحابة قد علموا أو سمعوا أنّ كلتا المدينتين ستفتح، لكنّ السؤال: أيهّما يفتح أوّلاً؟ - فقال: «مدينة هرقل تفتح أوّلاً»(٤) أى: (قسطنطنيّة).

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح (بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد: ٦/٧ - ٨ برقم ٩٨٠٧).

(٢) رواه مسلم عن ثوبان رضى الله عنه (شرح السنة للبغوى بتحقيق الأرناؤوط: ١٤/٢١٥ برقم ٤٠١٥).

ومعنى (زوى لى الأرض): أى قبضها وضمّها وجمعها له ﷺ حتى يراها جملة واحدة.

(٣) انظر نصّ الحديث فى (خطبة عيد الفطر) ص ٢١٣

(٤) أورده الهيثمى فى المجمع وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبى قبيل وهو ثقة (بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد: ٦/٣٢٣ برقم ١٠٣٨٤).

وهذا ما حدث بالفعل، فتح هذه المدينة ذلك الشاب العثمانى الطموح (محمد بن مراد) المعروف فى التاريخ باسم (محمد الفاتح)، الذى قرأ فى كتب الحديث.. فى مسند أحمد ومستدرك الحاكم: «لتفتحنّ القسطنطنيّة، لنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» [1]، فتاقت نفسه - وكان ذا نفس توّاقة - أن يكون هذا الفضل قد ادّخر له، وأن يكون جيشه هو الجيش الموعود، وأن يكون هو الأمير المنشود، وظلّ يهيّء الأسباب ويُعدّ الخطط لفتح القسطنطنيّة، ففتحها وهو ابن الثالثة والعشرين!

ليعرف ذلك شبابنا، ليعرفوا كيف تكون المطامح والأحلام.

فتحت القسطنطنيّة بطريقة معروفة: المراكب أجراها السلطان محمد الفاتح على القطران (الزفت)، ودخل القسطنطنيّة هناك من الجانب الآسيوى إلى الجانب الأوربى سنة (١٤٥٣) م، ومن زار منكم استانبول، وزار منطقة الفاتح، وجامع محمد الفاتح، وجد هذا الحديث مكتوباً على الباب من الخارج: «لتفتحنّ القسطنطنيّة، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

فتحت القسطنطنيّة، وبقى أن تفتح روميّة إذن، هكذا بشّرنا رسول الله ﷺ.

ننتظر أن تفتح روميّة.. أى إيطاليا.. أى الفاتيكان.. أى أن يعود الإسلام إلى أوربا مرّة أخرى.

وما أحوج الغرب كلّه إلى الإسلام أيها الإخوة. إنّ الغرب استطاع أن يصعد إلى القمر، ولكنّه لم يسعد نفسه على سطح الأرض. إنّ الناس هناك يشكون من القلق والاكتئاب.. من الاضطرابات النفسيّة.. من العقد.. من الحياة التى لا معنى لها ولا طعم، يشعرون فيها بالتفاهة والضياع، ولهذا كثيرا ما يتخلصون من حياتهم بالانتحار.

وهذا سرّ ما نراه ونقرأه ونسمع عنه عن الخنافس والهيبز وغير ذلك، من

---

(١) رواه أحمد، والحاكم وصححه عن بشر الغنوى، وأقرّه عليه الذهبى (فيض القدير للمناوى: ٥ / ٢٦٢ برقم ٧٢٢٧).

الذين ثاروا على مادية الحضارة وآليّتها. الحضارة لم تشبع نهمهم الروحى، لم تملأ فراغهم العقائدى، إنّهم يريدون شيئاً آخر، إنّهم ثاروا على الحضارة ولكنّهم لا يعرفون البديل، والبديل عندنا.

هل نقدّم نحن البديل للإنسانيّة المعذّبة؟ هل نحمل الراية؟ هل نحمل الرسالة إلى العالم؟

لا يوجد غيرنا يحمل طوق النجّاة، لا يوجد غيرنا عنده سفينة الانقاذ، الإسلام وحده هو سفينة الانقاذ للعالم.

ولكن كيف نقدّم الإسلام للعالم، إذا لم نقمه فى ديارنا بفهم صحيح للإسلام وتطبيق صحيح له؟ إنّنا مسؤولون عن ضلال الأمم، سيسألنا الله عزّ وجلّ عن المليارات من البشر الذين لم يعرفوا الإسلام إلى اليوم، لأنّنا لم نقدم لهم الإسلام كما ينبغي. نحن مشغولون بالصراع بين بعضنا مع بعض، أو بهموم أنفسنا، أو بالحياة المادية التى طغت علينا، ولم نُشغل بديننا كما شُغِل الآخرون بدينهم.

المسيحيّة جيّشت جيوشاً من المبشرين (أكثر من أربعة ملايين)، ودفعت المليارات، وليس ملياراً واحداً، كالذى حدثتكم عنه فى مؤتمر (كلورادو)، وهو مؤتمر من المؤتمرات جمعوا فيه فى ليلة واحدة (ألف مليون دولار)! ولكن مليارات الدولارات تُدفع باستمرار مساعدة للكنائس. فهل نقوم نحن بنصرة ديننا كما يقوم الآخرون بنصرة أديانهم؟

هذا ما يُطلب منها.

دَيْنٌ فى أعناقنا، وفى عنق كلّ مسلم ومسلمة: أن نعمل للإسلام، كما نعمل بالإسلام، وأن ندعو إلى هذا الدين فى الداخل والخارج، وأن لا نخاف من الإسلام.

كثير من النّاس يخافون من الإسلام. الإسلام مصدر الأمن وليس مصدراً للخوف. لا يخاف من الإسلام إلاّ متحلّل، يخاف أن يحكم الإسلام عليه بسدّ باب الشهوات، كما قال قوم لوط من قبل: ﴿.. أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ

﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[1] . لا يخاف من الإسلام إلاّ فاجر أو ظالم أو متعدّ على حرمات النّاس.

الإسلام هو مصدر العدل، ومصدر الأمان، ومصدر الاستقرار، ومصدر الطمأنينة . وهو وحده الذى يصنع الإنسان الصالح فى مجتمع صالح . إذا كنّا نشكو من التسيّب أو الفساد – فساد الضمائر وفساد القلوب – فلن يصلحنا إلاّ أن نعود إلى الإسلام، ونربى عليه الأمّة، ونربى عليه الأجيال من جديد، حتى نخرّج الإنسان الذى يخاف الله، ويراقب الله عزّ وجلّ، فالقوانين وحدها لا تصلح المجتمعات.

لن يصلح القانون فينا رادعاً ... حتى نكون ذوى ضمائر تردع

﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾ [الرعد: ١١].

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل يومنا خيراً من أمسنا، وأن يجعل غدنا خيراً من يومنا، وأن يحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد، فقد ورد أنّ فى يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه أيّاه، ولعلّها تكون فى هذه الساعة اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير واجعل الموت راحة لنا من كل شر... اللهمّ انصر إخواننا المجاهدين فى كلّ مكان، اللهم احرسهم بعينك التى لا تنام، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام.

اللهمّ عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهمّ ردّ عنّا كيدهم، وفُلّ حدّهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين اللهم آمنين.

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) النّمل: ٥٦، وأوّلها: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا .. ﴾. وفى سورة الأعراف: ﴿ وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناس يتطهرون ﴾ [٨٢].

١٤ - خطبة عيد الفطر

ألقيت بمدينة الدوحة عام ١٤١٦ هـ

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر . الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر . الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الحمد لله الذى منّ علينا بنعمة الإسلام، وأكمل لنا به هذا الدين القويم، وارتضاه لنا ليكون لنا منهاجاً ﴿ .. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴾ [المائدة: ٣] ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له،جعلنا بالإسلام خير أمّة أخرجت للناس، جعلنا شهداء على الناس كما جعل الرسول علينا شهيدا. وأشهد أنّ سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمّداً عبد الله ورسوله، أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمّة، وجاهد فى الله حقّ جهاده، وتركنا على المحجّة البيضاء، على الطريقة الواضحة الغرّاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا.

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على هذا النبى الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهمّ على سنّته، وأمتنا على ملّته، واحشرنا فى زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أمّا بعد فيا أيّا الإخوة المسلمون :

التكبير زينة العيد :

هذا يوم التكبير، جاء فى بعض الآثار: «زيّنوا أعيادكم بالتكبير»(١)، فالله أكبر الله أكبر الله أكبر . الله أكبر ما صام صائم وأفطر، الله أكبر ما هلل مهلّل

(١) رواه الطبراى فى الأوسط والصغير بسند ضعيف عن أبى هريرة رضى الله عنه =

وكبرّ، الله أكبر ما أحسن محسن واستبشر، الله أكبر ما أذنب مذنب واستغفر، الله أكبر ما ذهب يوم وأدبر، الله أكبر ما أشرق صبح وأسفر.

الله أكبر ، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد .

التكبير شعار من شعائر الإسلام، به يدخل المسلم الصلاة «مفتاح الصلاة الطُهُور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»[1]، بالتكبير ينتقل المسلم بين أركان الصلاة المختلفة: إذا ركع كبر، وإذا سجد كبر، وإذا قام بين السجدتين كبر، التكبير، به يستقبل المسلم مولوده فيؤذنّ فى أذنه اليمنى: الله أكبر، الله أكبر التكبير، به يدخل المسلم المعارك: الله أكبر الله أكبر كما قال الرسول الكريم عندما غزا خيبر: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[2].

التكبير أن تعلم أنّ الله أكبر من كل شيء، كلّ ما يخيلّ إليك أنّه كبير، فالله أكبر منه، إن كان بعض الناس كبراء عندك فالله أكبر منهم، إن كان المال كبيراً عندك فالله أكبر من المال، إن كان الجاه كبيراً فالله أكبر من الجاه والمنصب، إن كانت الدنيا كبيرة لديك فالله أكبر منها، يستحضر المسلم كبرياء الله تعالى وتعاليه وعظمته كلما نطق بهذا الشعار: الله أكبر.

وفى الأعياد يتكرّر هذا الشعار: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا.

= مرفوعاً، وعزاه فى الدرر للطبرانى عن أنس، ولأبى نعيم بسند فيه كذّابان عن أنس رفعه: «زيّنوا العيدين بالتهلّيل والتكبير والتحميّد والتقديس»، وقال ابن الغرس: قال شيخنا حديث حسن، وأورده السيوطى فى الجامع الصغير وعزاه إلى أبى نعيم وإلى زاهر عن أنس، قال المناوى: ورواه عنه الديملى أيضاً (كشف الخفاء: ١/٤٤٣ برقم ١٤٤١) وانظر: (فيض القدير: ٤/٦٨ برقم ٤٥٧٨، ٤/٦٩ برقم ٤٥٧٩).

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجة، عن على رضى الله عنه، رمز السيوطى لحسنه تبعاً للنووى، وقال العلاّمة المناوى: وزعم ابن العربى أنّ إسناد أبى داود أصلح من الترمذى، قال اليعمرى ولا وجه له وفيه محمد بن عقيل ضعفّه الأكثر لسوء حفظه، لكن ينبغى أن يكون حديثه حسنا (فيض القدير للمناوى: ٥/٥٢٧ برقم ٨١٩٣).

(٢) جزء من حديث أنس المتفق على صحته انظر: اللؤلؤ والمرجان (٩٠٠)، (١١٨٠).

تميز أعياد الإسلام :

الأعياد واحة للإنسان في رحلة الحياة، لا يحتمل الإنسان أن تكون الحياة كلها جداً لا لهو فيه، وكلّها تعباً لا راحة فيه، لهذا عرف الناس الأعياد، وعرفت الأمم الأعياد لمناسبات شتىّ، ربطتها أحياناً بمعان وذكريات قوميّة، وأحياناً بمعان وذكريات وثنية، ولكنّ الإسلام ربط أعياده بمعان ربانيّة ومعان إنسانيّة.

كان للأنصار في الجاهلية عيدان أو يومان يلعبون فيهما، فلمّا جاء الإسلام أبدلهم الله بهذين اليومين يومين آخرين: يوم الفطر ويوم الأضحى[1] . وهذان اليومان ارتبطا بعبادتين عظيمتين:

١ - عيد الفطر ارتبط بفريضة الصيام، تلك العبادة العظيمة التي يتربى فيها المسلم على كمال العبوديّة لله، يُقوّى فيها إرادته، يدع طعامه من أجل الله، وشرابه من أجل الله، وشهوته من أجل الله، وزوجته من أجل الله، ولذلك استحق أن يُنسب هذا الصيام إلى الله: « .. الصيام لي وأنا أجزي به.. »[2].

الصيام تربية لإرادة المسلم، يتعلّم منه: كيف يدع الشيء وهو يشتهيه، ويستطيع أن يتناوله لو أراد.

ربط الإسلام عيد الفطر بهذه الفريضة، فإذا أتمّها استحق العيد. ولذلك يسمّى العيد يوم (الجائزة)، كأنّه جائزة لمن صام وقام، جائزة من الله تعالى لعباده يوزّع عليهم مغفرته ورحمته، ولهذا جاء في آية الصيام: ﴿ .. **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢ - وربط عيد الأضحى بفريضة الحج، فالعيد يوم الحج الأكبر الذي

---

(١) رواه أبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٤٦٥)، وأحمد (٣، ١٠٣، ١٧٨، ٢٣٥)، كلهم من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٠٧ برقم ٥٠٥).

يذهب الناس فيه من مزدلفة إلى رمى الجمار، ثمّ إلى الطواف بالكعبة، إلى الحلق، إلى النّحر والذبح، إلى التحلل. هذا كلّه فى يوم العيد.

المعنى الربانى فى أعيادنا :

ربط الإسلام عيد الفطر بالصيام، وعيد الأضحى بالحج، لنعلم أنّ الأعياد عندنا هى أيّام شكر لله عزّ وجلّ، ليس العيد انطلاقاً للشهوات كما عرف فى أديان أخر: انّ يوم العيد يوم يسيرُ الناس وراء شهواتهم، يعبّون منها حلالاً كانت أو حراما، لا، العيد فى الإسلام يبدأ بالعبادة.. بصلاة العيد.. بالتكبير لله عز وجل.

صلاة العيد فرض كفاية على كلّ جماعة مسلمة، وهى سنّة بالنسبة لكل مسلم ومسلمة، من فاتته الصلاة فى الجماعة مع الإمام ينبغى أن يصلّى وحده، أو يصلى مع أهل بيته.. مع زوجته وأولاده، فالصلاة للرجال وللنّساء جميعا.

العيد مهرجان إسلامى للرجال والنساء والأطفال :

وقد حرص النبى ﷺ أن يكون يوم العيد يوم مهرجان إسلامى (عرس إسلامى) للأمة كلها، ولذلك دعا الجميع إلى المشاركة فيه، دعا الرجال ودعا النّساء، حتى قالت أمّ عطيّة رضى الله عنها: انّ رسول الله ﷺ كان يخرج الأبكار والعوائق وذوات الخدور والحيُضّ فى العيدين، فأمّا الحُيّض فيعتزلن المصلّى ويشهدن دعوة المسلمين، قالت إحداهنّ: إن لم يكن لها جلباب؟ [ثوب خارجى تخرج به] قال: «فلتعرها أختها من جلابيبها»(١) تستعير من أختها.. من جارتها.. من صديقتها.. من قريبة لها، وتذهب إلى صلاة العيد، حتى الحُيّض أمرهنّ النبى ﷺ أن يحضرن ويشهدن العيد، يعتزلن الصلاة ولكن يشهدن الخير ودعوة المسلمين وإن كنّ حُيّضاً، وهذه سنّة هجرها المسلمون للأسف.

ممّا حدث فى المجتمعات الإسلاميّة: أنّهم عزلوا المرأة عن الدين، كأنّ الدين

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى، والعواتق: جمع العاتق، وهى الجارية التى قاربت الإدراك (شرح السنة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ٤/٣١٩ – ٣٢٠ برقم ١١١٠).

للرجال وحدهم وليس للنساء، وعزلوها عن المساجد، فلا تذهب إلى جمعة ولا إلى جماعة، وعزلوها عن العيد، فلا تشارك الرجال فرحة العيد وصلاة العيد .

والحمد لله قد بدأنا مع الصحوة الإسلامية نحيي هذه السنن .

هنا أرى قليلاً من الأخوات قد حضرن، ولكن ينبغي أن يحضر النساء، أي أن يأتي كل رجل معه بزوجته وبناته، ليحضرن هذا المهرجان الإسلامي .

المرأة مكلفّة كالرجل، المرأة نصف المجتمع، المرأة من الرجل والرجل من المرأة، يكمّلها وتكمّله، فينبغي أن تشارك في هذه العبادات الجماعيّة، والله تعالى يقول : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . .** ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ما معنى ﴿ **بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾؟ معناها : أن الرحل من المرأة والمرأة من الرجل كلاهما لا يستغنى عن صاحبه، ولا يستغنى عنه صاحبه، ليس أحدهما خصماً للآخر، ولا عدواً له .

المعنى الربانى فى أعيادنا معنى واضح : معنى الشكر لله تعالى على ما أنعم على الإنسان، ولذلك كان العيد يوم فرحة كما جاء فى الحديث الصحيح :

« . . للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه » [(١)]، والفرحة بالفطر لها معنيان :

١ - إمّا معناها الفرحة اليوميّة، كلما أفطر الإنسان عند الغروب وأكل وشرب، وقال : « ذهب الظمأ، وابتلّت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى »[(٢)] .

٢ - وهناك الفرحة فى نهاية الشهر إذا أفطر، وجاء العيد، وانتهى من صيام شهره . هنالك يفرح الفرحة العامّة . وفرحته لأمرين :

---

(١) جزء من حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى واللفظ له، ورواه مسلم (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ /٣٠٧ برقم ٥٠٥) .

(٢) رواه أبو داود، والدارقطنى وحسّن إسناده، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى (فقه الصيام) للقرضاوى : ص ١١٠ . ط : دار الصحوة / دار الوفاء .

الأمر الأوّل : أنّ الله تعالى أباح له ما كان محرّماً عليه، عادت له الحريّة، يأكل ويشرب ويباشر زوجته، ما كان محرّماً عليه خلال نهارات رمضان أصبح مباحاً له اليوم، فهو يحمد الله على هذه الحرية.. على هذه النعمة.

الأمر الثاني : وهناك معنى آخر هو : الفرحة بتوفيق الله تبارك وتعالى له، حيث صام الشهر إيماناً واحتساباً، وقام لياليه إيماناً واحتساباً، وهذه فرحة أعظم كما قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٨].

ويدّخر له فرحة أعظم حينما يلقى ربّه « .. وإذا لقى ربه فرح بصومه »(١).

هذا هو المعنى الربانى فى أعياد المسلمين.

المعنى الإنسانى فى العيد :

تمتاز أعياد المسلمين عن أعياد الآخرين بهذا المعنى الربانى العميق، وتمتاز أعياد المسلمين أيضا بالمعنى الإنسانى : إنّ الإسلام لم يرد أن تكون فرحة العيد مقصورة على الموسرين والواجدين، على حين يحرم منها الفقراء والمساكين.

لا ، لا يجوز لك أن تفرح بالعيد وحدك، تجد فيه ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، تأكل ملء بطنك، وتضحك ملء سنّك، وتلبس الثياب الجديدة، وبجوارك فقير أو مسكين لا يجد القوت، وربّما يئنّ من الجوع أنين الملسوع.

هنا فرض الإسلام زكاة الفطر، فرضها رسول الله ﷺ - كما قال ابن عباس : « طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين... » (٢)، إسعافاً لهؤلاء المساكين فى هذا اليوم، وقال : « أغنوهم عن الطواف فى هذا اليوم »(٣)، لا تحوج

---

(١) تقدّم تخريجه قبل قليل .

(٢) رواه أبو داود، وابن ماجة، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخارى، ووافقه الذهبى(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٣٣١ برقم ٥٧١).

(٣) رواه ابن عدى والدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما بإسناد ضعيف (سبل السلام: ٢ / ٢٧٠). وأخرج البيهقى والدارقطنى عن ابن عمر قال: « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال: اغنوهم فى هذا اليوم ». وفى رواية للبيهقى: « اغنوهم عن طواف هذا اليوم ». وأخرجه أيضاً ابن سعد فى الطبقات من حديث عائشة وأبى سعيد (نيل الأوطار: ٤ /٢٥٨).

المسكين والفقير إلى أن يطوف بك، يمدّ يده إليك ويسألك، بل أنت الذى تطوف عليه، وتبحث عنه، وتوصّل إليه الزكاة فى بيته.

بهذا تعمّ الفرحة الجميع، يشترك فيها: القادرون والعاجزون، الواجدون والمحرومون، الموسرون والمعسرون، الأغنياء والفقراء.

أمّا أن يكون العيد عيداً للموسر الغنى، وغماً وكرباً على المعسر الفقير، فهذا ما يرفضه الإسلام. لهذا شرع فى عيد الفطر (زكاة الفطر)، وشرع فى عيد الأضحى (الأضحية)، توسعة على النفس والأهل، وتوسعة - أيضاً - على الفقراء والمساكين، حتى يأكلوا اللحم فى العيد، كما يأكله أهل اليسار.

هذه هى المعانى الإنسانيّة.

المعنى الاجتماعى فى العيد:

وهناك المعانى الاجتماعيّة:

أن يتواصل الناس فى العيد: يصل بعضهم بعضا، يزور بعضهم بعضا، يهنّىء بعضهم بعضا، يلقى الرجل أخاه فيقول: تقبلّ الله منّا ومنكم، أى: تقبل صيامك وقيامك، منك ومنّى.

ينبغى أ ن يهنّىء الناس بعضهم بعضا، خصوصاً الجيران بين بعضهم وبعض، والأقارب بين بعضهم وبعض، لا ينبغى أن يتدابر الناس ويتقاطعوا، الدنيا أهون من أن يتعادى عليها الناس. ولو جاز التدابر والتقاطع والتهاجر فى وقت ما، لا يجوز أن تكون فى هذه المواسم الخيرّة.. فى هذه الأعياد الربانية الإنسانيّة. بل ينبغى للإنسان أن يكظم غيظه وينتصر على شهوته وغضبه، ويحل هذه العقدة من نفسه، ويواصل أقاربه الذين كان بينهم وبينه جفوة.

لا ينبغى أن تهجر أخاك.. أخاك فى الدين، فضلاً عن أن يكون أخاك لأبيك أو لأمّك. لا تهجر أرحامك وأقاربك، الله تعالى جعل هذه الرابطة (رابطة أبديّة): ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**﴾ [محمّد: ٢٢، ٢٣]. إيّاك أن تكون من هؤلاء.

استعل أيها المسلم على أنانيتك.. على فرديّتك.. على غضبك.. وصل أقاربك، في الحديث: «ليس الواصل بالمكافيء...»[1] أى ليس واصل الرحم هو الذى يكافيء إحساناً بإحسان، ومودّة بمودة، وهديّة بهديّة، «ولكنّ الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها»[2] لأنّ الوصل إنّما يكون بعد انقطاع.

وفى الحديث الصحيح: «تُعرض الأعمال فى كل اثنين وخميس، فيغفر الله عزّ وجلّ فى ذلك اليوم لكلّ امرىء لا يشرك بالله شيئا، إلاّ امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»[3]. وفى رواية [4]: «أنظروا هذين حتى يصطلحا» (ثلاثا). المغفرة توزّع عن يمين وشمال لأهل التوحيد، إلاّ هؤلاء المتخاصمين المتقاطعين، فهم محرومون من رحمة الله عزّ وجلّ.

مآسينا نحن المسلمين :

أيّها الإخوة :

لا يسعنا ونحن نتحدّث عن العيد وفرحة العيد، إلاّ أن نتحدّث عن مآسينا نحن المسلمين. العيد يوم فرحة، ولكنّنا منذ زمن طويل لم تكتمل لنا الفرحة. نريد أن نفرح من أعماق قلوبنا، ولكنّا لا نجد لهذه الفرحة مكانا، فمآسى المسلمين حيثما شرّقنا أو غرّبنا، ذهبنا يميناً أو شمالاً، تواجهنا، وتصرخ فى وجوهنا.

مآسى المسلمين فى فلسطين.. فى البوسنة والهرسك.. فى الشيشان.. فى كشمير.. فى الفلبين.. فى السودان.. فى العراق.. فى أفغانستان.. فى الصومال.. فى الجزائر.. فى بلاد شتىّ، لا أستطيع أن أعدّد مجرد تعديد مآسى المسلمين التى نواجهها، كلّما قرأنا أو سمعنا نشرة الأخبار.

---

(١) (٢) رواه البخارى واللفظ له، وأبو داود، والترمذى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٨٥ برقم ١٥٠٨).

(٣) رواه مالك، ومسلم واللفظ له، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجة بنحوه، عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٧٢٩ برقم ١٦٦٦).

(٤) لمسلم. ومعنى «أنظروا هذين» أخرّوهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٧٢٩ – ٧٣٠ برقم ١٦٦٦).

المسلمون تكالب عليهم الأعداء، تداعت عليهم أمم الكفر، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، طمع فينا الطامعون، طمع فينا من لا يدفع عن نفسه، حتى اليهود - أحرص الناس على حياة، وأبخل الناس بنفس ومال - طمعوا فينا، وأقاموا دولتهم فى أرضنا، وعلى أنقاض أهلنا أهل فلسطين، هذا ما حدث.

واجبنا فى زمن السامرى :

نحن الآن فى الزمن الإسرائيلى.. فى زمن السامرى.. فى زمن عبادة العجل الذهبى، الكلّ يهرول إلى إسرائيل.. للصداقة مع إسرائيل.. للعلاقة مع إسرائيل.. للتجارة مع إسرائيل.. للسياحة مع إسرائيل، هناك أناس يهيّئون أنفسهم لأخذ الوكالات الإسرائيليّة، يريدون أن يكسبوا ولو من حرام، ولو على حساب إخوتنا الذين يعانون ما يعانون إلى اليوم، رغم ما يقال عن هذا السلام المزعوم.

أين السلام والقدس فى أيدى اليهود، والأقصى أسير لدى اليهود، ولا يقبل اليهود أن يزور الناس (بيت المشرق) الذى كان لمنظمة التحرير، والمستوطنات فى كلّ يوم تتسع وتزيد مستوطنة بعد مستوطنة، واليهود يعلنون ويتبجحون أنّ القدس هى العاصمة الأبديّة لإسرائيل، العاصمة الموحدّة، أى التى لا تقبل القسمة؟؟؟

علينا نحن واجب دينى: أن لا ننساق وراء ذلك مهما فرّط المفرّطون، أن نقاطع البضائع الإسرائيليّة، إذا ترخّص المترخصون الذين يريدون الشراء بأىّ وسيلة، علينا نحن الشعوب أن نقاطع هذه البضائع.

الشعب المصرى يذكر له بالخير، أنّه - رغم الاتفاقيات التى اتفقت عليها الدولة والحكومة - رفض أن يتعامل مع إسرائيل، رفض أن يذهب إلى (تل أبيب)، رفض أن يشترى البضائع الإسرائيليّة. علينا أن نفعل ذلك، لا يستطيع أحد أن يرغمنا على الشراء من بضائع إسرائيل، قد تغرينا إسرائيل فى أوّل الأمر بإرخاص بضائعها لتُعوّدنا عليها، ولكن على المسلم أن يفطم نفسه عن هذا الأمر.

غربة الإسلام فى دياره :

إنّنا لا نستطيع أن نشعر بفرحة العيد من أعماقنا ونحن نواجه المآسى . المتنبى قديماً جاءه العيد وهو مغترب فقال :

عيد بأيّة حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أمّا الأحبّة فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيد

كان كلّ ما يعكّر صفو المتنبى أنه كان غريباً عن بلده، وأنّ الأحبة بعداء عنه، وأنّه بعيد عنهم، فكيف نشعر نحن بالعيد والإسلام نفسه غريب فى دياره، والدعاة إلى الإسلام غرباء فى ديارهم؟! كل أمّة تتمكن من أن تقيم حياتها كما تريد، إلاّ أمّة الإسلام. لو أراد شعب أن يقيم حياته على أساس من الإسلام، فإنّ العالم المتحضر – النظام العالمى الجديد كما يسمّونه – يرفض هذا، الغرب يرفض هذا، يرفض أن يقوم بلد على أساس الإسلام، كما يفعل ذلك مع السودان .

ما ذنب السودان ؟ :

السودان لم يعتد على أحد، ما فعل شيئاً، كلّ ما فى الأمر أنّه اتُهم بأنّه يؤوى الإرهاربيين ! ويقول السودانيون : تعالوا هنا لتروا البلد بأعينكم إذا كان فيها أرهابيّون أوْ لا، فقد فتح بابه لكلّ من يريد ذلك من الخبراء، ولكن ذنب السودان الذى لا يُغفر: أنّه توجّه إلى الإسلام، وطبقّ شريعة الإسلام، وعلّم الناس كيف يكونون مسلمين، وفتح المعسكرات التى يتعلم الناس فيها الجنديّة الحقيقيّة . . الجنديّة الربانيّة . . يصومون ويقومون ويتلون كتاب الله . وأىّ بلد يفعل ذلك لا بدّ أن يحارب، ولو تخلّى السودان عن توجّهه الإسلامى لقابلوه بالأحضان .

لماذا بلاد المسلمين وحدها التى تُحارّب هذه الحرب؟

لماذا لا يسمح لنا نحن المسلمين بأن نقيم إسلامنا إذا أردناه؟

كلّ أمّة تستطيع أن تكيّف حياتها وفق ما تريده شعوبها إلاّ المسلمين، ليس لهم ذلك . الشعب الجزائرى اختار الذين يمثلّون الإسلام فى انتخاباته، ولكن

العالم الغربى أبى على الشعب الجزائرى هذا الاختيار، وفرض عليه الحكم العسكرى، ولم تهدأ الثائرة، ولم تجف الدماء من يومها إلى اليوم.

الإسلام يحارب فى كل مكان تحت أسماء شتىّ، أحياناً تحت اسم التطرّف، وأحياناً تحت اسم العنف والإرهاب، وأحياناً تحت اسم الأصوليّة، وأحياناً تحت عنوان الإسلام السياسى، كلّها أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، والقصد الحقيقى: حرب الإسلام.

نحن ضد العنف، وضد الإرهاب، وضد سفك الدماء بغير حق، ولكن افسحوا الطريق للإسلام، افسحوا للدعاة الحقيقيّين، حتى يعلّموا الناس، ويجمعوا الناس على هذا الدين.

هذا ما لا يريدون ..

احذروا الإسلام المعتدل :

كانوا قديماً يقولون: احذروا التطرّف، واحذروا المتطرّفين.

أتدرون ماذا يقولون اليوم؟ احذروا الإسلام المعتدل، احذروا المعتدلين، إنّهم أشدّ خطراً من المتطرفين! إنّ الإسلام المتطرّف قصير العمر، أمّا الإسلام المعتدل فهو الذى يبقى ولهذا كان أشد خطرا. ثم يعودون فيقولون: الإسلام لا يمكن أن يكون معتدلا، الإسلام يبدأ معتدلاً ثمّ يتطرّف! فاحذروا هؤلاء الذين يسمّون المعتدلين.

احترنا معهم، إذا اعتدلنا حذّروا منّا، وإذا تطرفّنا حاربونا، ماذا نستطيع أن نفعل حتى نرضى هؤلاء؟

الله تعالى يقول: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ..** ﴾ [البقرة: ١٢٠] لا يمكن أن يرضوا عنّا. ويقول تعالى: ﴿ .. **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ..** ﴾ [البقرة: ٢١٧] .

المـآسى كثيرة والمبشرات أكثر :

يا أيها الإخوة :

المـآسى كثيرة، ولكنّ المبشرات أكثر. ثقوا أنّ المستقبل لهذا الإسلام.. أنّ الغد لهذا الدين.. أنّ النّصر قادم، هذا ما لا نشكّ فيه.

عندنا الأدلّة الكثيـرة : الأدلّة من القـرآن، والأدلّة من السنة، والأدلّة من التاريخ، والأدلّة من الواقع، والأدلّة من سنن الله فى الكون، كلّها تدل على أنّ هذا الإسلام منتصر وأنّ الغد له.

القرآن يقول : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٢ ، ٣٣]. ويقول : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصّلت : ٥٣].

أمّا الأحاديث فالمبشرات فيها كثيرة، وإن كان كثير من الوعّاظ والمذكّرين ينسونها، ولا يذكرون إلاّ حديث : بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»[(١)]، وحديث :

« .. لا يأتى عليكم زمان إلاّ والذى بعده أشرّ منه..»[(٢)]، وينسون هذه المبشرات العظيمة، منها :

انتشار دعوة الإسلام فى العالـم :

١ ـ ما رواه تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليبلغنّ هذا

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة عن أبى هريرة، والترمذى وابن ماجة عن ابن مسعود، وابن ماجة عن أنس، والطبرانى عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس، رضى الله عنهم جميعا (المبشرات بانتصار الإسلام للقرضاوى : ص ١٠٧).

(٢) رواه البخارى فى كتاب (الفتن) من صحيحه عن أنس رضى الله عنه (فتح البارى : ١٣ / ٢٢) وانظر ما كتبه الشيخ القرضاوى عن هذا الحديث والذى قبله فى كتابه (المبشرات بانتصار الإسلام) تحت عنوان (أضواء على أحاديث أسىء فهمها) ص : ١٠٥ ـ ١٣١ .

الأمـر مـا بلغ الليل والنهـار، ولا يتـرك الله بيت مـدر ولا وبر، إلاّ أدخله الله هذا الدين، بعـزّ عـزيز، أو بذلّ ذليل، عـزّاً يعـزّ الله به الإسـلام، وذلاً يذلّ الله به الكفر»[1].

اتساع دولة الإسلام :

٢ – ورد في صحيح مسلم أنّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إنّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها..» [2] يعني: الدين سينتشر ما انتشر الليل والنهار، والدولة ستتسع لتشمل المشارق والمغارب.

خلافة مع منهاج النبوة :

٣ – جاء في الحديث الآخر: «تكون النبوّة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون خلافة على منهاج النبوّة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون ملكاً عاضّاً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون ملكا جَبْرِيَّةً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثمّ تكون خلافة على منهاج النبوّة» ثمّ سكت[3].

---

(١) رواه أحمد في سنده، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح (بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٦/ ٧ –٨ برقم ٩٨٠٧). ومعنى بلوغه ما بلغ الليل والنهار: انتشاره في الأرض كلها. والمدر هو الحجر، والوبر هو الشعر، أي أن هذا الدين سيدخل الحواضر والبوادي جميعها.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه (شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٤/ ٢١٥ برقم ٤٠١٥). ومعنى (زوى لي الأرض): أي قبضها، وضمّها، وجمعها له عليه الصلاة والسلام حتى يراها جملة واحدة.

(٣) أورده الهيثمي في المجمع وقال: رواه أحمد في ترجمة النعمان، والبزار أتمّ منه، والطبراني ببعضه في الأوسط، ورجاله ثقات (بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: ٥/ ٣٤١ – ٣٤٢ برقم ٨٩٦٠). قال الشيخ القرضاوي معلّقاً على الحديث في كتابه (المبشرات بانتصار الإسلام: ص ٣٤): والملك العاضّ – وفي رواية: العضوض – هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم كأنّه له أنياباً تعضّ. أما ملك الجبريّة فهو القائم على الجبروت والطغيان، أشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا.

عودة الإسلام إلى أوربا مرة أخرى :

٤ – وجاء أنّ روميّة ستفتح بعد فتح القسطنطينية « .. إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أوّلاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال : مدينة هرقل تفتح أولاً »[١]، وهى القسطنطينيّة، وقد فتحت منذ قرون، فتحها الشاب العثمانى (محمد الفاتح). بقى أن تفتح (روميّة) وهى (روما) عاصمة إيطاليا، ومعنى هذا أنّ الإسلام سيعود إلى أوربا مرّة أخرى، بعد أن أُخرج منها مرتين: مرة أخرج من الأندلس ومرة أُخرج من البلقان، وهذا ما نوقن به.

سيعود الإسلام إلى أوربا، والغرب أحوج ما يكون إلى هذا الدين، فهو يعيش عصر القلق والمعاناة والأمراض النفسية. صحيح أنّهم استطاعوا أن يصلوا إلى القمر، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يُسعدوا أنفسهم على الأرض. الذى يحقق لهم السعادة هو رسالة الإسلام.

الانتصار على اليهود :

٥ – وعندنا من المبشرات: أنّنا سننتصر على اليهود « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودىّ خلفى، فتعال فاقتله »[٢].

المبشرات كثيرة من السنة .

مبشرات من التاريخ ومن الواقع :

والمبشرات كثيرة من التاريخ: حروب الردة، والحروب الصليبيّة، وحروب التتار، انتصر الإسلام فيها. وهذه الأمّة ثبت تاريخيّاً أنّها أصلب ما تكون عوداً، وأشدّ ما تكون قوّة، حينما تحلّ بساحتها الخطوب، وتشتدّ عليها الكروب،

---

(١) أورده الهيثمى فى المجمع وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبى قبيل وهو ثقة (بغية الرائد فى تحقيق مجمع الزوائد: ٦ / ٣٢٣ برقم ١٠٣٨٤). وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وذكره الألبانى فى سلسلته الصحيحة برقم (٤). وانظر: (المبشرات بانتصار الإسلام للشيخ القرضاوى: ص ٢٨ – ٣١).

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه (صحيح الجامع الصغير برقم: ٧٤٢٧).

وتتفاقم عليها المحن، هنا يظهر المكنون من طاقاتها، كما ظهر أيّام صلاح الدين وأيّام قطز، فى معركة حطين ومعركة عين جالوت.

وأمّا المبشرات من الواقع فيكفى أن نقول: إنّ هذه الصحوة الإسلاميّة المعاصرة تدلّ على أنّ الإسلام بخير.

جاءتنى منذ سنتين مراسلة أمريكيّة تقول لى: ما الذى يحدث فى بلاد الإسلام؟ فى بلاد الغرب نجد الناس يتركون الدين ويبيعون الكنائس، وأنتم عندكم هذا الإقبال الكبير على الدين !!

أجل، هذا ما لفت أنظار كل المراقبين فى الغرب والشرق.

هذه قوّة هذا الدين، هذا الدين ولا شكّ قوىّ بذاته، فيه قوّة ذاتيّة داخلية، انظروا هذه الصحوة التى جمعت الشباب على الإسلام، المساجد تمتلىء بالمصلين والمصليات، المواسم فى الأرض المقدّسة تمتلىء بالمعتمرين والمعتمرات، ومعظم هؤلاء شباب. صلّى فى يوم الجمعة ليلة السابع والعشرين من رمضان حوالى مليونين، وفى المسجد النبوى مئات الآلاف، وفى كلّ بلاد المسلمين ملايين وعشرات الملايين قاموا تلك الليلة، هذا يدلّ على أنّ هذه الأمّة بخير.

كلّ ما نريده من الأمّة أن تستفيد من دروسها، وهذا للأسف ما نفتقده.

هل تعلّمنا من مدرسة رمضان؟ المدرسة التى يفتحها الإسلام ثلاثين يوماً وليلة فى كل عام.

هل تعلّمنا من الصيام قوة الإرادة؟ هل تعلّمنا من القيام؟ هل تعلّمنا من تلاوة القرآن؟ هل تعلّمنا من الدروس التى سمعناها طوال هذا الشهر؟

ينبغى أن نتعلّم حتى نغيرّ ما بأنفسنا.

هذه الملايين التى صامت وقامت تستطيع أن تفعل الكثير لو أنّها اجتمعت على منهاج واضح، ووراء قيادة إسلاميّة، تستطيع أن تفعل ما فعل صلاح الدين من قبل، وما فعل قطز، وما فعل المجاهدون الأوّلون.

الأمّة فيها خير: «لا تزال طائفة من أمتّى قائمة بأمر الله، لا يضرّهم من

خـذلهـم ولا من خـالفـهـم، حـتـي يأتي أمـر الله، وهـم ظاهرون على الناس»[1]، ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

إنّ المبشرات كثيرة .

مبشرات من سنن الله :

ومن هذه المبشرات: أنّ سنن الله معنا، إذا غيرّنا ما بأنفسنا غيرّ الله ما بنا: ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴾ [الرعد: ١١].

ومن ذلك سنّة التداول.. تداول الأيّام بين الأمم والأقوام: ﴿ .. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .. ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولهـذا قيل: الدهر يومان، يوم لك، ويوم عليك، وقـيل: دوام الحـال من المحـال. وهذه الدورة علينا، ولكنّ الدورة القـادمة لنا إن شاء الله. كان القرن التاسع عشر قرن الرأسماليّة، وكان القرن العشرون قرن الشيوعيّة، ولكن القرن الحادى والعشرين سيكون قرن الإسلام إن شاء الله.

هذا أملنا ، وهذا رجاؤنا :

سينتصر الإسلام: ﴿ .. وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ .. ﴾ [التوبة: ٣٢]، ولكنّ الإسلام إنّما ينتصر بأهله:

وعادة السيف أن يُزهى بجوهره ... وليس يعمل إلاّ فى يدَىْ بطل

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله: ﴿ .. هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فالنصر للمؤمنين، والنصر بالمؤمنين.

حقّقوا إيمانكم، إيماناً صادقاً يتجلّى فى أعمال ، ويتجسّد فى أخلاق، ويتحدد فى مواقف، والله تعالى لن يتخلّى عنكم: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]

---

(١) رواه أحمد والشيخان (صحيح الجامع الصغير برقم: ٢٧٩٠).

يا أيّها الإخوة :

هذا هو العيد . . عيد الفطر، الذى أكرمنا الله تعالى به . نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيده، ويعيد أمثاله على أمتنا، بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما يحب ويرضى .

اللهم اجمع كلمة هذه الأمّة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل .

اللهم وفّق المختلفين من هذه الأمّة، اللهمّ وفّق إخوتنا فى أفغانستان، ووفّق إخوتنا فى الصومال، ووفّق إخوتنا المجاهدين فى كل مكان، وافتح لهم فتحاً مبينا، واهدهم صراطا مستقيما، وانصرهم نصراً عزيزا .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٧] .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، وتقبل الله منّا ومنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

١٥ - وقفات بعد رمضان

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كل شيء هالك إلا وجهه :

انقضى رمضان، ككلّ شيء في هذه الدنيا ينقضي ويزول، كلّ جمع إلي شتات، وكلّ حيّ إلي ممات، وكلّ شيء في هذه الدنيا إلى زوال، ﴿ .. **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [القصص: ٨٨].

نحن زائلون، والحياة كلّها زائلة، كل ما في هذا الكون متغيّر وفان﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

الأزمنة تمضي ، والحياة كلها تمضي، ونحن نمضي ونذهب، الحيّ اليوم سيموت غدا، من كان على ظهر الأرض اليوم سيصبح في بطنها غدا، هذه هي سنّة الحياة. والباقي هو الباقيات الصالحات.. هو الإيمان والعمل الصالحات، كلّ شيء ذاهب إلاّ ما قدّمت من خير لوجه الله تبارك وتعالى.

فرحة الصائمين بالعيد :

ومن هنا كان على المسلم بعد رمضان أن يقف وقفات يحاسب فيها نفسه، ويراجع فيها سجلّه، وينظر فيما قدّم، هل أدّى الواجب أو قصّر؟ أمّا من أدّى الواجب فمن حقه أن يفرح، وهذا معنى: « وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه »(١) . الفرح بالفطر فرح يومى عندما يتناول طعامه الذى كان محرّماً عليه، وشرابه الذى كان ممنوعاً منه، ويقول:

---

(١) رواه البخارى وهذا لفظه، ورواه مسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٠٧ برقم ٥٠٥).

«ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله عزّ وجلّ»[١]، ويقول: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت»[٢]، ويدعو بما شاء الله له من خيرى الدنيا والآخرة.

فرحة يوميّة حُرم منها أولئك الذين اسودّت وجوههم وقلوبهم، ولم يعرفوا لرمضان ولا لربّ رمضان حقّا.

ثمّ يأتى العيد، فيفرح الصائمون بانتهاء هذا الشهر على خير. إنها فرحة بتوفيق الله تعالي للطاعة، إنها الفرحة التي عبر عنها القرآن بقوله: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس:٥٨].

فرح بالحق وفرح بالباطل:

الفرح فرحان: فرح بالباطل وفرح بالحق.

الفرح بالحق ما كان بفضل الله وبرحمته وتوفيقه لطاعته.

أما الفرح الآخر فكالذين قال الله لهم حينما أدخلهم النار: ﴿ **ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** ﴾ [غافر:٧٥]. الذين يفرحون بغير الحق: يفرحون بالمال الحرام الذى فى أيديهم، يفرحون بالجاه الزائف الذى يسر لهم ولا يقومون بشكر الله على شئ من هذا، يفرحون بأموالهم وأولادهم، يفرحون بما أتيح لهم من شهوات حرام، ومتع حرام، ومال حرام، ومجد حرام، ﴿ **ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾ [غافر:٧٦].

بعض الفرح يكون مصيبة على صاحبه فى الدنيا والآخرة، كالذين حدثنا الله عنهم أنهم تنزل بهم المصائب، وتحل بهم الشدائد، فلا يرق منهم قلب، ولا تدمع لهم عين، ولا ينتفعون بعبرة، أولئك ذوو القلوب القاسية الصخرية، الحجرية

---

(١) رواه أبو داود، والدارقطنى وحسّن إسناده، والحاكم، وابن السنى (شرح السنة للبغوى بتحقيق الأرناؤوط: ٦/٢٦٥ برقم ١٧٤٠).

(٢) رواه أبو داود، وابن السنى، والحديث مرسل (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٦/٢٦٥ برقم ١٧٤١).

﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ [البقرة:٧٤].

هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ .[حينما نزل بهم بأس الله ونزلت بهم الشدة ما قالوا: يارب، وقرعوا باب السماء مستغيثين نادمين] ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [كلما أحدثوا معصية حدثت لهم نعمة، استدراجا من الله لهم، وكيداً لهم، ومكراً بهم] ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٢- ٤٤].

هذا هو الاستدراج: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وفي الحديث « إن الله يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته » [١] ثم قرأ [٢]: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢].

إذا رأيت بعض الظلمة الجبارين وقد أملى له وأرخى له فى الحبل، وفاضت النعم من حوله، ورأيته منتشيا فرحان سكران بخمر النِّعمة والنَّعمة، فاعلم أنه مستدرج، وأن شيئاً ينتظره من السماء، وأن كارثة ستنزل به، ولهذا قال تعالي: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام٤٤، ٤٥] الحمد لله على قطع دابر الظالمين، لأنهم نقمة على الناس كلهم، وعلى الكون كله. وقطع دابرهم نعمة يحمد الله تعالى عليها وتدل على ربوبيته للعالمين.

هذا هو الفرح الذى يجلب على صاحبه شر الدنيا وشر الآخرة.

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، والترمذى، عن أبى موسى رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦١٩ برقم ١٣٠٣).

(٢) أى: النبى ﷺ.

ليس كل فرح محمودا، الفرح بالحق.. بالطاعة.. بالتوفيق، هذا هو الذى يحمد، أما الفرح بمعنى الأشر والبطر فهذا مذموم، وهو الذى نُهى عنه قارون حينما قال له قوم موسى ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] أى: لا تبطر بما عندك من نعم، ولا تكن من المزهوين المغرورين، فإن الله لا يحب هذا النوع من الناس.

الحذر من العجب بالطاعة:

المسلم يقف بعد رمضان - إذا كان ممن وفقه الله لحسن الصيام وحسن القيام، إذا كان ممن صامه إيماناً واحتساباً، وقامه إيمانا واحتساباً، وقفة الفرح بفضل الله.. بتوفيق الله عز وجل، ويسأل الله أن يتقبل منه ولا يعجب بنفسه.

إياك والعجب بما وفقت إليه من طاعة، إياك والغرور، فإنك لا تدرى أقبلت منك الطاعة أم لا؟ ربما كان فيها خلل، ربما شابها شائبة من الرياء أو عدم الإخلاص أو العجب، والعجب مهلك، ومفسد للطاعة، ولهذا قال على رضى الله عنه: «سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»! سيئة تنكد عليك وتندم عليها وتنكر نفسك من أجلها، خير من حسنة تعجب بها وتغتر.

أخذ هذا المعنى ابن عطاء الله وعبر عنه فى حكمة فقال: «ربما فتح الله لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية فكانت سببا فى الوصول، معصية أورثت ذلا وانكسارا، خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا».

الطاعة التى تورثك العجب والاستكبار وتقول بعدها: من مثلى؟ أنا الذى صمت وقمت، أنا الذى صليت التراويح وصليت القيام، أنا الذى تصدقت وأطعمت. ما يدريك يا مسكين أن هذا قد قبل منك؟

وقد ذهب بعض الصالحين لزيارة شيخ لهم وهو مريض مرض الموت، فوجدوه يبكى، فقالوا له: لم تبكى وقد وفقك الله للصالحات، كم صليت وكم صمت، وكم تصدقت، وكم حججت، وكم اعتمرت؟! فقال لهم: وما يدرينى أن شيئا من هذا قد قبل؟ والله تعالى يقول: ﴿ .... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] وما يدرينى أنى منهم؟

ولهذا عليك أن تفرح إذا وفقت للطاعة ولا تعجب بنفسك، كن خائفا، كن على حذر من مكر الله، كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «والله لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلى فى الجنة» فالمؤمن دائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يرجو رحمته ويخشى عذابه، هو دائماً بين الرجاء والخوف مهما قدم من عمل.

خزى أهل المعصية فى العيد:

هذه وقفة يقفها المسلم بعد رمضان. الفرحة لأهل الطاعة، أما أهل المعصية فلهم الخزى كل الخزى، والندامة كل الندامة، الصائمون القائمون فى العيد وجوههم مسفرة، ضاحكة مستبشرة، أما أولئك فوجوههم عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم العصاة الفجرة، أولئك الذين لم يعرفوا لرمضان حقه، ممن يتسمون بأسماء المسلمين، ويعيشون بين ظهرانى المسلمين.

كم تأتينى رسائل وكم تأتينى هواتف من نساء يشكون من أزواج أو من أبناء يشكون من آباء، يفطرون فى نهار رمضان، ويطلبون الخمر فى نهار رمضان! أليست هذه مصيبة: أن يوجد بين ظهرانينا أناس يفطرون فى نهار رمضان وصبيان المسلمين يصومون؟!

كم من صبيان فى سن السابعة والثامنة صاموا رمضان، وترى الرجل الطويل العريض يفطر رمضان، تنهاه زوجته وينهاه ابنه الصغير وهو لا يزدجر، ولا يعتبر، أليست هذه مصيبة؟مصيبة أن يبقى بين ظهرانينا مثل هؤلاء، يجب أن يقاطعهم المجتمع، يجب أن يحاصرهم حصاراً أدبياً، يجب أن يشعر الناس أن هؤلاء يحملون (إيدزاً) مرعبا إنه أيدز المعصية، إنهم يعدون الأصحّاء، إنهم مصيبة، إنهم يحملون أمراضاً وجراثيم أخطر من حملة (الايدز) وحملة الأمراض الخبيثة.

هؤلاء ليس لهم رمضان، وليس لهم عيد. وليس العيد عيدهم، العيد عيد الصائمين القائمين.

الاستمرار فى الطاعة بعد رمضان :

المسلم الذى وفقه الله يقف بعد رمضان فرحا بما وفقه الله إليه من طاعة، ويقف وقفة أخرى: هى وقفة المتابعة والاستمرار والثبات على ما وفقه الله إليه، والنية فى المضى فى هذا الطريق والاستفادة من رمضان.

رمضان شحن لك (البطارية) فاستفد من هذه الشحنة فى سيرك إلى الله. رمضان أعطاك زاداً ينفعك طوال العام، فاستفد من هذا الزاد.

أما أن تنقطع بعد رمضان عن الله فهذا ما لا ينبغى ، أما أن يكون لك فى رمضان حظ من التلاوة، ثم بعد ذلك تهجر المصحف إلى رمضان القادم فهذا ما لا يليق. أماأن يكون لك حظ من المسجد، ثم بعد ذلك تنقطع عنه إلى رمضان القادم فهذا لا يليق.

قد يخف نشاطك – وهذا طبيعى، فرمضان يزيد الإنسان فيه من نشاطه فهو موسم الطاعات ومتجر الصالحين – ولكن الانتقطاع بعد رمضان لا يجوز.

من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت.

الثبات والاستمرار على الطاعة من أخلاق المؤمنين، كان النبى ﷺ من أكثر ما يدعو به: « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك »(1) ومن دعاء الراسخين فى العلم: ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ [آل عمران: ٨] أى لا تزيغ بعد الهداية، ولا تنحرف بعد الاستقامة، وأن تظل مستقيما فى طريقك.

لقد قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ**

---

(١) رواه الترمذى وحسنه عن أنس، والحاكم وصححه عن جابر (كشف الخفاء للعجلونى: ٢ / ٣٩٠ برقم ٣٢١٥).

﴿أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ – ٣٢]. تتنزل الملائكة على هؤلاء – الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا – عند الوفاة.. عند الاحتضار، تبشرهم بالجنة، وتبشرهم بهذا الخير العميم.

جاء عن السلف في وصف هؤلاء: (ثبتوا على قولهم «ربنا الله»، وأدوا لها حقها، واستمروا عليها إلى الموت، ولم يروغوا روغان الثعالب). استقاموا على الطريق، ومضوا كالشعاع، لم ينحرفوا.

هؤلاء هم الذين يستحقون البشارة بالجنة عند الموت: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

كان النبي ﷺ إذا عمل عملا أثبته، أى داوم عليه، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (١).

المهم أن تستديم على العمل، وتستمر ولا تنقطع، لا تتحمس فترة من الزمن ثم تنقطع عن هذا العمل نهائياً، لا، اجعل لك حظاً دائما مع الله.. مع القرآن.. مع المسجد.. مع عمل الخيرات.. مع التواصل لإخوانك ورحمك.

ما كسبته فى رمضان لا تضيعه، احرص على هذا الزاد العظيم:

تزودّ للذى لا بّد منه ... فإنّ الموت ميقات العباد

أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد ؟

وخصوصاً أنّ أحداً لا يعطيك من زاده فى الآخرة، كلّ إنسان حريص على زاده، لا يفرّط فى شيء منه، لا لأب ولا لأمّ ولا لولد ولا لأخ، لأنّ كُلاًّ يقول: نفسى نفسى ﴿.. لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

---

(١) رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها، وله ألفاظ أخرى (كشف الخفاء للعجلونى: ١ / ٥٢ برقم ١٢٢).

ما كسبته في رمضان – أيها المسلم – استمر عليه، ولو بقدر أقل، ولكن استمر على الخير، اثبت عليه.

كن ربانيا ولا تكن رمضانيا :

الإسلام لا يريد من الإنسان أن يكون موسمياً فقط، يطيع الله في شهر معيّن ثم ينقطع تماماً. كان السلف يقولون: «بئس القوم قوم لا يعرفون الله إلاّ في رمضان، كُن ربانياً ولا تكن رمضانيا». أى لا تكن أهلاً للطاعة في رمضان وحده، كُن أهل الطاعة في كلّ الشهور. زد في رمضان، وانشط أكثر في رمضان، ولكن استمرّ على الطاعة بعد رمضان، فهذا دليل على أنّ الله تعالى قد قبل صيامك وقيامك. فعلامة قبول الحسنة أن تُوفقّ لحسنة بعدها، كما قال تعالى: ﴿ **وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى..** ﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ [محمّد: ١٧]. ومن علامة العقوبة على السيّئة أن تعمل سيّئة بعدها، وهى عقوبة معجلّة في الدنيا قبل عقاب الآخرة، ولكن إذا رضى الله عنك وفّقك لأن تتوب من السيّئة، وأن تزيد الحسنة حسنات بعدها.

يا أيّها الإخوة :

لقد مضى رمضان إمّا شاهداً لنا وإمّا شاهداً علينا، ونسأل الله أن يكون شاهداً لنا، وأن يكون شفيعاً لنا، فقد ورد أنّ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أى ربّ منعته الطعام والشهوة فشفعّنى فيه، ويقول القرآن: منعته النّوم بالليل فشفعّنى فيه، قال: فيشفّعان»[1].

صيام ست من شوال :

ومما شرعه الإسلام لاستمرار الطاعة، بعد رمضان، ودوام الصلة بالله تعالى

---

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو، والطبرانى فى الكبير ورجاله محتجّ بهم فى الصحيح كما قال المنذرى والهيثمى، ورواه ابن أبى الدنيا بإسناد حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٣٠٩ برقم ٥٠٩).

بعد رمضان، ما حثنا عليه النبى ﷺ من صيام ستّ من شوال، فقد قال: « من صام رمضان، ثمّ أتبعه ستّاً من شوّال كان كصيام الدهر »[١] ، وجاء تفسير ذلك فى حديث آخر، قال: « جعل الله الحسنة بعشر أمثالها، فشهر بعشرة أشهر، وصيام ستة أيّام بعد الفطر تمام السنة »[٢] . فصيام رمضان بعشرة أشهر، وستة أيام بشهرين، أى: صام السنة كلّها. وإذا استمرّ على ذلك كل سنة فقد صام الدهر كلّه.

الإسلام يريد من الإنسان أن يكون له بعد الفرض نفل، كما أنّك إذا صلّيت الفرض تصلى سنة: ركعتان قبل الصبح، وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعد الظهر، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، كل هذه سنن، لماذا؟ لتجبر ما حدث من خلل وقصور فى الفريضة، فهى رصيد احتياطى يكمّل ما نقص من فرضك.

ومن ناحية أخرى تقابل ما بدر منك من سيّئات، فرصيد السّيّئات كبير يحتاج إلى شىء يقابله.

ومن ناحية ثالثة لتزداد اقتراباً من الله: « .. ولا يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنّوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينّه ولئن استعاذنى لأعيذنّه »[٣] .

ولهذا شرع الله صيام هذه الستّ من شوال « من صام رمضان، ثم أتبعه ستّاً من شوال . . . ».

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، والنّسائى، وابن ماجة، والطبرانى، عن أبى أيوب رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٣١٥ برقم ٥٢٣).

(٢) رواه النّسائى عن ثوبان رضى الله عنه (المنتقى عن كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٣١٥ برقم ٥٢٤).

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، وهو الحديث الثامن والثلاثون من الأربعين النووّية.

بعض العلماء يقول: يتبعها فى اليوم الثانى للعيد، والبعض قال: المهمّ أن تكون فى شوّال، وليس من الضرورى أن يصومها ستّاً متتابعة، يمكن أن يفرّقها.

كلّ هذا ليستمر فى الطاعة، ليظلّ حبله بالله تعالى موصولاً، ولا ينقطع عن الله تبارك وتعالى أبداً.

هذا هو شأن الإنسان المؤمن: ثابت على الطاعة، مستمر فى عمل الخير، لا يتوقف ولا يرتد إلى الوراء، ولا ينحرف يميناً أو شمالاً، لأنّه يسأل الله تعالى دائماً أن يهديه الصراط المستقيم، فهم قوله تعالى لرسوله: ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ..** ﴾ [هود: ١١٢]، فهو يجتهد دائماً أن يكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

أقول قولى هذا، أستغفر الله تعالى لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أما بعد فيا أيّها الإخوة:

ورد أنّ فى يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له، ولعلّها تكون هذه الساعة.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام. اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر. اللهم أدر الدائرة عليهم، وسق الوبال إليهم.

اللهم احفظ أوطاننا من كيد الكائدين، وعدوان المعتدين، ودعوات الهدّامين، وانحلال المنحلّين، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنّاً سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة.

اللهم أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر

علينا، وارض عنّا وأرضنا، واجمع كلمة أمتّنا على الهدى، وقلوبها على التقى، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل، ونياتها على الجهاد في سبيلك.

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

اللهم اجعل هذا العيد خيراً وبركة على أمّة الإسلام، وأعد أمثال عليها بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى.

ربنا اجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذريّاتنا، ربنا وتقبل دعاء.

ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

اللهم آمين **﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾** [العنكبوت: ٤٥].

* * *

١٦ - رحلة الحج

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

نحن اليوم في الثامن من ذى الحجة .. يوم التروية، اليوم الذى يبدأ فيه الحجاج رحلتهم إلى منى، ثم إلى عرفات، ثم من عرفات إلى المزدلفة، إلى منى لرمى جمرة العقبة، إلى الكعبة للطواف ببيت الله الحرام طواف الإفاضة.

نحن فى أيّام الحج،، والحج هو الركن الخامس - من أركان الإسلام - الذى تمّ الله به الشعائر والفرائض العمليّة، التى جعلها أركان هذا الإسلام.

﴿حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [١] فريضة على كل مسلم - ومسلمة - قدر على أداء الحج بدنيّاً وقدر على أداء الحج ماليّاً، ملك الزاد والراحلة كما روى فى الحديث[٢] . ومعنى (ملك الزاد والراحلة) : أن يملك نفقات الطريق إلى بيت الله، ونفقات الإقامة هناك، كلٌّ على ما يليق بحاله.

ونحمد الله فى هذا العصر أنّنا لا نشكو من قلّة الحجاج، بل ربما شكونا من كثرة الحجاج وازدحام الموسم ممّن يحجون الحجة السابعة والعاشرة والعشرين والأربعين.

الحمد لله، البيت الحرام مزدحم بالطائفين، وطالبو الحج كلّ عام كثيرون وكثيرون، وأكثرهم لا يخرج في القرعة، لا تُتاح له الفرصة. ولذلك ليس حديثنا

---

(١) قال تعالى: ﴿ .. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً .. ﴾ [آل عمران: ٩٧].

(٢) الذى رواه ابن ماجة بإسناد حسن، عن ابن عمر رضي الله عنهما: انّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: من الحاج؟ قال: «الشَعِثُ التَفِلُ». قال: فأىّ الحج أفضل؟ قال: «العجُّ والثجُّ». قال: وما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة». وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٤٨ برقم ٦٠١).

عن هذه الفريضة ولا عن المقصرّين فيها، إنّما حديثنا عن أسرار هذا الحج، وعن الحكم التى توخّاها هذا الدين من وراء هذه الشعيرة العظيمة.

إنّ الحج تذكير للناس بأبى الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – الذى بنى البيت الحرام الذى يحج إليه الناس. هذا البيت الذى فرض الله على كل مسلم أن يتوجه إليه فى اليوم خمس مرّات إن اقتصر على الفرائض، يولىّ وجهه شطر المسجد الحرام: ﴿ **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ..** ﴾ [البقرة: ١٥٠].

هذا البيت بناه إبراهيم وابنه إسماعيل: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أوّل بيت وُضع فى الأرض وأُسّس لعبادة الله وحده.

الكعبة: البيت الحرام، فُرض علينا أن نتوجه إليه فى صلواتنا، فهو قبلة المسلمين، وأن نطوف به فى العمر مرة واحدة فى هذه الفريضة العظيمة. نطوف بالبيت ونؤدى المناسك حول البيت وبالقرب من البيت.

الحج شحنة روحيّة هائلة :

هذا الحج جعله الله سبحانه وتعالى شعيرة متميزة، فيه شحنة روحيّة وعاطفيّة ووجدانيّة للإنسان المسلم يذهب إلى تلك الأرض محرما. ما معنى (محرما)؟ أى ناوياً للحج إلى بيت الله، متجرّداً – إن كان رجلاً – من ثيابه العاديّة، الثياب التى فيها الصنعة وفيها التزويق، يلبس ثياباً فطريّة.. ثياباً طبيعيّة، ليس فيها صنعة الخيّاط، ليس فيها تزويق الناس، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، بما يُكفنّ به المؤمنون من الثياب البيض.

بعض الفلاسفة دعا الناس أن يتخلّوا أحياناً عن الحياة المدنيّة المصطنعة الملّفقة، وأن يعودوا ما بين الحين والحين إلى الطبيعة، ليعيشوا بين أحضانها، ويتجرّدوا من القيود التى قيدوا بها أنفسهم.

هذه عودة إلى الطبيعة.. إلى الفطرة.

يحرم الحاج ويذهب إلى تلك الأرض المقدسة، تهبّ عليه الذكريات الإبراهيميّة من بعيد، والذكريات المحمديّة من قريب.

إيحاء هذه الشعائر: إن قوّة الجماعة الإسلاميّة ووحدتها، وتجردها من زخارف الدنيا، ونداءاتها لله: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) لها أثرها فى نفسية المسلم وفى تحريكه من داخله.

هذه المعانى تهزّ المسلم من أعماقه هزاً، وتعيده كأنّما هو مخلوق جديد، كأنّما وُلد من جديد. فيعود أطهر قلباً، وأصدق عزماً على الطاعة، وأكثر ندماً على المعصية، ولذلك سرعان ما نجد الإنسان بعد الحج قد تغيرّ وأصبح إنساناً آخر، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «من حجّ، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمّه»(1)، لقد وُلد ميلاداً جديداً.

الحج توسيع لأفق المسلم :

الحج توسيع لأفق المسلم، المسلم الذى عاش فى وطنه، أو فى قريته لا يخرج منها، ولا يعرف غيرها، ولا يسمع ببلاد سواها. الحج يرفع مستواه، يصله بالعالم الإسلامى، يلقى مسلمين من أنحاء الأرض، من أجناس شتّى، وأوطان شتّى، ولغات شتّى، وطبقات شتّى، فيتسع أفقه، ويعرف روعة هذا الإسلام وعالميته، وسعة أفقه، وأنّ له إخواناً مسلمين فى أنحاء العالم.

فهذه بعض المنافع الى يشهدها ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ..** ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]، منافع بعضها مادية .. تجاريّة، وقد كان بعض الصحابة يتحرجون من التجارة في الموسم، ويخافون أن يكون هذا خدشاً في نيتّهم وإخلاصهم فى هذه العبادة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن**

(1) رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجة، والترمذى إلاّ إنه قال: «غفر له ما تقدم من ذنبه»، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٣٤١ برقم ٥٨١).

تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ . . ﴾ [البقرة: ١٩٨] لا حرج فى أن تتجر فى الموسم وتبتغى فضل الله ورزق الله، ما دام هدفك الأساسى هو أداء هذه الشعيرة.

الحج تدريب عملى على ممارسة مُثل الإسلام :

والحج كذلك تدريب عملى على المبادىء العظيمة التى جاء بها الإسلام :

١ - تدريب على ركوب المشقّة :

الإنسان يذهب إلى الحج، فيترك وطنه، ويهجر أهله وأحبآءه، ويهاجر إلى الله عزّ وجلّ، هجرة لا يبتغى بها إلاّ وجه الله تعالى. يعانى من السفر ووعثاء السفر، والسفر قطعة من العذاب أيّاً كانت وسيلة السفر. سواءٌ سافر بالبرّ أم بالبحر أم بالجو، السفر قطعة من العذاب. الحج قديما كان بالدواب، ولكنه لم يكن يحتاج إلى تأشيرات، ولا إجراءات كسفر اليوم.

ولم يشأ الله أن يجعل هذا الحج إلى مدينة من المدن الجميلة : لبنان أو سويسرا، وإنّما جعله إلى واد غير ذى زرع. وشاء الله أن يربطه بالأشهر القمريّة ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ . . ﴾ [البقرة: ١٩٧] : شوال وذو القعدة وذو الحجّة، وهذه أشهر تتعاور على فصول السنة، فأحياناً يأتى الحج فى الصيف، وأحياناً فى الربيع، وأحياناً فى الخريف، وأحياناً فى الشتاء، مثل الصيام أيضاً، ليعتاد المسلم أداء شعائره فى كلّ فصول العام.

شاء القدر أن يحمّل المسلم ركوب المشقّات، وأن ينزل فى هذا الوادى الضيّق، وادى (منى)، لينصب الخيام، ويعيش حياة أشبه بحياة الكشّافين والجوّالين، ينام على الحصى.. على الحصباء، ما استطاع أن يفعل ذلك.

هذا هو الحج .

الحج رحلة مشقة يبذل فيها المسلم من نفسه ومن ماله. العبادات الإسلاميّة بعضها عبادات بدنيّة كالصلاة والصيام، وبعضها عبادات ماليّة كالزكاة، وبعضها يجمع بين البدن والمال مثل الحج، فهو عبادة بدينّة ماليّة، يتحمّل الإنسان فيها المشقّة : يبذل من بدنه، ويبذل من ماله.

وينبغى للمسلم أن يتحرّى المال الحلال. أن يحج من مال طيبّ، فالحج المبرور هو الذى يكون بالمال الطيب، وبالنيّة الخالصة، وألاّ يكون فيه رفث ولا فسوق ولا جدال « .. والحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنّة »[1].

٢ - تدريب على المساواة :

فى الحج يتدرب المسلم على تحمّل المكاره والمشقات، ويتدرب المسلم على معنى المساواة. الإسلام جاء وأعلن فى الناس أنّهم سواسية كأسنان المشط، وجاءت عبادات الإسلام تؤكدّ هذا مثل صلاة الجماعة، يقف كل إنسان بجوار من عن يمينه وعن شماله، الخفير بجوار الوزير، والصغير بجوار الكبير، والغنى بجوار الفقير.

ولكن فى الصلاة يظل الناس متمايزين بملابسهم وشاراتهم، هذا يلبس جلباباً، وهذا يلبس بدلةً، وهذا يلبس جُبّةً، وهذا يلبس ثوباً غالياً، وهذا يلبس ثوباً رخيصاً، وهذا يضع عمامة على رأسه، وهذا يضع (غترة)، ولكن فى الحج تجرّد الناس من هذه الشارات المميزّة كلّها، ولبسوا هذه الثياب التى هى أشبه بالأكفان.

بعض الناس يظنّ أنّ الممنوع هو (المخيط) فقط أى الذى دخلته الخياطة، لا، المقصود الصنعة، المقصود هو الثياب المفصّلة على قدر الجسد، ولهذا لم استرح للثياب التى تصنع وفيها (الكباسيل)، ويلبس الإنسان شيئاً أشبه (بالتنّورة)، لا، ليس هذا هو المقصود. المقصود أن يلبس الإنسان الثياب الطبيعيّة، وأن يتدرّب على معنى المساواة، هذا هو ما يريده الإسلام.

يقف الجميع فى عرصة عرفات .. فى ساحة عرفات، وقد تساووا أمام الله عزّ وجلّ، كلّهم سواسية، ولذلك قال النبى ﷺ فى أواسط أيّام التشريق : « ياأيّها

---

(١) رواه مالك، والبخارى، ومسلم، والترمذى، والنّسائى، وابن ماجه، عن أبى هريرة رضى الله عنه : وأوّله : « العمرة إلى العمرة كفاّرة لما بينهما .. » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٤٢ برقم ٥٨٢).

النّاس إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربى على أعجمىّ، ولا لعجمىّ على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى . . . »[1] .

الحج تدريب على المساواة الحقيقيّة .

٣ - تدريب على الوحدة :

وهو تدريب على الوحدة أيضا، هذه أمّة واحدة، آمنت بربّ واحد، واتبعت رسولاً واحداً، وأدّت شعائر واحدة، ولها هدف واحد، ولها منهج واحد . وفى الحج تتجلّى هذه الوحدة: وحدة المشاعر، ووحدة الشعائر، ووحدة الهدف، ووحدة السلوك، ووحدة العمل، فالكل يؤدّون أعمالاً واحدة، ووحدة القول والهتاف: «لبيك اللهم لبيك . . » .

هذه الوحدة تجسّد هذا المعنى الكبير: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . ﴾[2] . ينبغى أن تقف الأمّة كالبنيان المرصوص يشدّ بعضها بعضا، وخصوصاً إذا حلّت بساحتها الشدائد وأحاطت بها المحن والكربات، يجب أن تتجسّد وحدتها حينئذ .

الحج يجسّد هذه الوحدة وهذا المعنى الكبير .

٤ - تجسيد لمعنى السلام :

يجسّد الحج كذلك معنى آخر، ويدرّب المسلمين عليه، إنّه معنى (السلام) .

يتهمون المسلمين بأنّهم دعاة حرب، والمسلمون دعاة سلام . ورحلة الحج تدريب على معنى السلام، هى رحلة سلام إلى أرض السلام فى زمن السلام .

---

(١) قطعة من خطبة النبى ﷺ أوسط أيّام التشريق، وقد رواها أحمد فى مسنده من حديث أبى نضرة . انظر (الفتح الربانى مع شرحه بلوغ الأمانى : ١٢ / ٢٢٦ برقم ٤٢٧) . وأوردها الهيثمى فى (مجمع الزوائد : ٣ / ٥٨٦ برقم ٥٦٢٢) ثم قال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٢) الأنبياء : ٩٢ . وتتمّتها : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ .

أرض الحج أرض السلام: الأرض المقدّسة.. الكعبة.. البيت الحرام، الذى من دخله كان آمنا، وقال فيه ابن الخطاب – رضي الله عنه –: (لو رأيت فيه قاتل أبى ما مسسته بأذى)، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا.. ﴾ [البقرة: ١٢٥]، أرض محرّمة لا يُصاد صيدها، ولا يُقطع حشيشها، حتى صيد البر لا يمس ولا يذبح ﴿.. وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا.. ﴾ [المائدة: ٩٦].

زمن الحج زمن السلام: لأنّ معظم أعمال الحج في ذى القعدة وذى الحجة، وهما شهران محرّمان ﴿ .يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ. ﴾ [المائدة: ٢]. جعل الله الأشهر الحرم هدنة إجباريّة للمسلمين، يوقف فيها القتال وتُحقن فيها الدماء، ويُصان فيها السلام.

هكذا يعلّم الله تعالى المسلمين فى هذه الرحلة العظيمة: معنى السلام، وأعمال السلام.

٥ – الحج مؤتمر عالمى:

والحج مؤتمر ربانى للأمّة الإسلاميّة، تجتمع فيه الأمّة الإسلاميّة من مشارق الأرض ومغاربها، مؤتمر لم يدع إليه ملك ولا أمير ولا رئيس، إنّما دعا إليه ربّ العالمين عزّ وجلّ، دعا الناس إلى هذا المؤتمر، ليلتقوا على كلمة سواء، على كلمة الإسلام، فينبغى للمسلمين أن يستفيدوا من هذا المؤتمر السنوى العظيم.

يلتقى كل عام نحو مليونين أو أكثر من المسلمين، فهل يستفيدون؟ هل يشهدون منافع لهم؟ هل يتدارسون مشكلاتهم؟ هل يتعاون أهل الرأى فيهم على ما يجب عمله؟ أم أنّ الناس يذهبون ويجيئون ولم يستفيدوا من هذا المؤتمر العظيم؟

إنّ أعداء الإسلام هم الذين يدركون خطر هذا المؤتمر، حتى إنّ أحدهم فى مطالع هذا القرن – وهو من المبشّرين العتاة – كتب تقريراً عن فشل التنصير فى مصر وأسبابه قال فيه: سيظلّ الإسلام فى مصر صخرة عاتية تتحطم عليها

محاولات التبشير المسيحى، مادام للإسلام هذه الدعائم الأربع: القرآن.. والأزهر.. واجتماع الجمعة الأسبوعى.. ومؤتمر الحج السنوى[1]!

هكذا قال هذا الرجل الذى يرصد الحياة الإسلامية: ما دام المصحف يقرأ ويرتل صباح مساء، وما دام حفّاظه وقرّاؤه بالملايين، وما دام الأزهر والعلماء موجودين يقولون كلمة الحق، ويعلّمون الناس الدين، ويدعون إلى الله، وما دامت خطبة الجمعة الأسبوعيّة قائمة، يلتقى الناس عليها ويتعلمون دينهم، ويتذكرون ما نسوه، ويتنبهون لما غفلوا عنه، وما دام مؤتمر الحج السنوى يجمع المسلمين من أقاصى الأرض، يجمع شتاتهم، ويحيى مواتهم، ويذكّرهم بربهم ودينهم، ما دامت هذه الأربع قائمة فلن يستطيع التبشير أن ينجح فى مهمّته.

هذا ما ينبغى أن نستفيد منه نحن المسلمين من هذا المؤتمر العظيم، الذى يعقد سنوياً، وما يستطيع أحد أن يمنعه، ولا يستطيع أحد أن يتدخل فى عقد هذا المؤتمر الربانى الإنسانى العالمى العظيم.

يا أيّها الإخوة:

إنّ النبى ﷺ عرف قيمة هذا المؤتمر، وكان يعلن فيه القرارات العظيمة المهمّة. فى أوّل سنة حجّ فيها أبو بكر - رضى الله عنه - بالمسلمين، أعلن النبى ﷺ فى ذلك الحج مبادىء مهمّة: أعلن إنهاء العهود بينه وبين المشركين، وأعلن أنّه لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان.

وفى السنة التالية حجّ النبى ﷺ بنفسه حجته الوحيدة، حجّة الوداع وحجة البلاغ، فأعلن على الناس مبادىء الإسلام العالميّة الإنسانيّة، وقال: «.. إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى

---

(١) ولذلك باءت محاولاتهم - والحمد لله - بالاخفاق والفشل، رغم المدارس التى أنشأوها، والمعاهد التى أسّسوها، والأموال التى بذلوها، والكتب التى وزّعوها، والمجلات التى نشروها بين المسلمين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون والّذين كفروا إلى جهنّم يحشرون﴾ [الأنفال: ٣٦].

بلدكم هـذا . . »(1) ، وأعلن بيـانه العظيم عـلى النـاس قـائلا : « ألا هـل بلغت؟ اللهم فاشهد » .

نحن علينا أن نستفيد من هذا الحج، علينا أن نستفيد من حجنا نحن المسلمين، ونعلن على الدنيا كلّها أنّ هذه الأمّة لا زالت أمّة متمسكة بالإيمان بربها . . بدينها . . بقرآنها . . بمحمّدها . . برسولها، ولن تتخلّى عن هذا الدين، وأنّها تقف صفّاً واحداً أمام كلّ عدوان على مقدّساتها، وأنّها لن تفرّط في مسجدها الأقصى الذى ربطه القرآن بالمسجد الحرام في سورة معروفة، جعل هذا مبتدأ الإسراء وجعل الآخر منتهى الإسراء: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا . .** ﴾ [الإسراء: ١].

لن تفرّط الأمّة فى المسجد الأقصى، كما لم تفرّط فى المسجد الحرام. علينا أن نعلن هذا فى هذا الموسم وفى كل موسم، حتى يكون حجنا مبروراً، وذنبنا مغفوراً، وسعينا مشكوراً، وعملنا مبروراً، إن شاء الله.

اللهّم اغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقى، ﴿ **. . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر: ١٠].

ادعوا الله يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لا زال العدوان الإسرائيلى الغاشم قائماً متبجحاً، لا يستحى من أحد، يتحدى العرب كلّ العرب، ويتحدى المسلمين كل المسلمين، ويتحدى العالم كلّ العالم، لأنّه يعتزّ بترسانته النوويّة التى يملكها، ولا يملك أحد فى المنطقة شيئاً

---

(١) قطعة من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى وصف حجّة النبى ﷺ، الذى رواه مسلم فى صحيحه، انظر (صحيح مسلم بشرح النووى: ٨/١٨٢) ط . دار الفكر.

من ذلك، ويعتزّ بأوليائه وحلفائه من الأمريكان، والذى يؤيّدونه فى كل ما فعل، ويصدّقونه فى كل ما قال، ويسندونه فى كلّ عدوان يقوم به.

لا زال هذا العدوان الإسرائيلى على لبنان الشقيق قائماً، شامخاً برأسه، ثانياً لعطفه، مغترّاً بنفسه.

لا زال هذا العدوان يأكل من كرومنا عناقيد العنب، ويطعمنا نحن من ترسانته (عناقيد الغضب). [1] الغضب علينا، الغضب على لبنان، الغضب على حزب الله الذى يدافع عن وطنه.

هل كان الدفاع عن الوطن خطأ أو خطيئة؟ هل كان الدفاع عن الأوطان المحتلة جريمة؟ فى أى عُرْف؟ فى أىّ فلسفة؟ فى أىّ دين؟ فى أىّ مذهب؟ فى أىّ قانون؟ دلونا على ذلك.

أليس من حق الوطن المحتل أن يجند أبناءه للدفاع عنه أمام العدو المغتصب؟

لم يُجرم حزب الله حينما أطلق صواريخ الكاتيوشا على شمال إسرائيل، إنّ له الحق كلّ الحق فى أن يدافع عن نفسه، وإسرائيل هى المتحرّشة دائماً، وهى البادئة دائماً.

وأحبّ أن أقول لكم أيّها الإخوة: المسألة ليست حزب الله، وليست صواريخ الكاتيوشا، هذه كلّها تعلات أشبه بما يقال: أنت الذى عكّرت علىّ الماء. إنه تحكم الذئب فى الحَمَل، إنّ إسرائيل تريد أن تعلّمنا إذا كنّا جهلنا، وتنبهنا إذا كنّا غفلنا، وأن تذكرنا إذا كنّا نسينا: أنّها سيدة المنطقة، وأنهّا هى المتحكمة فى الرقاب، تأمر وتنهى، وتحلّ وتحرّم، وتفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا تُسأل عمّا تفعل.

هذا ما تريده إسرائيل.

---

(١) العملية التى قامت بها إسرائيل ضد لبنان فى قانا، وراح ضحيتها أعداد كبيرة، سمتها إسرائيل (عناقيد الغضب) وكان ذلك فى ١٨ / ٤ / ١٩٩٦م (القرضاوى).

ليست المسألة (حزب الله) . المسألة : تركيع لبنان . . إذلال لبنان، وإذلال سوريا، وإذلال العرب، حتى يرضخوا لمشيئة إسرائيل، حتى يسير الجميع فى ركاب إسرائيل، حتى يقول الجميع : سمعنا وأطعنا، حتى ينحنى الجميع راكعين، ويطأطئوا أذلاَّء ساجدين .

وإسرائيل تفعل ذلك شامخة، لأنهّا ترى العجز العربى . . والذلّ العربى . . والهوان العربى . . والتمزّق العربى، بحيث لا نرى – كما قلت لكم فى الجمعة الماضية – صراخاً . . لا نرى احتجاجاً صارخاً، إنما نرى احتجاجات هامسة، والهمس ينيم اليقظان والصراخ يوقظ النّعسان .

هذا للأسف ما نراه .

إسرائيل متمادية فى غيهّا . . فى عدوانها، وهذا يثبت لنا ويؤكد لنا ما قلته من قبل وكررته، ولا زلت أقوله وأكررّه وأؤكدّه : أنّ الإرهابى الأكبر فى هذه المنطقة ليس هو جماعة حماس وليس هو الجهاد الإسلامى، وليس هو حزب الله، فهؤلاء كلّهم أبطال يدافعون عن مقدّساتهم وعن أوطانهم، الإرهابّى الأكبر هو (إسرائيل) .

إسرائيل قامت منذ قامت وقبل أن تقوم – حينما كانت عصابات – على الإرهاب .

من منّا ينسى عصابات (الهاجاناة) وعصابات (الأرجون)؟ العصابات التى سفكت الدماء، ونهبت الأموال، وخرّبت الديار، وبقرت بطون النساء، وفعلت الأفاعيل، حتى فرّ الناس من بيوتهم مذعورين .

كانت هذه إسرائيل قبل أن تقوم لها دويلتها، وبعد أن قامت دويلتها أصبحت أكثر إرهاباً .

إنها (الإرهابى الأكبر) فى المنطقة .

إنّ المسألة ليست (حزب الله)، إنهّا رسالة موجّهة إلى العرب . . كلّ

العرب: أنّ إسرائيل – بطائراتها وقوّاتها المسلّحة – قادرة على الوصول إلى أىّ عاصمة عربيّة، لا يمنعها من ذلك مانع، ولا يصدّها صاد، ولا يردّها راد، ولو أرادت إسرائيل ذلك لفعلت. من يمنعها؟ أين القوّة التى تردعها؟ لا نجد قوّة فى بلاد العرب ولا فى بلاد المسلمين تملك أن تردع إسرائيل، وأن ترد لها الصاع صاعاً واحداً، أو نصف صاع، أو ربع صاع!! ولا نقول (الصاع صاعين) كما يقولون.

هذا ما نراه – أيها الإخوة – فى موقفنا.

والآن يتنادون بوقف إطلاق النار؟ لماذا تسمّونه (وقف إطلاق النّار)؟! وهل هناك نار متبادلة من الجانبين حتى يوقف إطلاق النار؟ لماذا لا تسموّنه: إيقاف العدوان؟

وهب أنّ العدوان قد وقف، فما هى نتيجة آثار العدوان؟ البلاد التى هُجرّت ونزح أهلوها، حوالى نصف مليون من الشيوخ والأطفال والنساء نزحوا هائمين على وجوههم، تاركين بيوتهم ومساكنهم، ﴿**إلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً**﴾ [النساء:٩٨] ماذا تكون نتيجة وقف إطلاق النّار؟ ماذا تفعلون بهؤلاء؟ ماذا تفعلون بالقرى التى هُدّمت، ومحطّات المياه والكهرباء التى حُطمت ومئات الملايين التى خسرتها لبنان، وهى تحاول أن تعمر أرضها التى خرّبتها الحروب الأهلية؟

لبنان مهدّد باستمرار، كلّما حاول أن يبنى هدموا ما بناه، وذلك أنّ لبنان له طبيعة خاصّة، إنّه بلد يمكن أن ينافس إسرائيل – فى المستقبل– فى سوق الاقتصاد، التى تريد إسرائيل أن تسيطر عليها وحدها. لبنان قد يكون له شئ فى سوق المنافسة، فتريد إسرائيل أن تضرب لبنان حتى لا تقوم له قائمة، ولا يطمع أن يكون له نقير أو قطمير فى تلك السوق.

إسرائيل تريد أن تنفرد بالمنطقة، تريد المنطقة ملكاً خالصاً لها، تصول فيها وتجول، وتعربد كما تشاء.

هذه هى إسرائيل.

إسرائيل كيان دخيل على المنطقة، قائم على الاغتصاب والعدوان، لا فرق في ذلك بين حزب (العمل) وحزب (الليكود)، لا فرق بين هذا وذاك.

سُئل أعرابى كان عنده حماران سيئان - اسمهما: حمارا العبادى - : أىّ حماريك شرّ؟ فقال: هذا وهذا! أى كلاهما شر.

كلاهما شرّ: العمل، والليكود. كما يقول الشاعر:

وليس فيهم من فتى مطيع فلعنة الله على الجميع

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ... ﴾ [الأعراف:٣٨]، لا فرق بين هذا وذاك إطلاقاً. (بريز) سفّاح أثيم، لا يقلّ عن (رابين) ولا عن (شامير) ولا عن (بيجن) ، كلّهم سفّاحون.

ينبغى أن يعلم هذا الذين وضعوا أيديهم فى أيدى (بريز) السفّاح القاتل، الذى لوّثت يده دماء اللبنانيينّ.. دماء الأطفال والنّساء فى قرية (قانا)، الذين قُتلوا بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله، حتى الذين استظلّوا بعلم الأمم المتحدة ضُربوا، حتى الذين كانوا يركبون سيّارة الإسعاف ضُربوا وذُبحوا.

هذا سفاح ينبغى لمن وضع يده فى يده، أن يستغفر الله عزّ وجلّ، ويتوب إليه، ويغسل يده سبع مّرات إحداهنّ بالتراب.[1].

نحن أمام سفّاحين معتدين مارسوا الإثم، واستمرّوا عليه، واستمرأوه. وأحبّ أن أقول لهم: إنّ هذه الأمّة لن تظل كذلك، وكما يقول الشاعر:

وإذا الذئاب استنعجت لك مرّة فحذار منها أن تعود ذئابا!

لن تظلّ الأمّة تستنعج وتستضعف، سيظهر منها الأبطال الذين يأخذون

---

(١) قياساً على مسألة تطهير الإناء إذا ولغ فيه الكلب، فقد روى مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه: « طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات، أولاهن بالتراب » وفى رواية : « إحداهن » عند البزار، وعلى صحتها فهى مطلقة يجب حملها على المقيدة. انظر (فيض القدير للمناوى: ٤ / ٢٧٢ برقم ٥٢٨٠) و (سبل السلام للصنعانى: ١ / ٣٧).

بثأرهم من المعتدين عليها، وإن ذلك لقريب إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز، وعندنا بشائر القرآن والسنة والتاريخ والواقع ﴿ **وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢] [1].

يا أيها الإخوة:

نحن مقبلون على العيد، وعلينا أن نستقبل هذا العيد بما ينبغى له، من توجه إلى الله سبحانه وتعالى أن يمنّ على المسلمين بعيد يفرحون فيه الفرحة الحقيقية، يفرحون بنصر الله: ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [الروم: ٤، ٥].

علينا أن نؤدى الشعائر التى طلبها الإسلام منّا، الإسلام شرع فى عيد الفطر (صدقة الفطر) طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين، وشرع فى عيد الأضحى (الأضحية)، تذكيراً بسنة إبراهيم، وتوسعة على النفس وعلى الفقراء والمساكين. فالإسلام لا يريد أن تكون فرحة العيد مقصورة على الواجدين والموسرين على حين يحرم منها المعدمون والمعسرون، لذلك شرع (صدقة الفطر) فى عيد الفطر، وشرع (الأضحية) فى عيد الأضحى.

ويجوز للمسلم أن يضحى فى بلد آخر. إذا كان هنا مسلم من باكستان أو بنجلادش أو من اليمن أو من مصر، وله أهل وأقارب هناك فى بلده، يستطيع أن يوكلّهم فى أن يضحوا عنه فى بلد هو أشدّ حاجة من هذا البلد الذى وسّع عليه الله تعالى.

وكذلك يستطيع المسلم أن يشترى أضحية من بلد إسلامى يوكّل من يضحّى عنه هناك – فى نيجيريا .. فى السنغال .. فى بنجلادش .. فى الفلبين .. فى البوسنة والهرسك .. فى فلسطين، فى الشيشان .. فى أىّ بلد من هذه البلدان – فالمسلمون أمّة واحدة، يسعى بذمتّهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، وهم جميعا إخوة، وأوطان الإسلام يسميها الفقهاء (دار الإسلام)، فهى دار واحدة. ولذلك أنا أستطيع أن أوكّل أخى المسلم فى بلد آخر أهله أشدّ حاجة، وأنا

---

(١) وأولها: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾.

أضحّى هنا إن كان عندى سعة أو أكتفى بشراء اللحم أو بأخذ اللحم من جارى وقريبى ولا حرج فى ذلك أبدا.

الإسلام أجاز نقل الزكاة، مع أنّ النبى عليه الصلاة والسلام قال: «تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم» [1] ولكن الفقهاء أجازوا نقل الزكاة لاعتبارات، كأن ينقلها الإنسان إلى قرابة له، أو إلى بلد أشدّ حاجة، أو إلى بلد فيه مجاعة أو فيه كارثة، لأن المسلمين متضامنون فيما بينهم، وهذا ما نقوله بالنسبة للأضحية.

أريد أن أنبه الإخوة إلى أننا سنصلى العيد بمشيئة الله تبارك وتعالى فى (أستاد نادى قطر الرياضى) نسأل الله أن يعيد عيلنا أمثال هذا العيد، وعلى أمتنا الكبرى، بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما يحب ويرضى.

اللهم اجعل يومنا خيرا من أمسنا، واجعل غدنا خيرا من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهمّ اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى ونفوسها على المحبّة، وعزائمها على الجهاد فى سبيلك، ونيّاتها على عمل الخير وخير العمل.

اللهمّ ولّ أمورنا خيارنا، ولا تولّ أمورنا شرارنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.

اللهمّ اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

اللهمّ انصر إخوتنا فى فلسطين ولبنان، وانصر إخوتنا فى البوسنة والشيشان، وانصر إخوتنا فى كشمير والسودان وانصر إخواننا المجاهدين فى سبيلك حيثما كانوا، وخُذ بأيدى إخوتنا المضطهدين والممتحنين، اللهم افكك بقوّتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتولّ بعنايتك أمرهم.

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهمّ أنزل عليهم بأسك الذى لا يردّ

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس.

عن القوم المجرمين، اللهمّ إنّا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم، اللهم لا تدع لهم سبيلا على أحد من عبادك المؤمنين.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ربنا اجعلنا مقيمى الصلاة ومن ذريّاتنا، ربنا وتقبل دعاء.

ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

اللهم آمنين، **﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾** [العنكبوت: ٤٥].

* * *

١٧ - خطبة عيد الأضحى

(ألقيت بمدينة الدوحة عام ١٤١٦هـ)

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات، وبفضله تتنزلّ الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات. الحمد لله الذى هدانا لها وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله. الحمد لله الذى أتمّ علينا نعمة الإسلام، وأكمل لنا هذا الدين القيمّ، وجعلنا به خير أمّة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصّنا بخير كتاب أُنزل، وأكرمنا بخير نبىّ أُرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم منهاج شرع: منهاج الإسلام ﴿**الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة : ٣].

وأشهد أنّ سيّدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، معلّم الناس الخير، وهادى البشرية إلى الرشد، وقائد الخلق للحق، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه الذين ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف:١٥٧] ورضى الله عمّن دعا بدعوته، واهتدى بسنّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

نحن في يوم العيد.. عيد الأضحى، في يوم الحج الأكبر كما سمّاه الله تبارك وتعالى وسمّاه رسوله ﷺ. في هذا اليوم تُقضى معظم مناسك الحج:

يذهب الحجاج إلى منى ليرموا جمرة العقبة – بعد أن وقفوا بالأمس فى صعيد عرفات، وبعد أن أفاضوا إلى المزدلفة، وبعدها يذهبون إلى منى ليرجموا الشيطان اللعين – ثمّ يحلقون أو يقصّرون ويذبحون أو ينحرون، ويذهبون إلى الكعبة طائفين طواف الإفاضة ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].

هذا يوم الحج الأكبر. فى هذا اليوم يجتمع المسلمون من أنحاء العالم ممثلين من كل بلد، مليونان جاؤوا من شتىّ البلدان، وشتى الألوان، ومختلف الأجناس، ومختلف اللغات، ومختلف الطبقات. ولكن ذابت بينهم الفوارق، فلا يعرف أسيوى من إفريقى، ولا عربى من عجمى، ولا غنى من فقير، ولا أمير من خفير، لا أبيض ولا أسود، ولا سيّد ولا مسود، ولا حاكم، ولا محكوم، الكلّ سواسية فى هذا الموقف أمام الله تعالى.

جاء الإسلام ليوحّد الأمّة بعباداته: الجماعة فى الصلوات الخمس توحد أهل الحى، الجمعة توحيد أكبر، العيد توحيد أكبر لأهل البلدة، الحج توحيد المسلمين جميعا، يجمع هؤلاء المليونين أو الأكثر من مليونين، وقد جاؤوا لله محرمين، ملبين، ساعين، طائفين، قلوبهم خاشعة، عيونهم دامعة، أعناقهم لله خاضعة، أكفّهم بالدعاء ضارعة.

من غير الإسلام يقدر أن يجمع هذه الملايين فى صعيد واحد؟! الحج يبرز قوّة الإسلام كما قال النبى ﷺ لصحابته: «رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة» [١].

فى هذا الحج تتجلّى قوّة الأمّة الإسلاميّة.

نحن الأمّة الإسلاميّة نملك ما لا يملك غيرنا، ولكنّا للأسف لا نوظف ما نملكه، لا نحسن توظيف قدراتنا.

---

(١) أورده ابن إسحاق فى سيرته من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى وصف عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة. انظر (تهذيب سيرة ابن هشام :ص٢٣٧) ط. دار البحوث العلمية بالكويت، تحقيق عبد السلام هارون.

نحن الأمّة الإسلاميّة نملك أكثر من ألف مليون من البشر (مليار وربع المليار أو ثلث المليار فى أنحاء العالم) . نملك القوة العدديّة وهى نعمة من الله امتنّ بها على عباده حينما قال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٨٦] .

معنا قوّة العدد .

معنا قوّة المادّة . . القوّة المادية والاقتصادية . الأمة الإسلامية تملك من الثروات المذخورة والمطمورة والمنشورة ما لا يملك الآخرون . عندنا من الثروة الزراعية والثروة المعدنيّة والثروة المائية ، ما لا يملك غيرنا .

نملك أواسط القارات ، ومنابت الرسالات ، ومهابط الحضارات ، الأمّة الإسلاميّة تملك ما لا يملك غيرها .

ثم تملك هذه الأمّة أعظم رسالة ، تملك الرسالة الخالدة رسالة الإسلام . . رسالة الوسطيّة . . رسالة التوازن ، الرسالة التى ربطت السماء بالأرض ، ومزجت بين الروح والمادّة ، وجمعت بين الدنيا والآخرة ، ووازنت بين العقل والقلب ، ووفّقت بين حريّة الفرد ومصلحة المجتمع .

نحن المسلمين وحدنا الذين نملك هذه الرسالة .

ونملك المصادر المعصومة التى لا تتغير ولا تتبدل . نملك الوثيقة الإلهية التى لا يملكها دين من الأديان ولا أمّة من الأمم . نملك الوثيقة السماوية : القرآن الكريم ، الذى أنزله الله ، فبقى إلى يومنا هذا كما أنزله على رسوله محمد ﷺ نقرأه مكتوباً كما كتب فى عهد عثمان بن عفّان رضى الله عنه .

من غير الأمّة الإسلاميّة يملك هذه الوثيقة الإلهية ؟! نحن نملك : القوة البشرية ، والقوة المادية ، والقوة الروحية ، ولكنّنا لا نوظّف هذه القوى ، كأنّما تبرّأنا منها . اليهود يقاوموننا باسم التوراة ونحن لا نقاومهم باسم القرآن ، هم يتجمعون على التوراة ونحن لا نتجمّع على القرآن ، هم يتجمّعون تحت راية اليهوديّة ونحن لا نتجمّع تحت راية الإسلام ، هم يحترمون يوم السبت ونحن لا نحترم يوم

الجمعة، هم يقولون (الهيكل) ونحن لا نقول (المسجد الأقصى) .

أخرجنا الدين من المعركة، أخرجنا الإيمان من المعركة، والمعركة فى أساسها معركة دينية. اليهود خلطوا القومية بالدين، ونحن عزلنا القومية عن الدين.

اليهود جاؤوا من أنحاء الأرض، من بلاد شتىّ، إلى فلسطين – التى يسمونّها : أرض الميعاد – باسم الدين . . باسم التوراة باسم التلمود .

المعركة بيننا وبين اليهود معركة دينية، وكلّ من يريد إخراج الدين من المعركة يخون الأمّة، ويحرم الأمّة أمضى أسلحتها، لا يمكن أن ننتصر على اليهود إلاّ بالإسلام، وبالإسلام وحده، وهذا ما يحسب له اليهود ألف حساب . هم يريدون حرب الإسلام وإخراجه من المعركة تحت أسماء وعناوين شتىّ : الإرهاب حينا، والعنف والتطرّف حينا، والأصوليّة حينا، والمقصود هو (الإسلام)، هو تنحية الإسلام من المعركة، وإخراج الإسلام من القضية، لتبقى قضيّة قوميّة علمانيّة فى نظرنا، وفى نظرهم هم تبقى قضية دينية توراتيّة تلموديّة .

هذا ما ينبغى أن نعلمه أيّها الإخوة .

إنّ ما جرى فى المدّة الأخيرة من ضرب للبنان وتهجير لأبنائه بعد معركة (قانا) الشهيرة . نصف مليون هجّروا ، وقتل من قتل من الأطفال ومن النساء ومن الشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، أرادت إسرائيل أن تؤدبنا . . أن تلوّح لنا بالعصا الغليظة وتقول : إذا لم تسمعوا لقولى، ولم تطيعوا أمرى، فهذا مصيركم .

ضربت إسرائيل وقتلت وذبحّت، ثمّ أوقفت إطلاق النار، كلّ ما فعلناه وما لهث اللاهثون من أجله : أن يوقف إطلاق النّار ! !

أهذا كل ما نريد ؟ !

وعدوان المعتدى، واغتصاب المغتصب، وظلم الظالم، وقتل القاتل، يذهب بلا قصاص ؟ !

جوّعوا الشعب الفلسطينى، وحاصروا الشعب الفلسطينى، وماذا صنعنا؟

جاء من يمثلون الشعب الفلسطينى، وغيرّوا الميثاق الوطنى! وفى هذه المرحلة بالذات التى ما كان ينبغى أن يفعل فيها هذا، لكنهم فعلوا هذا، وغيروا ما كان فيه تهديد لإسرائيل وترويع لإسرائيل.

هكذا طلبت إسرائيل وهكذا يجب أن تُجاب، لا ينبغى أن يرفض لها طلب، لا يصحّ أن نقول لها: لا، أو نقول لها: لم ؟!!

هذا ما جرى على أمّتنا.

إنّما يجئ الحجّ ليعطى هذه الأمّة (قوّة).

الحجّ يذكّرنا بأبى الأنبياء وأبينا (إبراهيم) – عليه السلام – الذى وضع الكعبة، ورفع قواعدها، هو وابنه (إسماعيل): ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٧].

يربط الله هذه الأمّة – وهى آخر الأمم – بأوّل بيت وضع فى الأرض.. وبإبراهيم بالذات؟ لأنه الذى أمره الله أن يقيم الملّة الحنيفية ﴿ **قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [البقرة: ١٣٥] ، ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [آل عمران: ٦٧].

(إبراهيم) أقام الدين لله، حطّم الأصنام، وأبى إلاّ أن تكون عبادته لله، ودعاؤه لله، وتوجّهه لله وحده لا شريك له.

(إبراهيم) هو داعى التوحيد، هو رمز هذا التوحيد الذى هو روح الإسلام، وجوهر هذا الدين، وروح هذه الأمّة وحياتها كلهّا.

(إبراهيم) ينبغى أن نرتبط به.

(إبراهيم) الذى ضحّى بوطنه وهاجر لله، وضحّى بنفسه فألقى فى النّار من أجل توحيد الله، ولم يبال بما أصابه فى سبيل الله، هدّدوه: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ**

وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٨] فما بالى إبراهيم بالتحريق ولا التهديد، ولكنّ الله حوّل النّار إلى رَوْح ورياحين وقال لها: ﴿ .... يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

(إبراهيم) هو الذى ضحّى بولده، وفلْذة كبده، وقرّة عينه، ومُهجة قلبه. هو الذى ضحّى بابنه الوحيد (إسماعيل)، الذى وهبه الله له على الكبر، فتعلّق به فؤاده، وكلّما نما الولد نما حبّه فى قلبه وازداد تعلّقه به. وهنا غار الله على قلب خليله، وأراد أن يمتنحه بذبح هذا الولد، وكان ذلك فى رؤيا ناميّة، لم يكن وحياً صريحاً ينزل به جبريل عليه، إنّما رآه فى المنام: ﴿ .... يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات:١٠٢]، متى كان ذلك؟ حينما بلغ معه السعى، حينما شبّ عن الطوق، وأصبح يُرجى منه النفع لأبيه، فى هذه الحالة جاء الامتحان ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، هنا لم يكن فى روعة موقف الوالد إلاّ موقف الولد، والولد سرّ أبيه (ومن يشابه أبه فما ظالم). هنا قال إسماعيل لأبيه: ﴿ .... افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢]، نفّذ الأوامر الإلهيّة التى عندك، حتى إنّه لم يقل له: افعل بى ما تؤمر، كأنّما فنى عن نفسه، وفرغ من ذاته، بل قال له: نفّذ ما تؤمر ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ لم يدّعِ الشجاعة ولم يزعم البطولة، وإنّما وكلّ الأمر إلى الله وقال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾.

وفعلاً صبر الوالد وصبر الولد، وسلّما: سلّم الوالد ولده وسلّم الولد عنقه للذبح، وأمسك الوالد بالسّكّين ليذبح هنا جاء الفرج، لقد نجح إبراهيم فى الامتحان، ليس القصد أن يُذبح الولد، إنّما القصد أن يمتثل الأمر، إنّما القصد أن يعرف أنّه مهما طُلب منه فإنّه منفّذ، ولذلك جاء الفرج من السماء: ﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٧].

لذلك شرعت الأضحية فى هذا العيد.. عيد الأضحى، وقد رُوِى: « ضحّوا فإنّها سنّة أبيكم إبراهيم »(١).

كلما ضحّينا تذكرنا هذا الحدث العظيم.. هذا الموقف الجليل، من الخليل وابنه أسماعيل، تذكّرنا كيف يرقى الإنسان إلى أن يضحّى بأعزّ شئ عليه، وأحبّ شئ إليه، وآثر شئ لديه، ما دام ذلك فى سبيل الله. ضحّى إبراهيم بولده، وضحّى ولده بنفسه، كلّ ذلك لله.

ما أجدرنا - أيها الإخوة المسلمون - ونحن فى هذا العيد أن نتعلّم من إبراهيم وإسماعيل درس التضحية.. درسِ البذل لله.. درسِ الصبر لله.. درس الطاعة لله ﴿ **قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إنّ الذى أذلّ هذه الأمّة، ونكّس رأسها، وأرغم أنفها، وجعلها هيّنة عند أعدائها هو: عدم البذل، عدم التضحية.

إنّ هذه الأمّة أصابها الوهن كما حذرنا النبى ﷺ: « .. ولينزعن الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله فى قلوبكم الوهْن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت » (٢). هذا هو الوهن، هذا سرّ الوهن وسرّ الضعف: - حب الدنيا (تعلّق الناس بالدنيا.. بالمصالح الشخصية والمادية) وكراهية الموت (تشبث الناس بالحياة ولو كانت ذليلة، وهو سبب الجبن).

---

(١) رواه ابن ماجه من حديث زيد بن أرقم (٣١٢٧) بلفظ « ... ما هذه الأضاحى قال: سنة أبيكم إبراهيم ».
فى الزوائد: فى إسناده أبو داود واسمه نفيع بن الحارث وهو متروك واتهم بوضع الحديث.
(٢) أخرجه أبو داود فى الملاحم من حديث ثوبان رضى الله عنه، وفيه راوٍ مجهول وباقى رجاله ثقات، لكن رواه أحمد فى المسند بنحوه من طريق آخر وسنده قوى، فصحّ به. انظر (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٥ . ١٦ برقم ٤٢٢٤) وأوله: (يوشك الأمم لا أن تَداعى عليكم كما تَداعى الأكلة إلى قصعتها. قال قائل: يا رسول الله ومن قلّة يومئذ؟ قال: لا بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السّيل... ».

إنّما فتح الصحابة الفتوح، ودانت لهم البلدان، ودخل النّاس فى دين الله أفواجا، لأنهم هانت عليهم الدنيا، ولأنّهم ما كانوا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، كما قال أبو بكر لخالد : يا خالد احرص على الموت توهب لك الحياة .

حرصوا على الموت فوُهبوا الحياة .

كان خالد بن الوليد فى حروبه مع فارس والروم، يدعوهم إلى أن يُسلموا فيَسلموا ، ويكتب الرسائل إلى قادتهم ويختمها بقوله : « وإلاّ – أى إذا رفضتم – غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة) .

فإذا أصبحنا نحن نحب الحياة ونحرص على الحياة كما وصف الله اليهود من قبل : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾ [البقرة:٦٩] أىّ حياة عزيزة أو ذليلة، كريمة أو مهينة . كان اليهود أحرص النّاس على حياة، أصبحنا نحن وقد ورثنا أخلاق اليهود قديماً .

فمما يؤسف له أنّ ما وصف الله به اليهود قديماً أصبح الكثيرون منّا يوصفون به . وُصف اليهود بالحرص على حياة أىّ حياة، وُصفوا بأنهم بخلاء بالمال، وُصفوا بالجبن ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ . . . ﴾ [الحشر:١٤] نحن للأسف أُصبنا بما أُصيب به اليهود .

ما الذى جرى للأمّة؟ هل تغيرّت طبيعة الأمّة؟

وصف الله اليهود بأنهّم ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر:١٤]، ونحن نرى أمتّنا اليوم بأسها بينها شديد، يجفو بعضها بعضا، ويعادى بعضها بعضا، بل يقاتل بعضها بعضا، كما رأينا فى حرب العراق وإيران، ثمّ حرب العراق والكويت، أو العراق والخليج، وهو ما مزّق الأمة إلى اليوم فلم يلتئم لها شمل. ولم تعقد لها قمة شاملة. وقد دعا بعض رجالات العرب – بعد العدوان على لبنان – إلى عقد قمة عربية من أجل لبنان، ولو قمة مصغّرة،

فما استجاب لذلك أحد، لأنّ الأمّة أصبحت يضرب بعضها وجوه بعض، لا يجتمع شملها، ولذلك طمع فيها أعداؤها.

لابدّ - أيها الإخوة - أن نحاول أن نجمع شمل هذه الأمّة.. أن نلمّ شتاتها، ولا يجمعها شئ إلاّ الإسلام. الإسلام هو الذى يوحّد الصفوف، هو الذى يجمع الشتيت، هو الذى يوحدّ المتفرقّ. أمّا إذا سرنا وراء غير الإسلام، فإنّنا سنتفرّق شذر مذر، سنتفرق إلى يمين ويسار، واليمين درجات واليسار درجات. هناك يمين اليمين ووسط اليمين، ويسار اليمين، وهناك يسار اليسار ووسط اليسار ويمين اليسار، وهناك من قبلته كذا ومن ولاؤه لكذا، ستتفرقّ الأمّة، ولا يجمعها شئ إلاّ الإسلام ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

الأمّة بخير، لقد ذهبت إلى أماكن شتىّ وأقطار شتىّ، ووجدت الأمّة بخير. الأمّة فيها الخير، كامن فى أعماقها، نرى ذلك فى هذه التجمعّات على الإسلام، نرى ذلك فى المليونين (بل أكثرمن المليونين) من الحجاج، نرى ذلك فى مواسم الحج والعمرة التى تمتلئ بالملايين، نرى ذلك فى المساجد التى تمتلئ بالمصلين، نرى ذلك فى هذه الصحوة الإسلامية التى حرّكت العقول والقلوب والعزائم. ولكن الأمّة تحتاج إلى قيادة، تحتاج إلى من يقودها باسم الله فيفجر طاقاتها المكنونة، وهى طاقات هائلة لا يفجرها إلاّ الإيمان.

هذه الأمّة لا تُقاد بالقوميّة، ولا بالاشتراكيةّ، ولا بالديمقراطية، ولا بالثوريّة، ولا بأىّ شئ من هذا. إنمّا تقاد حينما ترفع المصحف أمامها، وتعلن عليها: (لا إله إلاّ الله والله أكبر). حينما تقول: يا رياح الجنّة هبّى، ويا كتائب الله سيرى، تسير الأمّة وراءك.

الأمّة لا يمكن أن يجمعها شئ أو يحرّكها شئ إلاّ الإسلام، ولكن أعداء الأمّة يعرفون ذلك، ولذلك يسعون إلى تفريقها (فرق تسد) لابدّ من تفريق هذه الأمّة بأىّ وسيلة، لابدّ أن لا يكون لهذه الأمّة شمل ملتئم!

في بعض البلاد يثيرون مسألة الأقليات غير المسلمة: الأقباط في مصر، النصارى في لبنان، وهكذا.

إذا لم توجد أقلية غير مسلمة، يثيرون المذهبيّة الإسلاميّة والطائفيّة الإسلاميّة: سنّة وشيعة.

إذا لم يوجد سنّة وشيعة، يثيرون مسألة العرقيّة: عرب وبربر أو عرب وأكراد.

إذا لم يوجد حتى هذه العرقيّة يقولون: سلفي وصوفي، مذهبي ولا مذهبي، وهكذا، لابدّ أن يحاولوا أن يوجدوا شيئاً يفرّق الأمّة، ونحن نريد أن نجمع الأمّة بكلّ طوائفها وبكلّ فصائلها.

ينبغي لأبناء الصحوة الإسلاميّة أن يدركوا هذه الحقيقة: أنّ أعداءنا يريدون أن يفرّقونا، وأن يمزّقونا شرّ ممزق، وألا يرتفع لنا علم، وألا نجتمع تحت راية. ولابدّ أن ندرك كيدهم، وأن نرد كيدهم في نحورهم، وأن نعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم.

ينبغي أن نكون أكثر وعياً لما يكيده لنا أعداء الإسلام.

إنّ الإسلام – أيها الإخوة – في هذه الآونة مُحاصر من كل مكان، يُضرب الإسلام وللأسف بأيدي أبنائه.. بأيدي ولاته وحكّامه. خوفوا الحكام من الشعوب.. من الصحوة الإسلامية.. من الدعوة الإسلامية، فأصبح هناك هوّة واسعة وفجوة عميقة بين الحكّام والمحكوميين، ولابدّ لنا أن نوعّي النّاس أنّ الجميع في خطر إذا لم يتحدوا على الإسلام، إذا لم يستقيموا على كتاب الله وعلى سنّة رسول الله ﷺ.

لا مَخْلصَ لنا – أيهّا الإخوة – إلاّ بالإسلام، نقول ما قاله ابن الخطّاب: نحن كنّا أذلّ قوم فأعزّنا الله بالإسلام، ومهما نطلب العزّ بغيره أذلّنا الله.

لابدّ لنا أن نستمسك بهذا الدين، ونضّحي في سبيله، ونبذل من أجله

النفس والنفيس، والغالى والرخيص، نقدّم أنفسنا ونقدّم أولادنا، كما قدمت الخنساء أولادها الأربعة فى معركة القادسية، وأوصتهم أن يُقدموا ولا يحجموا، وأن يثبتوا ولا يترددوا، حتى قتلوا كلهم فى المعركة، ولمّا بلغها نعيهم لم تلطم خدّا، ولم تشقْ جيباً، ولكن قالت : الحمد لله الذى شرّفنى باستشهادهم، وجعلهم شفعاء لى يوم القيامة!!

يا أيها الإخوة :

ما أحوجنا إلى عيد تعلو فيه كلمة الإسلام، وترتفع فيه راية القرآن. ما أحوجنا إلى عيد بلا مشكلات ولا أحزان ولا دموع.

نحاول أن نجد عيداً من هذا النّوع بحيث نبتسم ونضحك من قلوبنا ونفرح الفرحة الحقيقيّة، فلا نكاد نجد هذا العيد.

أبو الطيب المتنبى قال يوما فى عيد من الأعياد :

عيد بأية حال عُدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أمّا الأحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيداً دونها بيد

استوحش الشاعر من العيد لفراق أحبّته، لأنّ أحبته كانوا بعيدين عنه. ماذا يقول المتنبى لو رأى أعيادنا هذه، وأمتّنا تقاسى ما تقاسى، فى فلسطين ولبنان، فى البوسنة والشيشان، فى كشمير والفلبين، فى كثير من بلاد الإسلام. بعض ما تعانيه من صنع أعدائها، وبعض ما تعانيه من صنع أيديها، كما يحدث فى أفغانستان، وكما يحدث فى الصومال، وكما يحدث فى كثير من بلاد الإسلام.

ما أحوجنا إلى عيد نبتسم فيه، ونشعر بالفرحة الكبرى، ونقول: هذا هو العيد الأكبر ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر اللّه ينصر من يشاء وهو العزيز الرَّحيمُ * وَعْدَ اللّهِ لا يُخْلِفُ اللّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾

[الروم ٤-٦].

أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية :

الحمد لله ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [غافر :٣] . وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك ، يسبّح له ما فى السماوات وما فى الأرض، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شئ قدير، وأشهد أنّ سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، البشير النذير والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أمّا بعد فيا أيها المسلمون :

فى هذا اليوم الكريم لا يسعنا إلاّ أن نمدّ أيدينا إلى الله تبارك وتعالى، نسأله أن ينصر أمتنا على أعدائها، وأن ينصر ديننا على أديان الشرك والكفر.

الهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين. اللهمّ اجعل كلمة الإسلام هى العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى.

اللهم انصرنا على اليهود الغادرين ، وانصرنا على الصربيّين الحاقدين وانصرنا على الوثنيّين المتعصبين، وانصرنا على الروس الجاحدين، وانصرنا على جميع أعدائك أعداء الدين، اللهمّ ردّ عنّا كيدهم، وفلّ حدّهم، وأذل دولتهم، وأنزل عليهم بأسك الذى لا يردّ عن القوم المجرمين.

اللهمّ انصر إخوتنا المجاهدين فى سبيلك حيثما كانوا. اللهم أيّدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التى لا تنام، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام.

اللهم إنّا نسألك أن تكرمنا ولا تهيننا، اللهم أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا،واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهمّ ولّ أمورنا خيارنا، ولا تولّ أمورنا شرارنا، وارفع مقتك وغضبك عنّا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا.

اللهمّ اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات، إنّك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

١٨ – عيد بأية حال عدت يا عيد

● **الخطبة الأولى:**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

مرّت علينا أيّام العيد، وهنّأ بعضنا بعضا: عيدكم مبارك، وعساكم من عوّاده، وكلّ عام وأنتم بخير. وذبح الناس الذبائح، وأكلوا حتى امتلأت بطونهم، وجمعوا على موائدهم ما لذّ وطاب من الطعام والشراب.

ومن قبل هذا العيد مرّ عيد آخر، قبل عيد الأضحى مرّ عيد الفطر، وقبل هذا وذاك مرّت أعياد وأعياد.

ولكن العيد الحقيقي الذى ينبغى أن تبتسم له الشفاة، وأن تفرح به القلوب، وأن تنشرح به الصدور، وأن تعلن الأمّة به الفرحة الكبرى: هو العيد الذى ينتصر فيه المسلمون انتصاراً حقيقياً، حين تعلو كلمة الإيمان، حين ترتفع راية القرآن، حين تُحَكّم شريعة الإسلام، حينما تتحرّر أرض الإسلام، حينما يصبح المسلمون سادة أنفسهم، حينما يصبح أمرهم بأيديهم ولا يكونون كما قال الشاعر:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٌ   ولا يُستأذنون وهم شهود!

العيد الذى نتنظره هو العيد الذى يصبح المسلمون فيه أحراراً سادة، هم الذين يُملون القرار، وهم الذين يتخذونه من عند أنفسهم.

حين يكون المسلمون قادرين على الدفاع عن حرماتهم، على الذود عن حماهم، لا يُهتك لهم عرض، لا تُنتهك حرمة، لا يُسفك دم، لا يهدّم مسجد، لا يُدمرّ منزل، حينما يأتى هذا اليوم يحقّ لنا أن نقول: عيدكم مبارك، وكلّ عام وأنتم بخير.

أمّا أعيادنا اليوم فليست أعياداً، إنها أعياد لا طعم لها، لا معنى لها.

كيف نعيّد؟ كيف نفرح؟ كيف نضحك؟ كيف يمتلىء التليفزيون بتلك

البرامج المفرحة أو غير المفرحة، النّافع وغير النّافع منها، وإخوتنا المسلمون هنا وهناك يُذبّحون.. يُقتّلون. يُبادون.. يُنتهكون؟ قولوا لي بالله كيف نفرح؟

كيف نفرح والمسجد الأقصى أسير فى أيدى يهود، يتحكّمون فيه، ويفعلون أفاعيلهم ليهدموه، ويقيموا معبدهم على أنقاضه؟

كيف نفرح وأرض النبوّات تُنتهك فيها الحرمات، من اليهود أحرص الناس على حياة؟

كيف نفرح وإخوتنا فى البوسنة والهرسك إلى اليوم يذوقون العذاب، ويشربون الكأس المرّة، على أيدى أولئك الحاقدين الصليبيّين المتوحشين؟

كيف نفرح وإخوتنا فى جامو وكشمير يلقون من الوثنية المتعصبّة البغيضة ما يلقون؟

كيف نفرح ولنا إخوة فى كلّ مكان يشكون الاضطهاد، ويشكون مرارة الأذى، ويتجرّعون الصاب والعلقم؟

كيف لأمتّنا أن تفرح بالعيد وهذا حالنا؟

من قديم قال أبو الطيب المتنبى:

عيدٌ بأيّة حال عُدت يا عيدُ	بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أمّا الأحبّة فالبيداء دونهم	فليت دونك بيداً دونها بيد

كان أبو الطيب يشكو الغربة.. الغربة عن الأهل والوطن، يشكو فراق الأحبة، فليتنا نشكو مثل هذا.

إنّنا نشكو ما هو أوجع.. ما هو أشدّ إيلاماً، نشكو مآسى حلّت بالأمّة، فأخرّت مسيرتها، ومزّقت صفوفها، وأصبح أعداؤها يتحكّمون فيها ولا تستطيع أن تردّ لهم أمرا.

ماذا نصنع أمام هذه المصائب والكوارث والمآسى، ونحن عاجزون مشلولو الأيدى أمام ما يحدث لنا ولإخوتنا هنا وهناك؟

نشرات الأخبار معظمها مآسى المسلمين، حتى قال لى بعض الإخوة: أكاد أغلق التلفزيون كلّما جاءت نشرة الأخبار، لأنّ الأخبار التى تتصدرها مآسى إسلاميّة.

أحزان وراء أحزان، وهموم وراء هموم، هذا ما نراه فى كلّ يوم. المصائب تصابحنا وتماسينا، وتراوحنا وتغادينا. لا نستطيع أن نغلق أعيننا، ولا نستطيع أن نصمّ أسماعنا، أمام هذا الصراخ. لا يستطيع الإنسان أمام هذه المشاهد، أن يغلق بصره وسمعه.

ماذا نصنع ؟

الأمّة التى بوّأها الله مكانة الشهادة على النّاس، والتى جعلها خير أمّة أخرجت للناس، أمّة محمّد، أمّة القرآن، أمّة الإسلام، أمّة الخلود، الأمّة التى بلغ تعدادها ملياراً ونحو ربع المليار من البشر (ألف مليون ومائتا مليون من النّاس)، كثرة كغثاء السيل.

مئات الملايين، ولكنّها لا تستطيع أن تصنع شيئا.

ما أكثر الناس، لا، بل ما أقلّهم   الله يعلم أنّى لم أقل فندا

إنّى لافتح عينى حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدا

مئات الملايين، ولكنّها لا تغنى عند الخطر، لا تفعل شيئاً يُذكر.

ما الذى جرى لهذه الأمّة؟ ما الذى جرى لها حتى يحدث لها ما حدث؟ عندها وسائل القوّة، عندها مقوّمات السيادة والريادة: عندها القدرة البشريّة. عندها القدرة الاقتصادية، فهى تملك معظم منابع النفط، وتملك من المعادن، وتملك من الرقعة الزراعيّة. عندها المواريث الحضارية، عندها القوّة الروحيّة لأنّها تملك أعظم رسالة البشر، رسالة الإسلام الخالدة.

عندها مؤهّلات السيادة، ولكنّها لم تشكر نعمة الله على هذا، لم تستفد من هذه الطاقات وهذه القوى، تركت الإسلام، تركت مصدر عزّها ومجدها، فتحكّم فيها غيرها.

لا قيام لهذه الأمّة.. لا عزّ لها.. لا انتصار لها.. لا وحدة لها.. لا سيادة لها، إلاّ بالاستمساك بعرى الإسلام. حينما تتمسّك بالإسلام سيعزّها الله، إذا نصرت الله نصرها الله، إذا أعزّت دين الله أعزّها الله، إذا كانت مع الله كان الله معها: ﴿ .. إن تنصروا الله ينصركم.. ﴾ [محمّد: ٧]، ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ما الذى جرى لأمتّنا حتى حدث لها ما حدث، ومرّت عليها الأعياد وحالها هكذا؟ كيف نفرح بالعيد؟ كيف نضحك للعيد وهذه حال أمتّنا؟

نحاول أن نرسم البسمة على الشفاه، نحاول أن نرسم الإشراقة على الوجوه، نحاول أن نتظاهر بالفرح والسرور، ولكن هناك جراح عميقة غائرة فى سويداء قلوبنا لا نستطيع أن ننساها، وإخوتنا فى كلّ مكان يعانون ممّا نعرفه ونقرأه ونسمعه ونشاهده.

مشكلتنا فى هذا العصر أنّ الأحداث أمامنا، المسلمون قديماً ضاعت منهم الأندلس وحدث للأندلسيّين ما حدث، ولكن ما كان النّاس يرون هذا ولا يسمعونه. كانوا يسمعونه بعد أن يقع بأشهر أو بسنين، أمّا نحن الآن فنشاهد الأحداث لحظة بلحظة، فلا عذر لنا أمام هذه المآسى التى نشهدها ونسمعها ونعايشها.

إخوتنا فى البوسنة حديث العالم كلّه الآن، صراع بين الوحشيّة الغادرة.. بين الجيش المسلّح بأحدث الأسلحة وبين عُزل ضعاف، صراع بين الذئاب والُحملان، صراع بين الضفدعة والثعبان، صراع بين اللحم والسكين، لا تكافؤ، لا تقارب فى القوى.

النظام العالمى الجديد، مجلس الأمن، هيئة الأمم المتحدة، ماذا صنعوا؟ حظروا على المسلمين أن تُرسل إليهم الأسلحة، وإلاّ أُتيحت الفرصة للتساوى فى القتل! هكذا قال أحد السياسيين البريطانيّين! أى لا ينبغى أن يحدث التساوى

فى هذا، يُمكّن طرف من قتل الطرف الآخر حتى لا يستمر القتال، يُتاح لطرف أن يقتل وعلى الطرف الآخر أن يستكين ويصبر !!

ماذا فعل النظام العالمى الجديد المزعوم؟ ماذا فعلت الهيئات الدوليّة؟ لم تصنع شيئاً إلاّ الكلام، يُقال : سنفعل وسنفعل، وما فعلوا ولن يفعلوا إلاّ بعد أن تذهب أراضى المسلمين وديارهم ويُمزّقوا شرّ مُمزّق، ولا يبقى لهم إلاّ شىء لا قيمة له. هنالك يدعون إلى إنهاء القضيّة والمصالحة ! أىّ مصالحة؟! على أىّ شىء؟!

ماذا فعل المؤتمر الإسلامى الذى اجتمع من قبل فى جدّة. واجتمع فى إسلام آباد، وسيجتمع من بعد فى مكان كذا؟ ماذا صنع هؤلاء؟ كلام فى كلام. وكما قال الشاعر:

إنّ ألفَىْ قذيفة من كلام   لا تساوى قذيفة من حديد

حتى كلامنا إذا تكلّمنا فهو كلام خافت، أشبه بالهمس الذى ينيم اليقظان لا بالصراخ الذى يوقظ النّائم، ويحرّك الساكن، صوت خافت، صوت ضعيف.

كان من أوصاف عمر رضى الله عنه أنّه كان إذا تكلّم أسمع. رأت إحدى الصحابيات بعض الشباب يمشون متماوتين، فسألت من هؤلاء؟ قالوا لها : هؤلاء نسّاك عبّاد، فقالت : كان عمر ناسكاً، ولكنّه كان إذا مشى أسرع، وإذا تكلّم أسمع، وإذا أطعم أشبع، وإذا ضرب أوجع، وهذا هو النّاسك حقًّا.

هذه مظاهر القوّة، أمّا نحن اليوم فنتكلّم فلا نسمع، ونمشى فلا نُسرع، ونطعم فلا نشبع، ونضرب فلا نوجع. هذه حال أمتنا.

انظروا ماذا تفعل إسرائيل. نحن نركض وراءها، نلهث من خلفها، نتنازل عن شىء بعد شىء، وهى كأنّما تخرج لنا لسانها، تسخر منّا، تستهزىء بنا. كلّما أسرفنا فى التذلّل، أسرفت فى التمنّع والتدلّل، كلّما بالغنا فى الانحناء، بالغت فى الإباء، كلّما زدنا تنازلاً زادت تعاليا، وهكذا.

أبناء القردة والخنازير الذين غضب الله عليهم فى كتبه، أصبحوا يسخرون منّا. صاحب الدار يركض وراء اللص، يرجوه أن يدع له حجرة من بيته.. من داره

الكبيرة التى اغتصبها، واللص لا يريد أن يترك له حتى هذه الحجرة ! هم يقولون للفلسطينيين الآن ! اذهبوا إلى الأردن، ليس لكم مكان فى فلسطين.

وهذه المفاوضات التى يركضون وراءها تضييع للأوقات، ليس هناك عمل مُجْد إلاّ الجهاد فى سبيل الله، ما غُزى قوم فى عقر دارهم إلاّ ذلّوا، ما أُخذ بالقوة لا يستردّ إلاّ بالقوّة، هذا ما قاله الشاعر العربى من قديم بحكم الفطرة والأنفة:

وكنت إذا قومٌ غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا يالهمذان ظالمُ ؟

متى تحمل القلب الذكىّ وصارماً وأنفاً حميّاً تجتنبك المراغم

تُرى ألم يعد لنا قلوب ذكيّة، أو نفوس أبيّة، أو أنوف حميّة، أو صوارم عربية، نذافع بها عن أنفسنا، حتى تجتنبنا المراغم، وحتى نتحرّر من المظالم ؟؟

ما الذى حدث لنا؟ كنّا نغزو فأصبحنا نُغزى، كنّا نقود فأصبحنا نُقاد، كنّا سادة العالم فأصبحنا فى ذيل القافلة.

لا بدّ من رجعة إلى الله تبارك وتعالى.

إنّ اسرائيل تريد أن تصبح هى سيّدة المنطقة، وهى الآن تقول: أنا التى أحمى العالم ! ومِمّ تحميه؟ من الإسلام. ثمّ تسمّى هذا الإسلام شيئاً اخترعته هذه الأيام، وهو اسم: الأصوليّة ! بدل أن يقولوا (الإسلام) بصراحة يقولوا: نحن نحمى العالم من الأصوليّة !

ما الأصوليّة؟ الأصوليّة هى الدعوة إلى كتاب الله وسنّة رسوله.. إلى تحكيم الشريعة، عودة هذه الأمّة إلى جذورها، إلى ذاتيّتها، أن لا تخضع لغيرها، أن لا ترضى بغير كتاب الله منهاجا، وبغير رسول الله ﷺ إماماً.

تحدث حوادث إرهاب فى أمكنة من بلاد المسلمين ونحن لا نقرّها، فيلصقونها بالإسلام، وينسبونها إلى (الأصوليين) ليبغضوا الناس فيهم، فيسمّون الإسلام: (الأصوليّة)، أو يسمّونه (تطرّفاً)، أو (تشدّداً)، أو (إرهاباً)! والإسلام لا يقرّ أن يقتل إنسان برىء بغير حق، ولكن هذا يحدث فى كلّ أنحاء العالم، فلماذا يُركّز على حوادث تحدث فى بلاد المسلمين وحدها، ويُتخذ منها ذريعة لضرب الإسلام، وضرب التدين؟

وأصبح يُكتب فى صحف سيّارة: إنّ التدين هو مصدر هذا الخطر كلّه!

الندّين مادام موجوداً فهو الذى يفرز التطرّف، ويفرز الأصوليّين ! لا بدّ إذن من سياسة قائمة على فلسفة سمّوها : (تجفيف المنابع) . بمعنى : أنه ينبغى فى الإعلام وفى التعليم وفى الثقافة أن تُحذف الأشياء التى من شأنها أن تنشىء العقليّة المسلمة، والنفسيّة المسلمة، والشخصيّة المسلمة .

وهذا ما فعلوه فى عدد من البلدان[1]، حذفوا من مناهج التعليم كلّ ما يثير حميّة المسلم . . كلّ ما يخلق فيه الاعتزاز بدينه . . كلّ ما يبعث فيه روح الجهاد . . كلّ ما يثير فيه الغيرة على دينه وعلى أمّته .

هذا ما يحدث فى بلاد كثيرة . يغرسون فى الطفل منذ نعومة أظفاره ما يسمّى (نسبيّة الحقائق) ، أى : أنّ الحقائق ليست مطلقة، إذا كنّا نحن ندعو إلى التوحيد ونؤمن بالتوحيد، فهناك من يؤمن بالتثليث، وهناك من يرى أنّ الإله يتجلّى فى شجرة أو بقرة أو نهر أو صنم، هناك وثنيّة، ومعظم العالم وثنيّون، هؤلاء بشر مثلنا من حقّهم أن نحترمهم وأن نقرّ بدياناتهم !!

إذا كنّا نؤمن برسالة محمد فهناك من لا يؤمن بها، هناك من يؤمنون برسل آخرين، وهناك من لا يؤمنون برسالات سماويّة . إذا كنّا نؤمن بالآخرة وأنّ هناك جنة ونارا، فهناك أناس يقولون بتناسخ الأرواح، وهناك آخرون يقولون : إنّه لا جنة ولا نار !!

هذه هى (النسبيّة) التى يتحدثون عنها، سوفسطائيّة جديدة .

هذا ما يجرى فى بعض البلدان، وتحاول بلاد أخرى أن تقلّدهم .

(تجفيف المنابع) هو الخطر الذى نراه الآن فى كلّ مكان .

لقد قرأت فى إحدى الصحف – فى صحيفة يوميّة سيّارة فى دولة خليجيّة – أشياء تُذهل الإنسان، لا يكاد الإنسان يتصورّها، كيف يحدث هذا فى بلد عربى مسلم، ولا تهيج الدنيا؟ ولا يُقذف هذا الكاتب بالحجارة من الأطفال فى الشوارع؟ كيف يحدث أن يكتب إنسان يدين التاريخ الإسلامىّ كلّه . . يدين الفتح الإسلامى كلّه؟ ويقول : الروم كانوا عادلين والمسلمون فى حربهم للروم كانوا ظالمين! المعتصم الذى نتحدّث عنه ونقول (وامعتصماه) ، كان رجلاً ظالماً،

---

(١) مثل تركيا وتونس بصراحة، وفى بلاد أخرى بخبث وتدرج . (القرضاوى) .

ذهب إلى أناس فقتلهم فى بلادهم من أجل امرأة ! والمسلمون حينما ذهبوا إلى الأندلس كانوا غزاة لقوم مسالمين، ولذلك حُقّ لأهل البلاد أن يطردوهم، وأن يستردّوا بلادهم من هؤلاء الغزاة! ويقول: إنّ (إسرائيل) إسم معروف فى كتبنا وفى قرآننا وفى الكتب المقدسّة، لم يكن للعرب حقّ فيها، هى حقّ بنى إسرائيل، وهذا وطنهم وقد استردّوه، فليس لفئة أن تدّعى أنّها صاحبة الحق !

هذا يُكتب فى صحفنا، هذا ما لم يقله اليهود، وما لم يقله (هرتزل) ولا (ابن جريون)، هؤلاء لم يقولوا إنّهم أصحاب الحق وحدهم، بل قالوا: نقسّم الأرض بيننا، أمّا هذا فيقول: لا، ليس لنا – نحن أصحاب الأرض كما نزعم – حقّ فى هذا !!

جهل هذا الشخص المتعالم أنّ الروم كانوا مستعمرين لبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وأنّ المسلمين كانوا محرريّن لهذه الشعوب، وأنّ الأندلسييّن هم الذين استعانوا بالمسلمين لينقذوهم، وأنّ بنى إسرائيل لم تقم دولتهم فى فلسطين أكير من أربعمائة (٤٠٠) سنة، وأنّهم حينما دخلوا فلسطين لم تكن فارغة، وحين خرجوا منها لم تكن خالية، فقد كان فيها أهلها، أهل فلسطين.

وهو يدافع عن الماسونية ويقول: افتحوا المحافل الماسونية، الماسونية ،هيئة خيريّة إنسانيّة !!

الماسونية – أيها الإخوة – أداة من أدوات اليهوديّة العالميّة، ومن أدوات الصهيونية، للتأثير على العالم وسياستة.

أىّ عيد هذا الذى يُقال فيه هذا الكلام ويمر بسهولة؟

أىّ عيد هذا الذى يحدث فيه ما يحدث لأمتنا الكبرى، من المحيط إلى المحيط، أمّة الألف وثلث الألف من الملايين؟

منذ نحو ستين سنة كتب أحد الشعراء[1] فى أحد الأعياد قصيدة، يبكى فيها حال المسلمين، وممّا قاله فى قصيدته:

قالوا: عجبنا ما لشعرك باكياً ... فى العيد، ما هذا بشأن معيّد؟
ما حيلة العصفور قصّوا ريشه ... ورموه فى قفص وقالوا: غرّد؟!

---

(١) هو الشاعر المصرى الكبير: محمود غنيم، والقصيدة نشرت فى مجلة (الرسالة).

كيف يغرّد العصفور إذا قُصّ جناحه ونتف ريشه ووضع فى القفص؟ هل يستطيع أن يغرّد؟ إنّه ينوح ولا يغرّد.

وهذه هى حالنا مالم نصطلح على الله تبارك وتعالى، ما لم نقرع باب الله بالتوبة، ما لم نرجع إلى أنفسنا، ما لم نقل ما قال أبونا آدم وأمّنا حوّاء: ﴿ .. **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ليس معنى هذا – أيّها الإخوة – أنّه ليس هناك بصيص من أمل، وأنّ الصورة سوداء من كلّ جوانبها. إنّنا حين نتألم، فهذا دليل حياتنا. تكالب الأعداء علينا يدلّ على أننا أحياء، فالأموات لا يعاديهم أحد.

المبشرات كثيرة أيّها الإخوة. فبجوار هذا هناك صور مشرقة:

المساجد ممتلئة بالمصلّين والحمد لله، موسم الحج عامر بالحجاج، اثنان من الملايين حجّوا هذا العام. الذين يقرأون الكتاب الإسلامى بالملايين، المنادون بتطبيق الشريعة جماهير غفيرة فى كلّ مكان، صوت الإسلام لا زال مرتفعا.

الإخوة فى البوسنة والهرسك – رغم ضعفهم ووهن حالهم، وعدم وجود سلاح فى أيديهم – قاوموا ولا زالوا يقاومون، كانوا يظنّون أنّ (سراييفو) ستسقط بعد ثلاثة أسابيع، فمرّ عليها سنة، ومرّ عليها بعد السنة شهر وشهر، وهى صامدة.

قالت إسرائيل: إنّ الانتفاضة ستنتهى بعد أسابيع، وإنّ ثورة المساجد ستنطفىء بعد أيّام أو أشهر على الأكثر. ولكن الجذوة لم تنطفىء، ظلّ أطفال الحجارة يكْبرون ويكبّرون، إلى أن أصبح الأشبال أسوداً، وأصبحوا يخيفون إسرائيل فى كلّ مكان.

رغم تكسير العظام، ورغم إزهاق الأرواح، ورغم سفك الدماء، ورغم الاعتقال والسجون، لازال أشبال الحجارة يعملون.

وإسرائيل تحاول أن تعوّض عن هذا بحركتها فى كلّ مكان، فى المنطقة وفى غير المنطقة، حتى ذهبت إلى الهند وقالت لهم: نحن معكم ضد الإسلاميّين.. ضد الأصولية الإسلاميّة. واجتمع الاثنان كما قال الله تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا..** ﴾ [المائدة: ٨٢].

لازال المجاهدون يعملون، وإخوتنا فى كشمسر لازالوا يجاهدون.

هناك إذنً ولا شك صور طيّبة.

ذهب أحد الصحفيّن الكنديّين إلى البوسنة وإلى مدينة (سيرفتشا)، وعايش الإخوة هناك، فأدهشه صلاتهم وقوّتهم واستمساكهم بدينهم، رغم حداثة رجوعهم إلى الدين، فقد كانوا تحت حكم الشيوعيّة.

أعجبه هؤلاء فعاش بينهم، ودخل فى دينهم، وتزوّج منهم، وأصبح واحداً منهم. ثمّ أراد أن يودّعهم وقال: إنّى مشتاق إلى أن أذهب إلى فلسطين، وأريد أن أزور المبعدين فى (مرج الزهور)، هؤلاء الصامدين الذين لم يركعوا أمام ضغط اليهود، لم يحنوا رؤوسهم، لم يطأطئوا ظهورهم أمام وعد أو وعيد.. أمام إغراء أو تهديد، رفضوا أن يعودوا إلاّ جميعا، أو يبقوا فى هذه الأرض حتى تكون لهم مقابر.

أراد أن يذهب إلى هؤلاء فقال له الإخوة فى البوسنة: نريد أن نبعث لك شيئاً لإخواننا.. هديّة.. مساعدة، فماذا نبعث؟

جمعوا ما معهم فما استطاعوا أن يجمعوا إلاّ اثنى عشر دولاراً. قالوا: خُذ هذه الدولارات الاثنى عشر وأعطها لإخواننا مساعدة وهديّة منّا لهم. كانت رمزاً، ليست شيئاً عظيما، ولكنّها شيء عظيم فى قيمته لا فى مادّته.. فى كيفه لا فى كمهّ.

ذهب الأخ الكندى إلى أرض المبعدين فى (مرج الزهور)، وبلّغهم رسالة إخوانهم، وأنّهم معهم بقلوبهم، وأنّهم يتمنّون لو تحرّرت أرضهم ليأتوا إلى

فلسطين ليجاهدوا معهم. وقال لهم: إنّهم لم يستطيعوا أن يجمعوا لكم إلاّ اثنى عشر دولاراً، ويرجون أن تقبلوها منهم.

وبكى الإخوة وقالوا: الإخوة فى البوسنة يهمّهم أمر إخوانهم في فلسطين، ولم يشغلهم ما هم فيه من مصائب ومآسٍ؟! هذا هو شأن المسلم، لا يُشغل بأمره الخاص عن أمر إخوانه.

ولهذا قال الإخوة: اجمعوا كل ما تستطيعون لنردّ الهدية بهديّة مثلها. كان النبى عليه الصلاة والسلام يقبل الهديّة ويكافىء عليها، فلنكافىء إخواننا على هديّتهم. فجمعوا كلّ ما يستطيعون جمعه، ممّا معهم وممّا حولهم، حتى جمعوا (اثنى عشر ألف دولار)، وقالوا: هذه هديّتنا إلى إخوتنا.

هذه هى الروح الإسلاميّة أيّها الإخوة.

الإسلام بخير، مهما حدث ما حدث يستطيع المسلمون أن يفعلوا الكثير.

سألنى بعض الإخوة عمّا كتبه الأستاذ (فهمى هويدى) فى صحيفة (الشرق) وفى (الأهرام) وفى غيرهما: أنّ إنقاذ البوسنة مقدّم على فريضة الحج. قلت له: لسنا فى حاجة إلى أن نوقف الفريضة، بل لو أنّ الذين يحجون متطوّعين تبرّعوا بقيمة حجّ التطوّع، لجمعنا المليارات.

المليونان اللذان حجّا هذا العام، فى العادة لا يوجد أكثر من ثمنهم أو سبعهم يحجون للمرّة الأولى، ومعظم الحجاج دائماً ممّن حجّوا مرتين وثلاثاً وعشراً وعشرين وأربعين، أعرف أناساً حجّوا أكثر من أربعين مرّة.

هؤلاء الذين يحجّون حجّ التطوّع لو أنهّم بذلوا نفقة هذا الحج لله عزّ وجلّ، وأعانوا إخوانهم، لكان هذا أفضل مرّات ومرّات من حجّ التطوّع.

وفى رمضان، قالوا: كان هناك فى ليلة السابع والعشرين نحو مليونين فى الحرم الشريف. فلو أنّ هؤلاء دفعوا نفقة هذه العمرة – وهى عمرة تطوّع – ولو أنّ المسلمين دفعوا زكاة الفطر هذا العام لمساعدة الإخوة فى البوسنة – ومعظم المسلمين فى العالم يؤدّون زكاة الفطر – لاستطاعوا أن يفعلوا الكثير، وأن يجمعوا الكثير.

ولكن من الذى يقول فيسمع له؟ من ينادى المسلمين؟

كانت لنا قديماً خلافة، يستطيع الخليفة أن يقول: يا أيّها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، ابذلوا لإخوانكم فى فلسطين، أو فى البوسنة والهرسك، فيستجيب الناس للخليفة، ويطيعون أولى الأمر منهم.

نصارى الكاثوليك لهم بابا فى الفاتيكان، والنصارى البروتستانت لهم مجلس الكنائس العالمى، والأقباط الأرثوذكس لهم بطريرك أو بابا فى مصر، وهكذا، كلّ جماعة لهم قيادة دينيّة إلاّ المسلمين.

كان قديما هناك من يُسمّى (شيخ الإسلام)، يستطيع أن ينادى المسلمين فيستجيب النّاس له. ولكن هذا لا يوجد الآن، لأن العلماء أصبحوا فى ركاب الساسة، أفسدتهم السياسة، فلم تعد الشعوب تثق بعلمائها، ويقولون: العلماء فى كل بلد تبع للسلطة الحاكمة، ولذلك العلماء فى البلاد الاشتراكيّة كانوا يؤيّدون الاشتراكيّة، وفى البلاد غير الاشتراكيّة يهاجمون الاشتراكيّة، وهكذا.

المسلمون إلى خير، ولكن الضعف فى القيادة، كما قال محب الدين الخطيب رحمه الله من قديم.

نحن فى حاجة إلى قيادة، وفى حاجة إلى وعى.. إلى عقل يفهم الإسلام، ويفهم الحياة، ويفقه سنن الله تعالى، وإلى قلب يؤمن بالإسلام ويحب الله ورسوله، وإلى إرادة تنفذ أحكام الإسلام وتلتزم به.

لقد وجدنا من الناس من ينكر إرسال قيمة الأضحية إلى الإخوة فى البلاد التى تموت من الجوع، ويقول: لا يجوز نقل الأضحية، وهناك من يقول: لا يجوز نقل زكاة المال، ومن يقول: لا يجوز نقل زكاة الفطر! هؤلاء يريدون أن يختصروا دار الإسلام فى مدينة، وأن يختصروا أمّة الإسلام فى قبيلة، وأن يكرّسوا هذه التجزئة التى ما أنزل الله بها من سلطان.

الإسلام أمّة واحدة، والمسلمون أمّة، هكذا سمّاهم الله، وليسوا أمماً. وأوطان الإسلام دار اسمها (دار الإسلام)، والمسلمون يسعى بذمتّهم أدناهم،

وهم يد على من سواهم، «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه..»[1]
أى: لا يخذله ولا يتركه يواجه المصائب وحده، فكيف يقال هذا؟

ما الذى جرى لهذه الأمّة حتى وجدنا مثل هذه الأقوال العجيبة والغريبة التى تصدر ما بين الحين والحين؟

الأمّة الإسلاميّة أمّة واحدة، وينبغى لكلّ واحد منها أن يهتمّ بأمر إخوانه.

اهتم بإخوانك فى شدّتهم حتى يهتموّا بك فى شدّتك. لا معنى للإيمان إذا عشت وحدك، إذا قلت: أنا وليخرب العالم.. أنا ولتنهدّ الدنيا!

أين الإسلام إذن؟ أين الأخوةّ؟ أين الرابطة التى تربطك بأخيك؟ ليس هناك رابطة أقوى من العقيدة، وليس هناك عقيدة أقوى من الإسلام.

يا أيّها الإخوة:

إنّها آلام ودموع وزفرات ونفثات لا يستطيع الإنسان أن يكتمها فى نفسه، لا بدّ أن ننفّس، لا بدّ للمصدور من نفثة، لا بّد للمكلوم من زفرة، لا بدّ للمتألّم من دمعة. فهذه دمعاتنا، وهذه نفثاتنا، ولا نملك إلاّ أن نقول: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

أقول قولى هذا، وأستغفر الله تعالى لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم.

● **الخطبة الثانية:**

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة:

نسيت أن أضيف إلى كتاب الذلّ صفحة، لا بدّ أن نضيفها إلى هذا

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٤٧ برقم ١٣٨٦، ٢/٧٠٣ برقم ١٥٦٩).

الكتاب الأسود، وهى صفحة أولئك الذين ذهبوا يحجّون إلى بيت المقدس.. إلى المسجد الأقصى !!

لقد سألنى مندوب صحيفة (الشرق) عن هذه المأساة، فقلت له: أى حجّ؟ هل يعرف المسلمون حجّاً غير بيت الله الحرام؟ إنّ الحج المفروض على هذه الأمّة هو حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا [1].

الذين يسمّون زيارة بيت المقدس حجّاً هم النصارى، أمّا نحن فحجنا إلى بيت الله.

المسجد الأقصى عندنا أحد المساجد الثلاثة التى لا تُشدّ الرحال إلاّ إليها[2] وزيارته ليست فرضاً، هى سنّة.. أمر مستحب.

ولكن إنّما تُستحب زيارة المسجد الأقصى حينما نكون نحن سادته، أمّا أن نذهب إليه تحت أسنّة رماح بنى صهيون، وبتأشيرة من إسرائيل، ونزوره تحت العلم الإسرائيلى الخفّاق، ويستقبلنا الإسرائيليون ليجلسونا فى أفخم الفنادق، فهذه ليست زيارة للمسجد الأقصى، هذا هو الذلّ الذى نأباه.

نحن فى زمان الذلّ العربى الإسلامى، ذللنا حتى أصبحنا نذهب إلى بيت المقدس تحت الحماية الصهيونيّة الإسرائيليّة.

---

(1) كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت» رواه البخارى ومسلم وغيرهما، عن غير واحد من الصحابة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/١٦٧ - ١٦٨ برقم ١٨٣).

(2) قال ﷺ: «لا تُشدّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى» رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنّسائى وابن ماجة عن أبى هريرة، ورواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة عن أبى سعيد، ورواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص (فيض القدير للمناوى: ٦/٤٠٣ برقم ٩٨٠٢).

ليس المطلوب منها أن نذهب إلى المسجد الأقصى لنصلّى فيه، بل المطلوب منّا أن نقود الجهاد لنحرر المسجد الأقصى، وأن نصنع ما صنع صلاح الدين من قبل، حين حرّر المسجد الأقصى بعد أن ظلّ تسعين عاماً فى يد الصليبيّين.

نحن فى حاجة إلى (صلاح) من جديد، نحن فى حاجة إلى (قطز) من جديد، نحن فى حاجة إلى أبطال من جديد، يرفضون الهوان، ويستعصون على الذلّ والانحناء.، ويقولون لإسرائيل ومَنْ وراء إسرائيل: لا، إمّا أن نعيش أعزّاء، وإمّا أن نموت شهداء، ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** ﴾ [التوبة: ٥٢].

ما معنى زيارة المسجد الأقصى وإسرائيل هى التى تتحكّم فيه، تُدخل من تشاء وتخرج من تشاء، وتبقى من تشاء وتطرد من تشاء؟! أهذا الذى يسعى إليه المسلم؟! كان الملك فيصل بن عبد العزيز – رحمه الله – يتمنّى أن يطيل الله عمره حتى يصلّى فى المسجد الأقصى، كانت هذه أمنية حياته، وكان صادقاً، ولذلك تآمر عليه المتآمرون حتى قتلوه. ولكنّه كان يريد أن يصلّى فى المسجد الأقصى (الحرّ)، وليس المسجد الأقصى تحت صهيون.

أمّا الذين يصلّون فى المسجد الأقصى فى حراسة الصهاينة، فهذا أمر ميسور لكل من أراده، وقد فعلها من فعلها.

ما الذى حدث لهذه الأمّة؟

هذا زمان الذلّ العربى الإسلامى، أصبحنا نترضّى إسرائيل، أصبح هناك من يقول: تعالوا أيّها اليهود إلى مواطنكم القديمة، وخذوا أملاككم واستردّوا التعويضات. وأصبح هناك من يريد أن يزور إسرائيل، وأن يتقرّب من بنى إسرائيل!!

أين الثوريّة؟ أين جبهة الصمود والتصدّى؟ أين الكلام الكثير الكبير؟ أين هذا كلّه؟

لقد ضاع وضعنا معه، ولم يبق إلاّ هؤلاء الفتية، فتية (حماس) وفتية (الجهاد)، فتية (ثورة المساجد)، الذين يقاتلون فى سبيل الله حتى ينصرهم الله عز وجلّ. قد تكون المسألة أكبر منهم، وقد تكون إمكانات العدوّ أعظم وأخطر، ولكتنا مطالبون أن نُعدّ ما استطعنا من قوّة، وأن نترك الباقى على الله عزّ وجلّ: ﴿ .. كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿ .. وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢].

اللهمّ أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دينيانا التى فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شر.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر.

اللهم كُن لنا ولا تكن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا.

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين.

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

١٩ - لمــاذا لا يستجيب الله دعاءنا ؟

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيّا أيّها الإخوة المسلمون :

سألنى أحد الإخوة سؤالاً. قال: اجتمع فى صعيد عرفات وفى الأراضى المقدسة أكثر من مليونين من الحجاج، ذهبوا إلى تلك البلاد متطهرين، وطافوا بيت الله عاكفين ومتعبدين، وهرولوا بين الصفا والمروة قانتين ذاكرين، ووقفوا فى عرفات ملبين خاشعين، داعين محرمين، متجردين من زينة الدنيا وزخرفها. هؤلاء جميها دعوا الله تبارك وتعالى أن ينصر الحق على الباطل، وأن ينصر الإسلام على الكائدين له، وأن ينصر المسلمين على عدوهم، وأن يرد كيد الكافرين فى نحورهم، ويعيد سهامهم المسمومة إلى صدورهم، وأن يخرج أمّة الإسلام من محنتها، ويكشف عنها غمتها، ويفرّج كربتها.

وشارك مع هؤلاء الحجاج والمعتمرين من الطائفين والساعين والواقفين ملايين من المسلمين فى أنحاء الأرض، صاموا يوم عرفة، وابتهلوا إلى الله عزّ وجل ضارعين أن يؤيدّ الإسلام ويعزّ المسلمين.

هذه الدعوات التى صعدت إلى الله تبارك وتعالى خاشعة ضارعة لماذا لم يّستجب لها، فى مثل هذا المكان وهذا الزمان؟ المكان مكان مقدّس، والزمان زمان مبارك، والقلوب قلوب خاشعة، والألسنة ألسنة طاهرة، فلماذا لم يستجب الله تعالى هذه الدعوات؟ لماذا لا تزال الأمّة تحت الحصار؟ لماذا لا تزال تضرب من يمين ويسار؟ لماذا يظلّ أعداؤها يتحكمون فيها تحكم السادة فى العبيد؟ لماذا تتلقى الأمّة الضربات من هنا وهناك؟ أليست هذه الأمّة هى القائمة على الدين الحق، الشهيدة على الناس؟ أليست هذه الدعوات صادرة من قلوب مخلصة؟

هكذا سألنى أحد الإخوة، وهكذا كان السؤال، فهل لهذا من جواب؟ والجواب أيها الإخوة :

أنّ استجابة الدعاء لها شروط، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: استجابة

الدعاء لها مدى معلوم، ووقت محدّد، يجيب الله تعالى فيه الداعى فى الوقت الذى يريد وبالكيفية التى يريدها.

للدعاء شروط. فيا تُرى هل نفّذنا شروط الدعاء؟

الدعاء وأنت فى المعركة:

١ - إن من شروط الدعاء على الأعداء: أن تدعو الله وأنت تواجه الأعداء، أن تدعو الله وأنت فى الميدان، لا تتخلّى عن الجهاد، ولا تتخلّى عن البذل والتضحية.

هكذا دعا المسلمون يوم بدر حينما واجهوا المشركين، وكانوا أقلّ عدداً وأضعف عدّة، وأضأل استعدادا. كان المشركون حوالى الألف، وكان المسلمون ثلاثمائة يزيدون قليلاً. كان مع المشركين مائة فرس، والمسلمون لم يكن معهم إلاّ فَرَسان. المشركون خرجوا للحرب، والمسلمون خرجوا للقاء القافلة.. للقاء العير.

ولكن حينما فُرض على المسلمين أن يواجهوا المعركة، استغاثوا بالله، ودعوا الله عز وجل، رفعوا أيديهم إلى السماء: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ [الأنفال:٩]. استغاثوا بالله فأغاثهم، أغاث لهفتهم وأجاب دعوتهم، لأنهّم دعوا وهم مستعدون للمعركة.

النبى ﷺ كان يدعو الله ويلحّ عليه فى الدعاء، ويقول: «اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتنى، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض. فما زال يهتف بربه مادّاً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثمّ التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنّه سينجز لك ما وعدك» [1].

هذا هو الدعاء، الدعاء فى قلب المعركة.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عمر رضى الله عنه. انظر (صحيح مسلم بشرح النووى: ١٢/ ٨٤ - ٨٥، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر).

يحدثنا القرآن عن أصحاب طالوت وكانوا قلّة، كانوا في عدد أهل بدر - ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا - وحينما رأوا جنود جالوت وهم أكثر عدداً وأقوى عدّة، قالوا أو قال الكثيرون منهم: ﴿ **لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ** [من أهل الإيمان] **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** [أصبحوا وجهاً لوجهه وصفّاً لصف] **قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** [هكذا دعوا وهم في قلب المعركة وفي أتون المعركة، فماذا كانت النتيجة؟] **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** ﴾. [البقرة: ٢٤٩ - ٢٥١]

المشكل أنّنا ندعو الله ونحن بعيدون عن المعركة، ندعو الله أن ينصر الإسلام وأن يعزّ المسلمين ونحن قعود على جنوبنا، ولا نريد أن نبذل أنفسا ولا أموالاً، ولا نضحي بغالٍ ولا رخيص، وما هكذا يستجاب الدعاء.

إنّما يستجيب الله الدعاء من قوم بذلوا ما يستطيعون، وتركوا لله ما لا يستطيعون. الله هو الذي يكمّل النقص ويسدّ الثغرات، لأنّ النّصر من عنده.

كان المسلمون في بدر قليلاً، فكثّرهم الله بالملائكة: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** ﴾ [الأنفال: ١٢]. الملائكة نزلت في بدر، والملائكة نزلت في الخندق، والملائكة نزلت في حنين، ولو أراد الله أن ينزل علينا الملائكة اليوم لأنزلها، ولكن الملائكة لا تتنزّل في فراغ. إنما تتنزّل على قوم مؤمنين مجاهدين باذلين مضحّين ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ لابدّ أن يوجد الذين آمنوا في الأرض، حتى تتنزّل عليهم الملائكة من السماء، بشرى من الله لهم وتثبيتاً من الله لهم.

لابدّ لكى يُستجاب الدعاء أن تكون فى قلب المعركة.

وصل الخط مع الله:

٢- ولابدّ لكى يستجاب الدعاء أن تكون الخطوط موصولة بيننا وبين الله تبارك وتعالى. إذا كان الخط مقطوعاً وظللت تستنجد بشرطة النجدة أو بشرطة الإطفاء أو برجال الإسعاف، فلن يستجيب لك أحد. الخطّ مقطوع بينك وبينهم، مهما حاولت أن تتكلم وتصرخ ومهما رفعت صوتك وجهرت بقولك، فلن يسمعك أحد.

صل الخط بينك وبين من تنادى يسمعك، صل الخط بينك وبين الله يستجب لك.

نحن قطعنا الخطوط ما بيننا وبين ربنا: بما نفعل من معاصى.. بما نرتكب من موبقات.. بإعراضنا عن شرع الله وحكمه.. بارتكابنا لأشياء مما حرّم الله عزّ وجلّ.. بتهاوننا فى فرائض الله.. بتركنا للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

ولذلك ندعو فلا يُستجاب لنا.

فى الحديث: «لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، «أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم» (١).

لابدّ أن نطهّر مجتمعاتنا من المآثم.. من الجرائم.. من المنكرات، حتى تكون مجتمعات مسلمة بحق.

الله تعالى يقول: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [لا ينصر الله إلا من ينصره، فمن هم الذين ينصرون الله؟] **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]. هؤلاء الذين يستحقون نصر الله.

---

(١) قال الزين العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه البزار من حديث عمر بن الخطاب والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة وكلاهما ضعيف، وللترمذى من حديث حذيفة نحوه إلاّ أنه قال: «أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» قال هذا حديث حسن (٢/٣٠٨).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد :٧].

وإذا نصركم الله فلن تُخذلوا ولن تُغلبوا، من استنصر بالله فلن يغلب، من اعتز بالله فلن يذلّ، من استكثر بالله فلن يقلّ، من استغنى بالله فلن يفتقر، من استقوى بالله فلن يضعف أبدا: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران ١٦٠].

لابدّ أن تكون الخطوط موصولة بالله عزّ وجلّ.

الإخلاص وصدق العبودية لله:

٣ – وأول ما يصل الخطوط بيننا وبين الله هو: إخلاص النيّة، وإخلاص العمل لله. أن نجرّد القلوب لله، أن نطهرها من حبّ الدنيا، وحبّ الذات، أن نعلّقها بالآخرة، وبالله تبارك وتعالى.

إذا ظللنا نركض وراء الدنيا عبيداً لها، نسعى وراء متاعها، نركض خلف شهواتها، فلن يستجيب الله لنا.

لابدّ أن نكون عبيداً لله، خالصين لله، الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]. انظر إلى قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ﴾ هذه الإضافة لها معنى. لابدّ أن تكون عبداً لله.. أن تشعر بالعبودية لله وحده.

أمّا إذا كنت عبداً للشيطان.. عبداً للدنيا.. عبداً للدينار، والدرهم.. عبداً للكاس والطاس.. عبداً للمرأة وللغريزة، إذا كنت عبداً لأى شئ من ذلك فلن يستجيب الله دعاءك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾: هو أقرب ما يكون إلى عباده، أقرب إليهم من حبل الوريد، أقرب إدليهم من آبائهم وأمهّاتهم، أقرب إليهم من أنفسهم لو كانوا يعلمون، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل: «فقل إني قريب»، كأنه يقول: إنّه لا حاجة إلى واسطة بيني وبين عبادي إذا

دعوا فإنّي قريب منهم، أنا معهم حيثما كانوا، ولم يقل: هم: أقرباء منّي.

ولذلك قال النبي ﷺ للصحابة وقد جهروا بالدعاء يوماً: «أربعوا على أنفسكم، اشفقوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعا قريباً، وهو معكم» (١) «والذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم» (٢).

جاء في بعض الأحاديث: «لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال» (٣). إنّ الله لا يعجزه شئ، ولا يَبْعُد على قدرته شئ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

المشركون فى ساعة الشدّة يدعون الله عز وجلّ، فيستجيب الله لهم، لماذا؟ لأنهّم يدعون مخلصين له الدين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ [فى هذه الحالة والموت يطاردهم، والهلاك من يمينهم ويسارهم] دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢].

المهمّ أنّه فى ساعة الشدّة.. فى ساعة الأزمة، حينما تبلغ الأزمة ذروتها،

---

(١) قطعة من حديث أبى موسى الأشعرى المتفق على صحته (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٥/ ٦٦ برقم ١٢٨٣).

(٢) هذه الزيادة لمسلم في صحيحه، عن أبي عثمان عن أبى موسى. انظر (صحيح مسلم بشرح النووى: ١٧ / ٢٧، كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفق الصوت بالذكر).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى عن معاذ بن جبل، وأوّله: (لو خفتم الله تعالى حق خيفته لعلمتم العلم الذى لا جهل معه...» ورمز له السيوطى بعلامة الضعف (فيض القدير للمناوى: ٥/ ٣١٩ برقم ٧٤٤٨).

ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بلفظ: «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال» وضعفه الزين العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٤/ ٩٧).

يتجرد الإنسان من كلّ الآلهة الزائفة، لا ينادى: هبل ولا مناة ولا اللاّت ولا العزّى، ولكن يقول: ياربّ ، يقولها من أعماقه.. من سويداء قلبه، مخلصاً لله الدين.

وما دام قد أخلص الدين لله، وعاد إلى الفطرة، أى : إلى التوحيد الخالص ودعاه دعاء المضطر المغلوب، فأن الله يستجيب دعاءه، وينجيه من الكرب.

من المهمّ جداً أن ندعو الله مخلصين له الدين حتى يستجيب لنا.

لابدّ أنّ فى دعائنا خللاً، لم تتمحّض النيّة لله، لم يكن الدعاء خالصاً — كما ينبغى — لله رب العالمين، شابته الشوائب وكدّرته الكدورات.

التطهر من الحرام:

٤ — ومن ناحية أخرى، فإنّ من شروط استجابة الدعاء: أن تكون متطهراً من الحرام فى مأكلك ومشربك وملبسك ومعيشتك. أن تعيش على الحلال وتتعفّف عن الحرام.

إما إذا كنت تأكل الحرام، وتشرب الحرام، وتلبس الحرام وتتغذّى بالحرام، فهيهات أن يستجيب الله لك. لقد جاء هذا فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة (١): «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين [أمر الجميع بأكل الطيبات] فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾ [المؤمنون:٥١]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثمّ ذكر [أى: النبى ﷺ] الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يديه إلى السماء: ياربّ ياربّ ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذّى بالحرام [جسمه تغذى على الحرام ونبت من حرام]. فأنى يُستجاب لذلك؟» . عيشه حرام فى حرام، وهو

(١) رواه عنه أيضا الإمام الترمذى وهو من أحاديث الأربعين النوويّة، انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ / ٥٠٢ — ٥٠٣، برقم ٩٥٧).

يطيل السفر، والسفر من مظنّة الاستجابة، خصوصاً مع الشعث والغبرة، ولعله فى سفر حجّ أو عمرةّ أو طلب رزق أو طلب علم.

مع هذا السفر، ومع أنّه أشعث أغبر، ومع أنّه يرفع يديه إلى السماء، ومع قوله يارب يارب، ومع تكرار الدعاء والإلحاح على الله وهذا كله من مرشحّات الاستجابة للدعاء، مع هذا كلّه يقول النبى ﷺ: « فأنّى يُستجاب لذلك؟ » هيهات أن يُستجاب.

ولذلك لما سأل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه النبى ﷺ وقال: يا رسول الله ادع الله لى أن يجعلنى مستجاب الدعوة. فقال له: أطب طعمتك تُستجب دعوتك » [1]، يعنى: اجعل طعامك ومعيشتك من حلال طيب قبل كل شئ، تكن مستجاب الدعوة.

هؤلاء الذين يدعون الله: كم منهم من يعيش على الحلال الصّرف، لا يأكل الحرام، لا يأكل الفوائد الربويّة، لا يتعامل بمعاملات محظورة، لا يطمع فى حقوق الآخرين، لا يظلم عماله ولا موظفيه، لا يأكل عرق أجير، لا يأخذ مالا بغير حق؟ كم من الناس طهر رزقه.. طهّر دخله من كلّ حرام أو شبهة حرام؟ « فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.. » [2].

لكى يستجب الله دعاءنا لابدّ أن نصل ما بيننا وبين ربنا: بتحرى الحلال والبعد عن الحرام، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بإخلاص النيّة لله تبارك وتعالى، بالوقوف عند أمر الله ونهيه بأن نكون كما أراد الله لنا « مخلصين له الدين »، ندعوه رغبا ورهباً كما وصف الله عباده الصالحين وأنبياءه الصادقين:

---

(١) قال العلامة العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه (٢ / ٨٩) ط دار المعرفة بيروت.

(٢) قطعة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما، الذى رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود وابن ماجة. وهو من أحاديث الأربعين النووية. انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب ٢ / ٥٠٦ برقم ٩٦٦).

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، رغباً فيما عند الله ورهباً ممّا عند الله، رغباً فى الجنة ورهباً من النّار، رغباً فى مثوبة الله وفضله ورهباً من عقوبة الله وعدله.

نحن فى حاجة إلى تطهير هذه القلوب ووصلها بالله عزّ وجل، حتى إذا دعونا الله دعونا بحرارة وحرقة،جازمين بدعائنا، ، موقنين بالإجابة، كما قال النبى ﷺ: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت، ليعزم مسألته، فإنه لا مكره له» (١).

ينبغى أن ندعو الله مخلصين له الدين وأن نكون مسلمين حقا، ذوى قلوب حيّة لا قلوب ميتة.

ذهب إبراهيم بن أدهم إلى سوق البصرة، فاجتمع عليه الناس وقالوا له: يا أبا إسحاق، ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال لهم: لأنّ قلوبكم قد ماتت بعدّة أشياء: أوّلها: أنّكم عرفتم الله ولم تؤدوا حقه، وثانيها: أنّكم زعمتم أنّكم تحبون رسول الله وتركتم سنته، وثالثها: أنّكم زعمتم أنّ الموت حقّ ولم تستعدوا له، رابعها: آمنتم أنّ الجنة حق ولم تستعدوّا لها، وخامسها: أيقنتم أن النار حق ولم تهربوا منها، سادسها: أنكم قمتم من نومكم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم، وأنكم.. وأنّكم.

قلوبكم ماتت، والقلوب الميتة لا يستجاب دعاؤها، إنّما يستجيب الله الدعاء من قلب حى، ولا يستجيب الله الدعاء من قلب غافل أو قلب ميت.

دعاء المكروب:

التقم يونس الحوتُ حينما خرج من قومه مغاضبا لهم، لم يصبر عليهم وتركهم، فعاقبه الله بأن ركب فى السفينة، وكان العدد فيها أكثر ممّا ينبغى، وفى وسط البحر قالوا: لابدّ أن نلقى بعض الركّاب من السفينة، عملوا قرعة فخرج

---

(١) متفق على صحته، من حديث أبى هريرة ومن حديث أنس رضى الله عنهما. انظر: (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١٧١٥، ١٧١٦).

السهم عليه، أعادوا القرعة مرة ومرة، وفى كل مرة يجئ السهم عليه ، رموه فى البحر، فالتقمه حوت ضخم.. حوت كبير، وكان المفروض أن يصبح هذا الحوت قبراً له، ولكنّه نادى فى الظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت: ﴿ **أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء:٨٧] .

بهذه الكلمات الموجزة نادى ذو النّون - أى: صاحب الحوت - ربّه، كلمات تتضمّن: ١ - التوحيد: (لا إله إلاّ أنت).

٢ - والتنزيه: (سبحانك) أنّزهك عن الظلم، أنت لم تظلمنى، أنا الذى ظلمت نفسى.

٣ - والاعتراف: (إنّى كنت من الظالمين).

فنجاه الله من الغمّ، وأخرجه من الكرب، ولفظه الحوت على الشاطئ نتيجة هذا الدعاء الخالص: ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الأنبياء:٨٨] إذا وقعوا فى مثل ما وقع فيه يونس، ودعوا الله بمثل دعائه.. بحرارة وإخلاص وأمل. ولذلك يقول النبى ﷺ « دعوة ذى النّون إذ دعا وهو فى بطن الحوت: (لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّى كنت من الظالمين)، فإنّه لم يَدْعُ بها رجل مسلم فى شئ قط إلاّ استجاب الله له»، وفى رواية: فقال رجل يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصّة أم للمؤمنين عامّة؟ فقال رسول الله ﷺ: ألا تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [١].

يا أيها الإخوة:

نحن ندعو الله كثيراً ولكنّا فى حاجة إلى أن نحقق شروط الدعاء، حتى

---

(١) الحديث رواه الترمذى (واللفظ له) والنّسائى، والحاكم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبى، وذكره ابن كثير فى تفسيره وعزاه للمسند، وصحح شاكر إسناده، أمّا الزيادة فهى للحاكم فى رواية له (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٦ برقم ٩٢٢، ٢/ ٥٢٩ - ٥٣٠ برقم ١٠٤١).

يستجيب الله تعالى لنا، وهو يستجيب لنا فى الوقت الذى يشاء، وبالكيفيّة التى يشاء.

الاستمرار فى الدعاء:

نحن لا نعرف متى يستجيب الله لنا، المهمّ أن نستمر فى الدعاء، وأن نلح على الله عزّ وجلّ ولا نيأس، ولا نستعجل، النبى ﷺ يقول: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوت فلم يستجب لى»[1]. وفى رواية: قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، فلم أر يستجيب لى، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»[2] يملّ ويترك الدعاء.

ألّح على الله باستمرار، لا تيأس من روح الله: ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [يوسف: ٨٧]. الدعاء مطلوب لأنه عبادة، كماقال النبى ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[3] ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** [أى: دعائى، فوضع كلمة العبادة موضع الدعاء] **سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر: ٦٠].

كيف يستجاب الدعاء:

ومن ناحية أخرى لا ندرى كيف يستجيب الله لنا ؟ وفى الحديث الذى رواه

---

(١) رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، عن أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٧ برقم ٩٢٦).

(٢) رواه مسلم، والترمذى وانظر تعليق الشيخ القرضاوى عليه فى كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٧ برقم ٩٢٦).

(٣) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما، الذى رواه أبو داود، والترمذى واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه النسائى، وابن ماجة، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٤٧٢ برقم ٩١٣).

أبو سعيد الخدرى: « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن يعجّل له دعوته[يحقق له أمنيته وطلبته عاجلا] وإمّا أن يدّخرها له فى الآخرة [مثوبة عند الله عزّ وجلّ] وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » [يكفّ عنه بلاء كان سيحلّ به] فقال الصحابة: إذن نُكْثر [ما دامت المسألة رابحةً رابحةً إذن نكثر من الدعاء] قال: « الله أكثر »[1]، أى ما عند الله أكثر مما تسألون، وفى الحديث القدسى: « ... يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد فسألونى، فأعطيت كل إنسان منهم مسألته، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر... »[2] المخْيطَ هو ما يُخاط به الثوب كالإبرة، فإذا وضعتها فى الخليج أو فى المحيط ماذا تنقص منه؟ لا تنقص منه شيئاً.

لندعو الله أيّها الإخوة، لنستمر فى الدعاء، ولنحاول أن نحقّق شروط الدعاء حتى يستجيب الله لنا، وينصرنا على عدّوه وعدوّنا، ويعز دينه، ويعلى كلمته، ويرفع رايته فى الأرض، وما ذلك على الله بعزيز. أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية:**

أمّا بعد فيا أيهّا الإخوة المسلمون:

فى هذا الأسبوع حدث حادثان كبيران فى عالم الغرب، كلا الحدثين يدلّ على أنّ للصهيونّية يداً طويلة، أصبحت هذه اليد تنال العالم كلّه، وتؤثّر فيه، تؤثّر على الصحافة وعلى الإعلام، وتؤثّر على المؤسّسات الأكاديميّة والتربويّة، وتؤثر على المؤسّسات القضائيّة والحكميّة.

---

(١) رواه أحمد، والبزار، وأبو يعلى، بأسانيد جيدة، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٤٧٣ برقم ٩١٦).

(٢) قطعة من حديث أبى ذر رضى الله عنه، الذى رواه مسلم فى صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب ١/٤٧١، ٤٧٥ برقم ٩١١).

في هذا الأسبوع حكم القضاء الأمريكي على الدكتور موسى أبو مرزوق رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) . حكم عليه بتسليمه لإسرائيل.. إعطائه لقمة سائغة لإسرائيل.. تقديمه هدية أو مكافأة لصاحب مجزرة قانا (بيريز).

(بيريز) الذي يجب أن يحاكم في محكمة عالمية، على مجزرته التي ارتكبها وقتل فيها من قتل، حتى دانته الأمم المتحدة نفسها. (بيريز) الذي فعل ما فعل، يكافأ بأن يُسلّم إليه رئيس المكتب السياسي لحماس.

ماذا جنى موسى أبو مرزوق؟

ما جنى موسى أبو مرزوق جناية ، ولا اجترم جريمة، إلاّ أنّه كان يجاهد جهاداً مشروعاً للدفاع عن وطنه الذي احتل وأرضه التي اغتصبت. وهذا حقّ مشروع لكلّ إنسان في كلّ دساتير العالم، ومواثيق حقوق الإنسان، تقرّ ذلك الأديان والمذاهب والفلسفات السماوية والأرضية، كلها تقرّ حق الإنسان في الدفاع عن وطنه.

وهو كان يجاهد بالكلمة.. بالعمل السياسي، لا بالعمل العسكري. ولكن إسرائيل استطاعت أن تؤثر في القضاء الأمريكي، الذي أصبح يتحيّز لإسرائيل، وكلّ شئ في أمريكا أصبح متحيزاً لإسرائيل في هذا العهد، حتى قالت صحف إسرائيل نفسها تصف الرئيس الأمريكي: إنّه أصبح كالولد الصغير المطيع لإسرائيل.

أين العالم الإسلامي ليحتج على هذا؟

أين أمّة العرب وأمّة الإسلام؟ هذا أمر لا يجوز أن يُسكت عليه.

هذا الحدث الأول في هذا الأسبوع.

وشئ آخر حدث أيضا قبله، وهو الحكم على المفكر الفرنسي المعروف

(روجيه جارودى) أو (رجاء جارودى)، الذى حكم عليه القضاء الفرنسى من أجل كتاب كتبه هو (الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل)، وهذا الكتاب نشره نشراً محدوداً فى دار لا توزّع منشوراتها على الجماهير، إنّما توزّع منشوراتها على المشتركين فيها.

حوكم رجاء جارودى وحُكم عليه بالسجن سنة، وتغريمه ثلاثمائة ألف (فرنك فرنسى).

ما هى جريمة جارودى؟

ليس له جريمة إلاّ أنّه قال الحقيقة أو بعض الحقيقة. قال: إنّ ما نشره اليهود عن المذابح التى أجريت عليهم قبل الحرب العالمية، وفى خلال الحرب العالمية، من أفران الغاز التى أهلكت ستة ملايين يهودى، ليس بصحيح. هذا رقم مُبالغٌ فيه جدا، لأنّ اليهود فى أوربا كلّها حسب احصاءات ذكرها فى كتابه، لم يبلغوا هذا المبلغ، وأنّ اليهود أنفسهم غيرّوا هذه الأرقام، كانوا يقولون أن أحد المعسكرات فى ألمانيا قتل فيه أربعة ملايين يهودى حرقاً، وظلّوا يقلّلون الرقم حتى أوصلوه إلى مليون.

وهناك أشياء كثيرة لا زالت ملفاّتها لم تفتح، من ملفّات الحرب العالمية الثانية، وحينما تفتح هذه الملفّات سيظهر أنّ هناك أكاذيب كثيرة، روّجها اليهود.

ثمّ يقول: وهب أنّ (هتلر) ظلم اليهود أو أحرقهم، ما ذنب الفسلطينيين حتى يدفعوا ثمن جريمة لم يرتكبوها، ويُخرجوا من ديارهم بغير حق، ويُشردوا من فلسطين؟ ما علاقة هذا بهذا؟ الرجل يقول الحقيقة ، وذكر أدلّة كثيرة فى كتابه، أدلّة علميّة ومنطقيّة، ومع هذا قامت الدنيا ضده ولم تقعد. فُتحت النار عليه من كل مكان، وانطلقت كلاب جهنّم تنهش فى لحمه وعظمه، وتشيع عنه الإشاعات، حتى وقّتوا فى هذا الوقت حملة عليه فى البلاد الإسلامية. تتهمه

بالردّة عن الإسلام، وهذا الرجل يقول: أنا ما ارتددت عن الإسلام، كلّ ما فعلته أنّي أدافع عن الإسلام وعن العرب وعن فلسطين، وما أنكرت السنة ويكفينا منه هذا.

وهب أنّه ارتدّ، أو هب أنّه لم يدخل فى الإسلام - كما قال الشيخ ابن باز حفظه الله - ليكن هو رجلاً حراً، رجلاً مفكراً، يقاوم أكاذيب الصهيونية، ويتكلم بالحقائق وبالأرقام وبالمنطق. فلما ذا يُصنع به هكذا؟ لماذا تُسلّط عليه أجهزة الإعلام، وتقول عنه ما تقول، ولا يُمكّن من حق الدفاع؟

أرسل ردّه على هؤلاء الذين كتبوا عنه، وقال: إنّ المشكل أنّ هؤلاء الذين هاجمونى لم يقرأوا ما كتبت، إنما هم مندفعون لعلّة أو لأخرى، ولسبب أو لآخر. دفعتهم الصهيونيّة أو دفعت لهم الصهيونية، لينشهوا عرض الرجل، ويقولوا فيه ما ليس بحق.

ثمّ إذا ردّ على تلك الكتب وأرسل إليها لم تنشر ردّه صحيفة واحدة. أين حقوق الإنسان؟ أين الحرية فى بلاد الحرية والنور والديمقراطية، إذا كان الإنسان لا يُمكّن من حق الدفاع عن نفسه؟! وهو حق مكفول فى العالم كلّه. من حقك أن ترد على من اتهمك، أو أساء إليك فى صحيفة، هذا حق اعترف به العالم.

ولكن إذا كان هذا الحق يمسّ الصهيونية أو يمسّ إسرائيل، فكلّ الحقوق مهدرة، وكلّ الحقوق غير معترف بها.

هذا هو الذى يجرى عليه العالم.

ترى هل أصبح العالم عالماً ظالماً؟ هل أصبح عالماً جائراً؟ هل أصبحت حرية الإنسان وحقوق الإنسان يُعمل بها إذا كانت ضدّ أهل الحق، ولكن إذا كانت فى مصلحة أهل الحق، فإنّ هذه الحقوق لا قيمة لها ولا وزن لها، ولا يعمل بها أحد؟ هاتان قضيتّان أثيرتا فى أسبوع واحد أيها الإخوة.

وهذا يدلّنا على أنّنا أمام عدو خبيث ماكر، أمام الصهيونيّة، العالّمية، التى أصبحت تؤثّر فى الإعلام، وتؤثّر فى القضاء، وتؤثّر فى كلّ نواحى الحياة، وخصوصا فى الغرب عامة، وفى أمريكا خاصة. وذلك بما تملك من مال، وبما تملك من دهاء، وبما تملك من وسائل، منها المقبول ومنها غير المقبول، منها المشروع ومنها غير المشروع، بل معظمها غير مشروع.

ولكن إسرائيل لا تتورع عن وسيلة ما، إسرائيل تصل إلى ما تريد بكلّ وسيلة، ولو كان ذلك (الدم)، ولو كان ذلك (القتل)، ولو كان ذلك (الاتهام بالباطل والكذب والافتراء).

إنّنا لن نستسلم، سنظلّ نقاوم ونقاوم، ونصبر ونصابر، ونرابط، ونحن منصورون إن شاء الله. النصر لنا، قد يتأخر قليلاً، ولكنه آت لاريب فيه. يقيننا بهذا يقين مطلق، لأن معنا وعد الله ووعد رسوله ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم:٤٧].

اللهم انصر دينك على الأباطيل، اللهم انصر المسلمين على أعدائهم.

اللهم ارفع راية الحق، اللهم ارفع راية الإيمان، اللهم أعل كلمة الإسلام.

اللهم اجعل كلمتك هى العليا، واجعل كلمة أعدائك هى السفلى.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

اللهم أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

اللهم اجمع كلمة هذه الأمّة على الهدى، وقلوبها على التقى، ونفوسها على المحبة، ونيّاتها على الجهاد فى سبيلك، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل. اللهم ول أمورنا خيارنا ولا تول أمورنا شرارنا، وأرفع مقتك وغضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنا سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام، اللهم

انصـرنا علـى أعـدائك أعـداء الإسـلام، اللهم انصـرنا علـى اليـهـود، وانصـرنا علـى الصـربيـيّن، وانصـرنا علـى الروس، وانصـرنا علـى الهنـدوس، وانصـرنا علـى جـمـيع أعدائك أعداء الإسلام، وأنزل عليهم بأسك الذى لا يردّ عن القوم المجرمين.

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٧].

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

* * *

٢٠ - الوقت فى حياة المسلم (١)

● **الخطبة الأولى:**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

هذه آخر جمعة فى هذا العام الهجرى: العام الثالث بعد الأربعمائة والألف من هجرة الرسول ﷺ.

وقفة لحساب النفس:

ومن واجب الإنسان المسلم أن يقف مع نفسه كلّما مرّ عام ليحاسبها على عام مضى، ماذا صنع فيه؟ ماذا قدّم فيه؟ ماذا هيّأ من زاد لآخرته؟ ماذا كسب وماذا خسر؟ كما يفعل التاجر الناجح على رأس كلّ عام: يجْرد دفاتره، ويراجع سجلاّته، ويعرف كم خسر وكم ربح؟ وفيم خسر وفيم ربح؟ وما أسباب الخسائر؟ وما أسباب الأرباح؟ وذلك ليتفادى أسباب الخسارة، وليزيد من أسباب الربح.

هذا فى أمر الدنيا.. فى ربح دنيوى، قد ينتفع به وقد لا ينتفع، وإذا انتفع به حيناً فقد لا يدوم النّفع له كثيراً، وإذا دام مدّة من الزمن فهو نفسه لا يدوم ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً* أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

لابدّ من وقفة، إن لم تكن كلّ يوم لمحاسبة النّفس فلتكن كلّ أسبوع، فإن لم تكن كلّ أسبوع فلتكن كلّ شهر، فإ ن لم تكن كلّ شهر فلتكن كلّ عام، يحاسب الإنسان نفسه فيه: ماذا فعل؟

جرت عادة النّاس كلّما مضى عام من حياتهم أن يحتفلوا بما يسّمى (عيد ميلادهم)، عادة غريبّة لها طقوس وتقاليد: طعام يؤكل، وشموع توقد ثمّ تطفأ.

---

(١) للشيخ القرضاوى - حفظه الله- كتاب بهذا العنوان، يدور الكلام فيه حول عناية القرآن والسنة بالوقت، وخصائصه، وتنظيمه والنظرة الصحيحة إلى الزمن (أمسه ويومه وغده).

وكان أولى بالإنسان العاقل بدل هذه البدع، وبدل هذه التقاليد المستوردة، أن يقف وقفة متأنية مع نفسه يحاسب نفسه : ماذا قدّم فى عام؟ وأن يبكى على نفسه. على تقصيره.. على تفريطه فى جنب الله، وفى حقّ نفسه وفى حقوق النّاس، ولكنّ النّاس لا يفعلون.

الوقت هو الحياة :

الوقت يمضى يوما بعد يوم، والوقت هو العمر، الوقت- كما قال رجل من أئّمة هذا العصر (الشيخ حسن البنّا) - هو الحياة.

الناس يقولون : الوقت من ذهب. ولكن ما الذهب؟ وما الفضة؟ وما الماس؟ وما الجوهر؟ كلّها مادّيّات، ولكن الوقت أغلى من هذه الجواهر الثمينة كلها، الوقت هو (الحياة).

ما هى (حياتك) أيها الإنسان؟ هى : الوقت الذى تقضيه من المهد إلى اللّحد، من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة، من صرخة الوضع إلى أنّة النّزع.

هذا الوقت هو (حياتك)، فإذا أضعت وقتك فقد أضعت حياتك. الذين يقولون : تعالوا نقتل وقتنا ! هؤلاء حين يقتلون أوقاتهم إنّما يقتلون أنفسهم، ولا يشعرون ، ينتحرون انتحاراً بطيئا.

جريمة تبديد الوقت :

أعظم الجرائم التى تُرتكب، هى الجرائم التى نرتكبها فى حقّ الوقت. أعظم الإسراف والتبديد، هو تبديد الأوقات، إنّه أعظم من تبديد الأموال.

نحن نرى أمّتنا تضيع أوقاتها سُدى، تذهب الأوقات والأعمار عبثا. قلّما تجد فى النّاس من يُنتج، قلّما تجد من يحسن عملا، فى الليل سهر وبطالة وكلام فارغ، وفى النّهار كلام فى أعراض النّاس، حتى النّاس فى أعمالهم ووظائفهم الرسمية لا يكادون يعملون.

أمتنا لا تعمل:

رأيت الناس فى أوربا وأمريكا يتعبون فى أعمالهم، يعانون ويعرقون من الصباح إلى المساء يوما كاملا، من فترتين، ويعودون إلى بيوتهم مكدودين ليقضوا بعض الوقت مع أسرهم وأولادهم. ولكنّ الناس فى بلادنا وحدها قلما يعملون، ولذلك يسهرون إلى ما بعد منتصف الليل، ويتسكّعون فى الشوارع هنا وهناك فى انحاء النهار لا يعملون حتى لدنياهم.

نحن لا ننتج، . نتكل على غيرنا فى استيراد أهم أمورنا، ومقوّمات حياتنا.. القوت الذى نتغذّى به نستورده من غيرنا، بلاد المسلمين والعرب بلاد زراعية، ومع هذا لا تكتفى بما عندها، لابدّ أن تمدّ يدها لتستورد القوت.. الحبوب والغذاء واللحوم والمصنوعات الكبيرة والثقيلة كلها نستوردها.

السلاح الذى ندافع به عن وجودنا لا نصنعه بل نستمده من غيرنا، لماذا؟ لأنّنا لا نعمل، . نحن أمّة لا تعمل ، تضيع أوقاتها سُدى، الفرد يضيع وقته، والأسرة يضيع وقتها، والنّاس يضيعّون أوقاتهم.

لكل وقت حق:

الوقت له قيمة عظيمة فى الإسلام، ولهذا أقسم الله تعالى به فى كتابه ، أقسم بأجزائه، أقسم بالفجر، وأقسم بالضحى، وأقسم بالعصر، وأقسم بالليل، وأقسم بالنهار، لماذا هذا القسم كلّه؟ إنّ الله إذا أقسم بشئ فإنّما يقسم به ليلفت أنظارنا إلى أهميتّه وإلى خطورته، حتى نتفكّر فى أجزاء الوقت كلّه: فجره وضحاه وعصره وليله ونهاره.

قسّم الله الفرائض والواجبات على الأوقات، حتى نشعر بكلّ جزء من أجزاء الوقت. إذا انكشف نقاب الليل الأسود عن وجه الصباح الأبيض قام مؤذّن يُؤذّن: الله أكبر الله أكبر.. حيّ على الصلاة.. حيّ على الفلاح.. الصلاة خير من النّوم، يُشعرنا بقيمة نهار جديد، وصبح جديد. فإذا قام قائم الظهيرة وزالت الشمس من كبد السماء، قام مؤذّن جديد يؤذّن للظهر، فإذا صار ظلّ كلّ شئ مثله أذّن

أذان العصر، فإذا غرب قرص الشمس كان المغرب، فإذا غاب الشفق الأحمر كانت العشاء.

كلّ هذا إشعار بأنّ لكل وقت حقّاً يجب أن يُؤدّى، يجب ألاّ يُهمل.

خطر التسويف:

الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، لأنّه يعمل فى عمرك، كما قال عمر ابن عبد العزيز: (إنّ الليل والنّهار يعملان فيك فاعمل فيهما). يعملان فيك: يقطعان فى عمرك، يُبليان كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد، ويقصرّان كلّ طويل.

فى كل صبيحة تصطبح بها تقترب من القبر خطوة، وتبتعد عن الميلاد خطوة، فأنت مولود لتموت.

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلّكمُ يصير إلى التراب

فها أنت فى كلّ يوم تعيشه إنّما تقطع جزءاً من عمرك، يقول الإمام الحسن البصرى: (يا ابن آدم، إنّما أنت أيّام مجتمعة كلما ذهب يوم ذهب بعضك) طُويت صفحة من كتابك، سقطت ورقة من شجرتك، انهدّ جدار من بنيانك.

وما المرء إلاّ راكب ظهر عمره على سفر يفنيه باليوم والشهر
يبيت ويُضحى كلّ يوم وليلة بعيداً عن الدنيا قريباً إلى القبر

الليل والنّهار يعملان فيك فاعمل فيهما، لا تؤخّر عمل الليل إلى النّهار، ولا عمل النّهار إلى الليل، ولا عمل اليوم إلى الغد.

ولا أؤخّر شغل اليوم عن كسل إلى غد، إنّ يوم العاجزين غد!

وما أكثر عجزنا نحن المسلمين الآن، حيث نؤخر ونسوّف فى أعمالنا.

وقد حذّر سلفنا من التسويف، وقالوا: (سوف) جند من جنود إبليس. لا تقل: سوف أتوب.. سوف أعمل. ما يدريك أنّك ستبقى إلى أن تعمل؟ هل ضمنت عمرك؟ هل ضمنت أنّك ستعيش؟ من كتب لك صكّاً أنّك حينما

تخرج من البيت ستعود إليه سالماً؟ من أعطاك عهداً على أنّك حينما تلبس ثوبك أنت الذى ستنزعه ولن تنزعه يد الغاسل؟ من ضمن لك ذلك؟

إنّ الناس في عصرنا كثيرا، ما يموتون فجأة بالذبحة أو بالسكتة أو بالحوادث، لعلّك تركب طائرة فتسقط بك، لعل إنساناً يدهمك وأنت تركب السيارة فيقتلك، ما أسرع الموت، وما أغفل الناس عنه!

تزوّد من التقوى فإنّك لا تدرى إذا جن ليل: هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سليم مات من غير علّة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يصبح ويمسى آمناً وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدرى

هل تذكرت هذا وأنت تودع عاماً وتستقبل عاما؟

على الإنسان المسلم أن يقف ليحاسب نفسه على عام مضى: ماذا قدّم فيه؟ العام اثنا عشر شهراً، الشهر ثلاثون يوما، اليوم أربع وعشرون ساعة، الساعة ستون دقيقة، الدقيقة ستون ثانية. كلّ هذا سيسألك الله عنه.

كم من نَفَسٍ يتردد؟ وكم من عرق ينبض؟ وكم من عين طرفت؟

وكم لله عليك من نعمة تغمرك من قرنك إلى قدمك في هذه اللحظات والثوانى والأنفاس؟ الله سائلك عنه.

المسلم ينشد الترقى:

كان بعض السلف يقول: من كان يومه كأمسه فهو مغبون، ومن كان يومه شرّاً من أمسه فهو ملعون!

من كان يومه كأمسه، لا يتقدّم ولا يترقّى، فهذا كان السلف يعتبرونه مغبوناً، كالتاجر الخائب الذى لا يربح، فهو محافظ على ما هو عليه فى تقدمه أو فى تأخره.

أمّا من كان يومه شراً من أمسه، فهو ملعون، والعياذ بالله. كان يصلّى حاضراً فأصبح يصلّى قضاء، كان يتنفّل فأصبح يقتصر على الفرائض، كان يترك المكروهات فأصبح لا يترك إلاّ المحرّمات ،كان يرتكب الصغائر فأصبح يرتكب الكبائر، وهكذا يتجه إلى الانحدار.

(من كان يومه كأمسه فهو مغبون، ومن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون)، والمسلم يسأل الله ألاّ يكون من الملعونين ولا من المغبونين، يحاول أن يرتقى بنفسه دائماً، يتطلّع إلى الأعلى، كما فى الحديث: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنّه أوسط الجنّة وأعلى الجنّة وفوقه عرش الرحمن»[1]، أسأل ربك أعلى المقامات. المسلم طموح دائماً إلى العُلا، لا يكتفى بأن يكون فى ذيل القافلة، وإنّما يحبّ أن يكون فى الطليعة.. فى مأخذ الزمام من القافلة، أن يكون فى الأمام هكذا الإنسان المؤمن.

إنّنا فى هذه الوقفة فى ختام العام يجب أن نتدارك ما فاتنا، أن نعرف قيمة الأوقات، وقيمة العمر الذى أنعم الله به علينا، فإنّنا سنُسأل عنه يوم القيامة، ففى الحديث الصحيح: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين أكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به»[2]. أربعة أسئلة رئيسيّة، اثنان منها يخصّان الوقت: سؤال عن العمر عامّة وعن الشباب خاصّة. والشباب هو مرحلة الحيويّة الدافقة، مرحلة الطاقة والقدرة على الإنتاج، مرحلة الأمل والعزيمة.

اغتنم خمساً قبل خمس:

ولذلك وعظ النبى ﷺ رجلاً فقال له: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[3].

«شبابك قبل هرمك»: أنت فى فترة الشباب قادر على الانتاج، قادر على

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة فى الجهاد (٢٧٩٠) وفى التوحيد (٧٤٢٣).

(٢) قال المنذرى: رواه البزّار، والطبرانى بإسناد صحيح، واللفظ له. وقال الهيثمى: رواه الطبرانى والبزار بنحوه ورجال الطبرانى رجال الصحيح، غير صامت بن معاذ، وعدى بن عدى الكندى، وهما ثقتان (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٩٢٩ برقم ٢٢٥٥).

(٣) رواه الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٨٦٨ - ٨٦٩ برقم ٢٠٨٩) و (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٤/٢٢٤ برقم ٤٠٢١).

العمل، قادر على الجهاد، قادر على أن تؤدى لدينك ودنياك، لنفسك ولأمتّك، فلا تضيع شبابك هدرا، لا تقتد بأولئك الفارغين اللاّهين، اقتد بشباب الأمّة فى الأزمنة الماضية، بعلى بن أبى طالب بمصعب بن عمير، بأسامة بن زيد، بمحمّد ابن القاسم بن محمد، بالقادة الفاتحين الذين قادوا الجيوش وملأوا الدنيا عملاً وديناً وهم فى العقد الثانى من عمرهم !

اغتنم شبابك قبل هرمك، إيّاك أن تضيع هذا الشباب فى الغفلة والمعصية، حاول أن تكون من السبعة الذين يظلّهم الله فى ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه - وذكر منهم - : «وشاب نشأ فى عبادة الله عزّ وجلّ»[1] ، ومثل هذا: شابّة نشأت فى عبادة الله عزّ وجلّ، فما ينطبق على الرجال ينطبق على النّساء.

فإذا كنت قد زلّت قدمك يوماً فوقعت فى المعصية فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، أسرع وبادر وقف على عتبة ربّك نادماً مستغفراً قائلا: ﴿ .. **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣]. فالله تعالى يحب التائبين، وحبّه للشاب التائب أشدّ، تُب إلى الله توبة نصوصا.

«وصحتك قبل سقمك» : أنت الآن صحيح البدن معافى، هذه العافية نعمة من نعم الله تعالى عليك، فلا تستغلّ عافيتك فى شرّ، ولا تضنّ بها عن خير، ولا تبخل بها عن طاعة. استغلّ هذه الصحة فى طاعة الله، فى عمل الخير وخير العمل. قدّم لآخرتك، قدّم لك رصيداً ينفعك عند الله، إذا كان الناس يحاولون أن يزيدوا رصيدهم فى البنوك من مال لا ينفع يوم يبحث الناس عمّا ينفع - ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] - فحاول أن تزيد رصيدك عند الله من الخير.. من الطاعة.. من بذل المعروف.

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه. انظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ /٢٨٧ برقم ٤٥٧) و (فيض القدير للمناوى: ٤ /٨٨ برقم ٤٦٤٥).

اغتنم صحتك قبل سقمك، قبل أن تُصاب بالسقم وبالأمراض، وما أكثر الأمراض المقعدة والمعوّقة والمعطّلة، فتقول: ليتنى فعلت أيّام الصحة، وليتنى فعلت أيّام الشباب، فها هى الفرصة أمامك.

«وغناك قبل فقرك»: إذا كنت متمكّناً من شيء الآن: مال.. جاه.. أو أىّ مقدرة فاعمل بها خيراً قبل أن تفتقر منها، وتخلو يداك منها. قد تكون اليوم صاحب مال وغداً لا مال لك، قد تكون صاحب منصب وغداً لا منصب لك، قد تكون صاحب عزوة وغداً لا عزوة لك.

«وفراغك قبل شغلك»: إذا وجدت عندك فراغاً فاستغلّه فيما يعود عليك وعلى دينك وعلى أمّتك بالخير. للأسف أنّ الكثيرين لا يشعرون بنعمة الفراغ، وقد قال النبى ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من النّاس: الصّحّة والفراغ»[1] الصحة والفراغ لا يعرف قيمتهما كثير من الناس، إذا كان عندك فراغ فلا تضيعه فى العبث كما يفعل الكثيرون.

ساعة وساعة:

ليس معنى هذا أنّنا نريد أن يظلّ الناس فى عبادة ليلاً ونهارا، لا يعملون لدنياهم ولا يروّحون عن أنفسهم، لا، لابدّ من (ساعة وساعة) كما قال النبى ﷺ لحنظلة.

ذهب الصحابى حنظلة الأنصارى إلى أهل بيته فداعبهم وضاحكهم، ثمّ تذكر ما كان عليه عند رسول الله ﷺ من رقّة القلب، ومن نزول الدمع، ومن خشية الله، فقال: نافق حنظلة، أنا عند رسول الله بحال وفى بيتى وبين أولادى بحال! وخرج فى الطريق يعدو وهو يقول: نافق حنظلة نافق حنظلة. حتى جاء النبى ﷺ وقال: نافق حنظلة يارسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وماذاك»؟ قال: يارسول الله نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه البخارى، وأحمد، والترمذى، والدارمى وابن ماجة (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١٤/ ٢٢٣ برقم ٤٠٢٠).

« والذى نفسى بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة » ثلاث مرات[1].

المشكلة أنّ بعض الناس يريدون أن يجعلوا ثلاثاً وعشرين ساعة لقلوبهم، ولا يدخرون إلاّ ساعة واحدة لربهم، وربما لا تكون لله تعالى خالصة. لا، لابدّ أن نقسّم ما بين حظوظ أنفسنا وحقّ ربنا علينا.

لا مانع من الترويح ولا مانع من الترفيه في حدود الحلال، وفى حدود تنظيم الوقت وتقسيمه. نحن لا ننظّم أوقاتنا ولا نقسّم أوقاتنا بين المهم وغير المهم، بين الواجب وأوجب الواجب، بين المندوب والمباح، لابدّ من تقسيم الوقت.

جدول المحاسبة :

كان بعض الصالحين فى عصرنا هذا يعمل لنفسه (جدول محاسبة) يحاسب فيه نفسه، وكلّ يوم يسأل نفسه، ويعطى نفسه علامة (درجة) كما يفعل المدرّس مع التلميذ : هل صليت الصلوات فى أوقاتها؟ هل أديتها فى جماعة؟ هل حضر فيها قلبك وخشعت فيها لربك؟ هل قرأت وردك من القرآن؟ هل انتفعت بقراءته؟ هل قدمت خيرا أو عونا لأحد الناس؟ هل أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر؟ هل شعرت بتقصير فاستغفرت الله؟ هل كذا. . هل كذا؟ هو يسأل نفسه ويجيب، وهكذا ينبغى أن يفعل الإنسان. أمّا أن تضيع الأوقات يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام، فهذا ما سيكون السؤال عنه عسيراً أمام الله يوم القيامة.

اغتنم حياتك قبل موتك :

« وحياتك قبل موتك » : اغتنم حياتك قبل أن يأتى وقت تقول : « رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت »، وهيهات هيهات! الناس لا يعرفون قيمة الوقت وقيمة العمر إلاّ ساعة الموت. حينما يأتى ملك الموت ليقبضك، هنالك

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

تتمنّى لو أجّلت يوماً أو نصف يوم، ساعة أو نصف ساعة، أو دقيقة، تسبحّ الله فيها، وهيهات هيهات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ولا لحظة واحدة، الأجل محدود (أوقات معدودة، وأنفاس محدودة) ، ولذلك تأهب من الآن قبل أن تقول هـذه القولة، ولا يُردّ عليك. انتهز الفرصة، وانتفع بوقتك.

قالوا: إنّ أكثر الناس غبطة لأهل المساجد هم أهل القبور، أهل القبور يقولون: من يعيدنا إلى المسجد نصلّى فيه ركعتين، أو نسبحّ لله فيه تسبيحة، أو نهلّل تهليلة، أو نكبرّ تكبيرة، وأهل المساجد لا يقدّرون قيمة ما هم فيه.

الوقت ثمين فاعرف قيمته، ومن قيمته أنّه إذا مضى لا يعود، كما قال الحسن البصرى: «ما من يوم ينشقّ فجره، إلاّ وينادى: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوّد منىّ، فإنّى إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة».

إذا مضى الوقت لا يعود، حاول أن تتدارك ما فات ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]. جعل الليل يخلف النهار والنهار يخلف الليل، فمن فاته عمل فى النّار حاول أن يتداركه فى الليل، ومن قصرّ فى الليل حاول أن يتدارك ذلك فى النّهار.

التوبة بابها نفتوح ﴿ .. وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

واستقبلوا العام الجديد بعزم صادق، ونية صالحة، وتوبة خالصة لله تبارك وتعالى، عسى أن يجعل يومنا خيراً من أمسنا وغدنا خيراً من يومنا.

توبوا إلى الله واستغفروه، إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كان الناس فى هذه البلاد فى الأزمنة الماضية، يعرفون قيمة أوقاتهم ويصرفونها فى طاعة الله. كانوا يسيرون على نظام الحياة اليومى للمسلم، ينامون مبكّرين ويستيقظون مبكّرين.

كنت أرى النّاس ينامون بعد صلاة العشاء، ويستيقظون قبل صلاة الفجر، فتدبّ الحياة فى المدينة كلّها من قبل الفجر .

ثمّ تغيرّت الحياة فأصبح الناس يسهرون سهراً طويلاً، ولا يستيقظون إلاّ بعد طلوع الشمس، فيضيعّون الصلاة، ويضيعّون الوقت الجميل.. وقت البكور، الذى دعا النبى ﷺ له بالبركة فقال: «اللهم بارك لأمّتى فى بكورها»(١).

كان الناس يستقبلون الصباح الجميل فى نداوته وطراوته وطهارته قبل أن تلّوثه أنفاس العصاة، فيستفيدون من الوقت مبكّراً. ولكن الناس الآن أصبحوا يسهرون ويقضون كثيراً من اللّيل، ولا يستيقظون إلاّ متأخرين.

ما أجدرنا أن نحاول أن نعود إلى نظام الحياة اليومى للإنسان المسلم، وأن نستغلّ أوقاتنا فيما يرضى الله تبارك وتعالى.

السلف الصالح ألّفوا كتباً سمّوها: (عمل اليوم والليلة)(٢). ماذا يفعل المسلم فى يومه وليلته؟ ماذا يقول حينما ينام؟ وماذا يقول حينما يستيقظ من نومه؟ وماذا يقول عندما يأكل، وعندما يشرب، وعندما يلبس ثوبه، وعندما

---

(١) وكان ﷺ إذا بعث سريّة أو جيشاً بعثهم من أوّل النهار، وكان صخر الغامدى – راوى الحديث – تاجراً فكان يبعث تجارته من أول النّهار، فأثرى وكثر ماله. رواه أبو دارد، والترمذى وقال: حديث حسن، والنسائى، وابن ماجة، وابن حبان فى صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢ / ٤٩٩ – ٥٠٠ برقم ٩٤٥). وانظر (شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ١١ / ٢٠ برقم ٢٦٧٣).

(٢) وهى كتب تبيّن الأقوال والأعمال الدينيّة المطلوبة من المسلم فى يومه وليلته وصباحه ومسائه، ومن أشهرها كتاب «عمل اليوم والليلة» للإمام أحمد بن شعيب النّسائى (ت ٣٠٣ هـ)، وقد حقّقه الدكتور فاروق حمادة، وللحافظ ابن السنى تلميذ النّسائى كتاب بنفس العنوان.

يخرج من بيته، وعندما يدخله، وعندما يركب دابته؟ . . . إلخ . كلّ شيء له ذكر خاص به وله دعاء مأثور، وله أدب من الآداب .

ليحرص المسلم على مراعاة هذه الآداب، حتى يكون دائماً ذاكراً لله تعالى، حامداً له، مراقباً لله في أعماله، يرقب الله في سرّه ونجواه، في جلوته وخلوته، في البيت وفي الطريق وفي العمل «اتق الله حيثما كنت . .»(١) ، ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ . .** ﴾ [البقرة: ١١٥] .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل يومنا خيراً من أمسنا، وأن يجعل غدنا خيراً من يومنا، وأن يحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأن يجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقي .

اللهم لا تدعنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرةّ، ولا تجعلنا من الغافلين .

اللهم أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا .

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقى، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل .

اللهم انصرنا على أعداء المسلمين، اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على كل من عاون اليهود، اللهم انصرنا على الطغاة والظالمين والملحدين في كل مكان . اللهم انصرنا نصراً تؤيدّ به الدين، وتعلي به كلمة الحق واليقين .

﴿ **. . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

اللهم آمين ﴿ **. . وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وصححّه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، عن أبي ذرّ رضي الله عنه، وهو من أحاديث الأربعين النووية، وتتمتّه: « . . وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٧١٢ برقم ١٥٩٤) .

الفهرس

رقم الإيداع ١٥١٨٥ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى I.S.B.N.
977-225-153-1

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

مؤلفات فضيلة الدكتور : يوسف عبد الله القرضاوى

● **في الفقه وأصوله :**

١- الحلال والحرام في الإسلام .
٢- فتاوى معاصرة ج ١ .
٣- فتاوى معاصرة ج ٢ .
٤- تيسير الفقه : فقه الصيام .
٥- الاجتهاد في الشريعة الإسلامية .
٦- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
٧- من فقه الدولة في الإسلام .
٨- نحو فقه ميسر معاصر .
٩- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
١٠- عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية
١١- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد
١٢- الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط

● **في الاقتصاد الإسلامي :**

١- فقه الزكاة . (جزءان)
٢- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
٣- بيع المرابحة للآمر بالشراء .
٤- فوائد البنوك هي الربا الحرام .
٥- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي

● **في علوم القرآن والسنة :**

١- الصبر في القرآن .
٢- العقل والعلم في القرآن الكريم .
٣- كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟
٤- كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟
٥- تفسير سورة الرعد .
٦- المدخل لدراسة السنة النبويه .
٧- المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان)
٨- السنة مصدرا للمعرفة والحضارة .

● **عقائد الإسلام :**

١- وجود الله .
٢- حقيقة التوحيد .
٣- الإيمان بالقدر

● **في فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة :**

١- الحياة الربانية والعلم .
٢- النية والإخلاص .
٣- التوكل .
٤- التوبة إلى الله .

● **في الدعوة والتربية :**

١- ثقافة الداعية .
٢- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا
٣- الإخوان المسلمون ٧٠ عاما في الدعوة والتربية .
٤- الرسول والعلم .
٥- الوقت في حياة المسلم .
٦- رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد .

● **في ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية**

١- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي .
٢- أين الخلل .
٣- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة
٤- في فقه الأولويات .
٥- الإسلام والعلمانية وجها لوجه .
٦- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
٧- ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده .
٨- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي .
٩- شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان .
١٠- الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم .
١١- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
١٢- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .

● **سلسلة حتمية الحل الإسلامي :**

١- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا .
٢- الحل الإسلامي فريضة وضرورة .
٣- بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين .
٤- أعداء الحل الإسلامي

● **نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :**

١- شمول الإسلام .
٢- المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة .
٣- موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمائم والكهانة والرقى .
٤- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

● **إسلاميات عامة :**

١- الإيمان والحياة .
٢- العبادة في الإسلام .
٣- الخصائص العامة للإسلام .
٤- مدخل لمعرفة الإسلام .
٥- الإسلام حضارة الغد .
٦- الناس والحق .
٧- جيل النصر المنشود .
٨- درس النكبة الثانية .
٩- خطب الشيخ القرضاوى ج ١ .
١٠- خطب الشيخ القرضاوى ج ٢ .
١١- خطب الشيخ القرضاوى ج ٣ .
١٢- لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر .
١٣- قضايا معاصرة على بساط البحث .
١٤- قطوف دانية من الكتاب والسنة .

● **شخصيات إسلامية :**

١- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه .
٢- الشيخ الغزالي كما عرفته : رحلة نصف قرن .
٣- نساء مؤمنات .

● **في الأدب والشعر :**

١- نفحات ولفحات - ديوان شعر .
٢- المسلمون قادمون - ديوان شعر .
٣- يوسف الصديق - مسرحية شعرية .
٤- عالم وطاغية - مسرحية تاريخية .

● **رسائل ترشيد الصحوة :**

١- الدين في عصر العلم .
٢- الإسلام والفن .
٣- النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه .
٤- مركز المرأة في الحياة الإسلامية .
٥- فتاوى للمرأة المسلمة .
٦- جريمة الردة وعقوبة المرتد في ضوء القرآن والسنة .
٧- الأقليات الدينية والحل الإسلامي .
٨- المبشرات بانتصار الإسلام .
٩- مستقبل الأصولية الإسلامية .
١٠- القدس قضية كل مسلم .
١١- حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا .
١٢- ظاهرة الغلو في التكفير .

● **محاضرات الدكتور القرضاوى :**

١- لماذا الإسلام ؟
٢- الإسلام الذى ندعو إليه .
٣- واجب الشباب المسلم .
٤- مسلمة الغد .
٥- الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير
٦- قيمة الإنسان وغاية وجوده في الإسلام
٧- لكي تنجح مؤسسة الزكاة في التطبيق المعاصر
٨- التربية عند الإمام الشاطبي .
٩- السنة والبدعة .
١٠- مع المصطفى في بيته .
١١- زواج المسيار - حقيقته وحكمه .
١٢- الضوابط الشرعية لبناء المساجد .
١٣- موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى .
١٤- الجويني .. إمام الحرمين .. بين المؤرخين: الذهبي .. والسبكي .
١٥- الاستلحاق والتبني .. في الشريعة الإسلامية .